

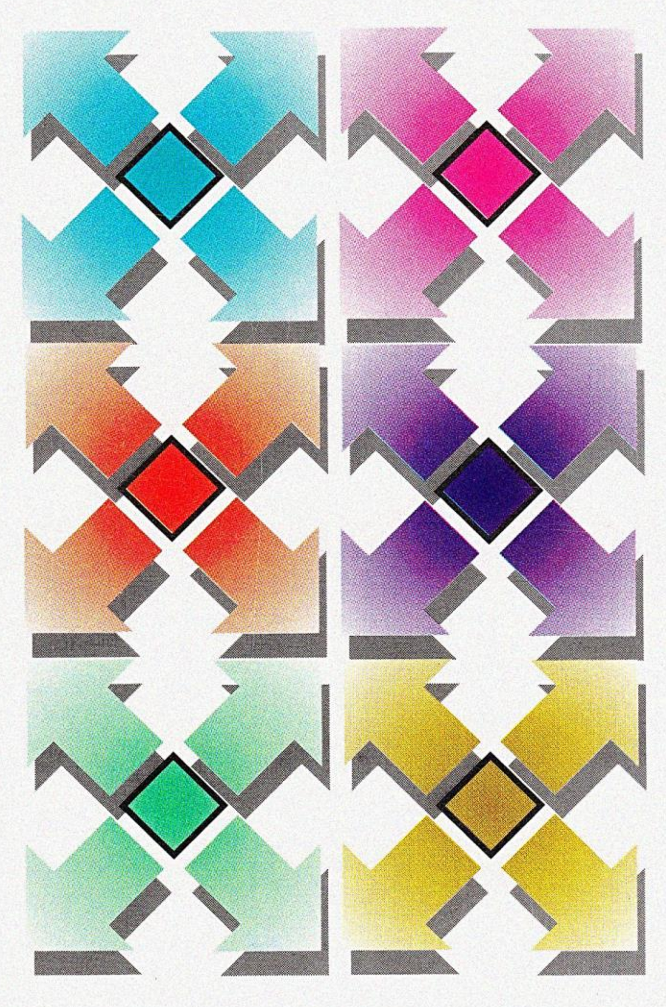
المكتبة العالمية

انفجار الاتصال

تأليف: فيليب بروتون

تأليف: سيرج برو

ترجمة: هالة عبد الرؤوف مراد



تقديم: د. خليل صابات



ثورة الاتصال

نشأة أيديولوجية جديدة



ثورة الاتصال
نشأة أيديولوجية جديدة

تأليف : فيليب بروتون ـــ سيرج برو
ترجمة : هالة عبد الرؤوف مراد



دار المستقبل العربي

ثورة الإتصال - فيليب بريتون، سيرج برو
هذا الكتاب ترجمة عربية للنسخة الفرنسية من كتاب
L`Explosion de la Communication
الصادرة عن: La Decouverte / Boréal 1989
تمت الترجمة بالاشتراك مع قسم الترجمة
بالبعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة

ترجمة : هالة عبد الرءوف مراد
الغلاف: يوسف شاكر
الناشر: دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت - مصر الجديدة - القاهرة
ج. م. ع، ت: ٢٩٠٤٧٢٧
رقم الإيداع: ١٩٩٣/٧٧٥٤
الترقيم الدولي: ISBN: 977 - 239 - 054 - X

تقديم

قليلة هى الكتب التى تتناول الاتصال وقضاياه بوجه عام، والمترجمة عن اللغة الإنجليزية سواء كان مؤلفوها من الإنجليز أو الأمريكان. وأقل منها الكتب المترجمة عن الفرنسية في هذا المجال، مما يجعل المتخصص العربى في الإتصال مرتبطا بالمدرسة الأنجلوسكسونية أكثر من ارتباطه بالمدرسة الفرنسية التى لها وجهة نظرها فى هذا الصدد.

وأغلب الكتب التي ترجمت من الفرنسية إلي العربية تتناول الصحافة وخصائصها وتاريخها في فرنسا وبعض البلدان الأوروبية. أما الاتصال ومشكلاته وشئونه وتأثيراته فيعتبر « ثورة الإتصال » الكتاب الفرنسي الأول فى هذا المضمار الذي يُترجم إلي اللغة العربية، والأول من نوعه أيضا الذي يترجم بالتعاون مع قسم الترجمة بالبعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون بالقاهرة

وأرجوأن يكون هذا الكتاب فاتحة لترجمة كتب أخري تُعني بالاتصال ووسائله ومشكلاته وتثري المكتبة العربية بالفكر الفرنسى إلي جانب الأفكار الأخرى.

إن «ثورة الإتصال» هو كتاب يبعث على التفكير ويثير عدة أسئلة ويستفيد به المختصون وغير المختصين، فيطلعون خلال صفحاته علي الأفكار الجديدة التى نشأت عن «أيديولوجية الإتصال». وعلي مجالات الإتصال الجديدة وكيف نشأت أدوات الاتصال الكبرى.. كما يشرح الدور الذي تقوم به وسائل الإتصال والإعلانات ويبيّن مدي قدرة هذا الدور. ماعلاقات المعلوماتية (الأنفورماتيكية) بالسلطة واتخاذ القرار؟ ولكن أهم مافي هذا الكتاب أنه يبحث فى أيديولوجية الإتصال اليوم وفى مستقبل علوم الاتصال، وهى ثمة ثقافة جديدة بدأت تأخذ مكانها بفضل عصر الاتصال هذا، كما يبحث فى أثر ذلك علي مستقبل الجماعات الغربية.

إن مؤلفي هذا الكتاب يطرحان عدة أسئلة ويثيران عددا كبيرا من القضايا يحاولان الرد عليها. وعلينا نحن العرب قراء هذه الترجمة. أن نحاول بدورنا الرد عليها فى ضوء ظروفنا وثقافتنا وحضارتنا التى تختلف بلا شك مع ظروف الغرب وثقافته وحضارته.

إن «ثورة الإتصال»، عنوان هذا الكتاب، ليست فيه مبالغة أو إثارة لأنه ينقل إلينا واقع الاتصال كما هو وينبهنا إلي تأثيره على المجتمعات التي تعيشه حاليا ومستقبلا.

وأخيرا، فإن قائمة المراجع التي استعان بها مؤلفا الكتاب جديرة بأن تكون موضع اهتمام القارئ المختص، ففيها الكثير مما يفتح آفاق المعرفة الإتصالية ويثريها.

خليل صابات

مقدمة

تمثلت نقطة الانطلاق الى هذا الكتاب فى سؤال هو : لماذا يكثر الحديث هذه الأيام عن « الاتصال » ؟ وجاءت الاجابه بأن كلمة « اتصال » اذا كانت تتردد اليوم على كل الشفاه ، بداع وبغير داع ، فلأن تقنيات الاتصال أصبحت منتشرة فى كل مكان ، ولأن حياتنا اليومية أصبحت زاخرة بالأقمار الاصطناعية والحاسبات الآلية ، والمحطات التليفزيونية الجديدة وأجهزة « المينيتيل » والتليفون ووسائل الاعلام المستحدثة .

واذا ألقينا نظرة سريعة على الكتب التى تتناول موضوع الاتصال والمنشورة حالياً فى أسواق أمريكا الشمالية وأوروبا ، سنصل الى اقتناع كامل بالتواجد الواسع لهذه التقنيات . بيد أن وفرة الكتب والخطب والبيانات الحكومية والتقارير وتوصيات اللجان ، تتناقض فى الواقع تماماً مع كون هذه الكتابات تقتصرغالباً على وصف تقنيات الاتصال و « آثارها » على المجتمع .

وهكذا يظل سؤالنا الأساسى بدون اجابة شافية ، ولكنه يكتسب بعداً جديداً : لماذا يكثر الحديث اليوم عن الاتصال وتقنياته ؟

كان من الواضح أن بحثنا ينبغى أن يكون بعيداً الى حد ما عن مجمل هذه الكتابات الوصفية ، اذا أردنا احراز بعض التقدم . ومن ثم كان علينا أن نعرف « منذ متى » بدأ يكثر الكلام عن الاتصال فى المجتمع . وقد بدا هذا الميدان البحثى ، الذى تطلب جهداً تاريخيا ،واعداً للغاية بعد فترة قصيرة — وسمح لنا

على الفور بعقد مقارنة بسيطة ولكنها أساسية ــ فقد كانت تقنيات الاتصال موجودة ومستخدمة على الدوام ، لكن الخطابة التى تضفى على الاتصال قيمة مركزية والتى يجب اللجوء اليها بانتظام لحل جميع أنواع المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تعد حديثة العهد تاريخيا . وقادتنا الكثير من عناصر بحثنا المبدئى الى صياغة الفرضية القائلة بأن ما اسميناها « أيديولوجية الاتصال » ظهرت فى الغرب فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ .

ودفعنا هذا التزامن بين النشأة التى بدأنا فى تحديدها والرهانات التاريخية العجيبة والمأساوية التى اتسمت بها هذه المرحلة الى توخى الكثير من الحذر ، خاصة وأن الهدف من اصدار هذا الكتاب لم يكن ــ فى البداية ــ التأريخ وانما مشاركة القارىء فى القاء نظرة جديدة على الاتصال . ومن ثم قررنا أن نبدأ بتحديد الميدان البحثى ، ثم نحاول تعميق الاستقصاء التاريخى زمنياً ، لنعرف اذا كان هذا الفصام المعاصر الذى نعتقد أننا كشفنا عنه النقاب فى محله .

فقد يبدو حقل الاتصال ، حتى لو نظرنا اليه من خلال تقنياته شديد الاتساع . ولذا يتعين اختصاره ليقتصر على « الاتصال الاجتماعى » واستبعاد الاتصالات بين الأشخاص ، أو مجال الاتصال الشخصى المباشر برمته من ناحية والاتصالات بمعنى وسائل الانتقال المادى للأفراد من ناحية أخرى . وهو فصل لايقل تعسفاً وإن بدا هيناً ، حيث أن الأحداث تكون شديدة الارتباط بعضها ببعض أكثر بالتأكيد مما توحى به فئات الملاحظة المجردة فى بعض الأحيان .

أما وقد أجرينا هذا التقسيم الذى يخلصنا من مساوىء الوقوع فى العمومية الشديدة ، تبقى أمامنا « نواة صلبة » : هى الاتصال الاجتماعى أى الاتصال بواسطة وسيلة ما ، والذى يتطلب عادة وجود رسائل متداولة بين عدة مجموعات من الأشخاص أو بين شخص ومجموعة .

وقد أكدت البحوث التاريخية وجود تقنيات للاتصال الاجتماعى منذ زمن بعيد ، وكانت الوسيلتان الأوليان . هما الكتابة والخطابة . والقراءة الواعيه للكتابات التى تناولت هذه المسألة ــ بشكل غير مباشر غالباً ــ تسمح

باستنتاج نقطة هامة للجهد اللاحق ألا وهى أهمية السياق الاجتماعى والثقافى فى ظهور تقنيات الاتصال واستخدامها .

لقد تعجبنا كثيراً من « الحتمية التقنية »* التى صبغت معظم الأعمال الحالية التى تتناول موضوع الاتصال . فالاستعراض السريع للظروف التى نشأت فيها تقنيات الاتصال فى مجتمعاتنا ، من قديم الأزل وحتى يومنا هذا ، تكشف الى أى مدى أغفلنا أهمية السياق الاجتماعى — سواء فى مجال الكتابة أو الطباعة أو التقنيات الألكترونية الأولى — الذى طالما لعب دوراً دافعاً حاسماً سواء فى تحديثها أو ظروف استخدامها فيما بعد .

ويعيدنا هذا الحضور القوى للسياق الاجتماعى مرة أخرى الى تساؤل البداية . كما كان علينا أن نفسر أسباب القفزة الهائلة التى شهدتها تقنيات الاتصال فى الأربعينات الى حد امكانية وصف ما حدث منذ تلك الفترة بأنه « ثورة حقيقية فى الاتصال » . والبحث المتعمق فى أوساط كبار مهندسى الاتصال سواء فى مجال الاتصالات اللاسلكية أو فى مجال « المعلوماتية » الناشئة يسفر عن حقيقة أساسية ، وهى أن « أيديولوجية الاتصال » ذلك المفهوم الواضح والمتجانس المنصب على فكرة الاتصال ، ظهر بحق فى منتصف القرن ، كنوع من الرد الايجابى على وضع مأساوى لمسناه ، وقد تشكلت هذه الأيديولوجية أمام أعيننا كبديل حقيقى لأيديولوجيات سياسية فشلت — فى نظر هذه الأوساط فى تلك الفترة — فى ادارة الشئون الانسانية .

وجاءت أيديولوجية الاتصال ، التى تبلورت « كبديل للهمجية » فى مناخ عام تبعثرت فيه أشلاء الانسانية القديمه لتخلى الساحة لفلسفات عبثية ، فطرحت نفسها كايديولوجية « بلا أعداء » وأرست — بفضل تقنياتها — شكلاً من أشكال المعايير المتفق عليها فى العلاقات الاجتماعية. إنها ايديولوجية بلا أعداء ولكنها لاتخلو من النضال والظلال ، طالما أن « الشر » سيتجسد فيها تحت مسميات شتى مثل « الشك » ، « الفوضى » ، « عدم النظام » ، « التشويش » (وفقاً لنظرية الاعلام)

وبدأت « طرق العلاج بالإبادة » التى ميزت الأيديولوجيات السياسية فى القرن العشرين تتراجع ليحل محلها مشروع مثالى « لمجتمع الاتصال » الذى يتفاعل فيه الناس والآلات فى انسجام ، بل وعلى قدم المساواة بفضل « العقول الصناعية » الجديدة . ويجب أن نستنتج أن هذه العملية لم تكن لتتحقق الا باعادة تعريف « انثروبولوجى » لماهية الكائن البشرى وكذلك الآلة ، التى وضعت حينذاك على نفس المستوى مع الانسان . ألم تختارهما هذه الأيديولوجيه الجديدة ـــ التى لم تجعل من أى كائن كان عدواً لها ـــ لعملية اصلاح غير مقبولة تقريباً على المستوى الأخلاقى ؟

هذا البحث ، الشيق لأنه يدفع بنا على الفور الى البوتقة التى خرجت منها جميع الكتابات الحالية عن الاتصال ، سيتيح لنا فرصة إلقاء نظرة جديدة على تقنيات الاتصال والمشاكل الراهنة التى تنجم عن استخداماتها . لقد بدأ المتخصصون ، منذ فترة ، فى بحث العديد من المشكلات المتعلقة بهذا الموضوع ، وكذلك السلطة الفعلية ـــ أو المفترضة ـــ لوسائل الإعلام على الأفراد ، أو على إمكانيات معالجة الاتصال الدعائى. أيضا لايزال الكثير من الاستفسارات مطروحاً حول مسألة تقارب تقنيات الاتصال وتكاملها ، خاصة بعد اللجوء الى الالكترونيات .

إن رغبتنا فى اصطحاب القارىء فى رحلة بحث عن الظروف التى واكبت ظهور « الاتصال » ، والتعرف بشكل متعمق على المناقشات التى دارت حول استخدام « تقنياته » ، قادتنا الى اقتراح القيام باستعراض ، شامل كلما أمكن ، للطريقة التى أنتهجها صفوة الخبراء فى تحليل علاقة وسائل الإعلام بالسلطة . لتيسير هذه المهمة ووضع منهج للدخول فى الموضوع ، كان يجب أن نرسم خريطة « لمناطق الاتصال » المختلفة مع محاولة إبراز أوجه الاتفاق ـــ التى بدت احتمالاتها أقل مما يظهر عموماً ـــ وأوجه الاختلاف ، ليس فقط على مستوى التقنيات وإنما على مستوى البشر و « الثقافات » التى يرتبطون بها .

كما سعينا لفحص المبررات التى تصاحب غالبا تطور تقنيات الاتصال ، خاصة من المنظور الاقتصادى . فمكانة تقنيات الاتصال والدور الذى تلعبه فى دول العالم الثالث تشكل من هذه الزاوية كاشفاً جيداً للوضع العام . وربما تمثل أهمية الأيديولوجية فى مسألة اللجوء الى تقنيات الاتصال عنصراً جديداً فى الجدل المحتدم أصلاً حول موضوع «التشويش»، «رفع القيود». فالحديث عن «ثورة الاتصال» يدفع أيضاً الى التفكير فى عمليات التفكيك والتركيب الحالية الخاصة بالتقنيات واستخداماتها .

ويجب ألا ينسينا التحديث الذى يحيطنا من كل جانب هذه الأيام أن هذا المجال شهد انقساماً قديماً سنتتبع مساراته فى فصول هذا الكتاب . لقد فصل هذا الانقسام ، فى دنيا الاتصال بصفة خاصة وفى مجال التعبير والابداع البشرى بصفة عامة ، بين « ثقافة الاستدلال » و « ثقافة البديهيات » .

لقد أعلت الأولى قيمة الانسان فى حديثه وحياته الاجتماعية ، بينما فضلت الثانية الحقيقة ، والقياس ، واقامت الصلات مع عالم متحرر من الضغوط الطبيعية . وسنستشف بين سطور هذا الكتاب ، فكرة واحدة ، هى محاولة ايجاد توازن داخل الاتصال أو بفضله ، بين هاتين الثقافتين .



الباب الأول

تقنيات الاتصال على مر التاريخ



١ ــ المراحل الأولى للكتابة

تلعب اللغة ، التي تشكل جزءاً أساسياً من القدرات الحيوية للجنس البشرى ، دوراً رئيسياً فى التواصل الاجتماعى ، وهى تعد إحدى وسائله الهامة .

بهذه الصفة تصبح اللغة هى نقطة الانطلاق ، وهى أقدم تقنيات التعبير لدى الانسان ، ونخص بالذكر نوعين أساسيين : « الكتابة » وبعدها بفترة بدأ إرساء قواعد التعبير الشفوى فى صورة « الخطابة » .

تختلف اللغة عن تقنيات الاتصال التى تلتها فى نقطتين : من ناحية تعد اللغة فى الأصل هبة حيوية ، أما الكتابة والخطابة فهى مكتسبات ثقافية . فالطفل يمكن أن يتعلم الكلام لأنه مؤهل وراثياً لذلك ، بينما تحتاج الكتابة واتقان التعبير الشفهى الى تدريب منظم على طريقة من طرق التدوين تتلاءم مع اللغة المنطوقة . ويكفى ، كى نتعلم الكلام ، أن نعيش فى وسط به بشر يتحادثون ، وهو ما لاينطبق على الكتابة .

ومن ناحية أخرى : تعد اللغة من المسلمات التاريخية التى سبقت بكثير ـــ اختراع الكتابة أو الخطابة . وبينما يحصى اللغويون ثلاثة آلاف لغة منطوقة حاليا (وأربعة آلاف لغة أخرى اندثرت) ، فإن المدون منها لايتجاوز المائة بفضل الكتابه (سواء الرمزية أو الأبجدية) .

وكما يذكرنا « اريك هافيلوك » بإلحاح فإن أى تصور يربط بين ثراء ثقافة ما أو مدى تعقيدها وتحقيق قدر من التطور فى استخدام الكتابة لابد من رفضه رفضا باتا. فأى ثقافة يمكن أن تعتمد تماما ، بطريقة أو بأخرى على الاتصال الشفهى ، وتعد مع ذلك ثقافة بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان .

من ثم يجب وضع اختراع تقنيتى الاتصال المتميزتين والمتمثلتين فى الكتابة والخطابة ، فى السياق التاريخى المواكب لظهورهما ، والذى يستطيع وحده أن ينبئنا عن أهميتهما ودورهما . وللحق ، لا توجد ضرورة حيوية حتمت ظهور تقنيات فى هذا المجال ، وانما هى ظروف اجتماعية .

نشأة الكتابة

يمكن التأريخ لاختراع الكتابة ، كتقنية لتدوين اللغة المنطوقة ، وفقاً لمرحلتين كبيرتين متتاليتين ارتبطتا بطريقتين للكتابة مختلفتين مادياً هما : الكتابة الرمزية سواء كانت تصويرية بحتة أو معبرة عن أصوات ، والكتابة الأبجدية .

وقد نشأت الكتابة الرمزية فى بلاد مابين النهرين قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف عام تقريباً . وكانت فى بداياتها ، حسب علمنا ، تصويرية بحتة ، أى تستخدم رسماً تصويريا للتعبير عن شىء أو شخص معين (كأن ترسم شجرة للتعبير عن الشجرة أو رأس حمار للتعبير عن الحمار .. الخ) .

وفى عام ٣٠٠٠ تقريباً قبل الميلاد أصبحت الرسوم أكثر تجريدية ، وأمكن استخدام مجموعة رسومات للاشارة اللفظية الى كلمة دون أن تكون ثمة علاقة تصويرية مباشرة بين الكلمة والرسوم المعبرة عنها (كأن يتم التعبير عن كلمة سجادة باللغة الفرنسية «tapis» برسم كومة «tas» و «pie» عصفور يجمع بين اللونين الأبيض والأسود) .

استخدم المصريون كذلك كتابة من هذا النوع ، ولكن حروف لغتهم الهيروغليفية كانت أكثر ثراء وتنوعاً ، لذا كانت القدرة التعبيرية للغة المصرية القديمة أكبر بكثير من اللغة « المسمارية » التى استخدمها السومريون فى بلاد

مابين النهرين (تأتى تسمية اللغة المسمارية من كلمة مسمار لأن رسومات اللغة كانت أشبه بمجموعة من المسامير ذات الرؤوس والتى ترجع الى نوعية الأداة التى كانت مستخدمة فى الكتابة والتى كانت منحوتة عند حافتها على شكل مثلث مطول للنقش على الطين) .

إن وجود رسومات يتعين تفسيرها بشكل تصويرى (كرسم قطة للتعبير عن القطة) جنباً الى جنب فى نفس النص مع رسومات تحتاج على العكس الى التعامل معها كمقابل لصوت منطوق (كرسم قطة « chat » للتعبير عن النصف الأول من كلمة قبعة بالفرنسية « chapean ») ، أدى الى ظهور طائفة خاصة من الرموز ، « المعرِّفة » التى تحدد كيفية تفسير الرمز المصاحب لها ، والتى تسمح بالتمييز بين الرسم الذى يجب أخذه على محمل تصويرى وذلك الذى يعبر عن حقيقة أكثر تجريداً . ويشكل الرمز المعرِّف الذى يصاحب الصورة اتصالاً حقيقياً من الدرجة الثانية لأنه يخبر القارىء مباشرة عن مضمون ما يقرأه .

وبدت الكتابة فى تطورها تنفصل تدريجياً عن الصور وعن التعبير التماثلى عن الاشياء . دفعها الى ذلك التغيير الاجتماعى وخصوصاً نمو المبادلات التجارية ، وأسفر هذا التوجه الى تجريد الكتابة عن اختراع الحروف الأبجدية ، التى حققت انفصالاً عن الصورة ، حيث أصبحت تعتمد على مجموعة صغيرة من الرموز المجردة الشفرية تمثل الأصوات المنطوقة بالفعل .

يمكن الربط — فيما يتعلق باللغات السامية الأساسية — بين هذا الانفصال التدريجى عن البعد التماثلى فى الصور ، ورفض تصوير الله فى اليهودية وكافة الكائنات الحية فى الاسلام ؛ حيث أصبحت هاتان الديانتان تعتمدان على الكتابة الأبجدية فى التعبير .

يرجع اختراع الأبجدية الى الفينيقيين ، وربما قبلهم الى الساميين فى سوريا ، فى الحقبة الواقعة بين الألف الثانية والألف الأولى قبل الميلاد . لكن هذه الأبجدية الأولى كانت محدودة الانتشار لأنها لم تشتمل على حروف متحركة مما جعل قراءتها

صعبة الى حد كبير (فالنص المكتوب لايعبر عن جميع الكلمات المنطوقة) .
ومضى وقت طويل حتى توصل اليونانيون فى الفترة من القرن الثامن الى القرن السادس قبل الميلاد الى أبجدية اشتملت على حروف متحركة ومن ثم الحصول على نظام جيد يعبر بأمانة عن اللغة المنطوقة .

كانت هذه الأبجدية إحدى ثمار المتغيرات الاجتماعية المتعددة التى لحقت باليونان منذ سنة ١١٠٠ قبل الميلاد ، تلك المتغيرات التى أدت الى شكل جديد فى تنظيم المدن والتوصل الى قيم الديمقراطية الأثينية . لقد كانت الأبجدية اليونانية ـــ من حيث المبدأ ـــ وراء ظهور الكثير من الأبجديات الكبرى التى تلتها، حتى عمت الأبجدية اللاتينية كافة الدول الغربية .

ومن ثم نتبين أن تقنيات الكتابة نشطت بفعل حافز اجتماعى ومبدأ اقتصادى داخلى يسعى دوما الى تقريب اللغة المكتوبة من اللغة المنطوقة . لقد ساعد النظام اليونانى للكتابة الصوتية على تحويل القراءة الى طريقة آلية .

وأصبحت الكتابة ـــ حسب رأى هافيلوك ـــ أشبه بتيار كهربائى يوصل مباشرة الى المخ أصوات اللغة المذكورة ، بحيث يتردد مدلولها ، اذ اجاز التعبير ـــ فى وعى القارىء ، دون الاستناد الى سمات مميزة فى التعبير الخطى .

وقد ساعد التجريد المفروض فى نظام الترميز الأبجدى على تعزيز اتجاه الكتابة الطبيعى للاستقلال النسبى عن اللغة التى تدونها . حيث يمكن استخدام نظام واحد للاشارات المكتوبة ، خاصة لو كانت أبجدية ، فى تدوين عدة لغات مختلفة تماماً . فالابجدية العبرية على سبيل المثال يمكن استخدامها لتدوين اللغة « اليدية » ، المكونة أساساً من كلمات ألمانية وسلافية ، فضلاً عن العبرية القديمة والحديثة التى اشتقت منها . والابجدية العربية تستعمل لتدوين الفارسية ، التى تعد لغة هندو أوروبية كاللاتينية والفرنسية ، الى جانب العربية المنطوقة التى تعتبر لغة سامية .

وهو ماحدث مع كمال اتاتورك الذى أراد تغريب بلاده فأصدر مرسوماً فى عام ١٩٢٨ بالغاء استخدام الابجدية العربية فى تدوين اللغة التركية ، واحلال

الأبجدية اللاتينية محلها دون أن يؤثر ذلك على اللغة المنطوقة . فالبنية الأساسية للغة ما ، لاتتأثر بتغيير نظام الكتابة الذى تختاره . حيث أن اختيار نظام كتابة معين لايخضع إلا نادراً لاعتبارات « تقنية » داخل اللغات المعنية .

البعد الاجتماعى للكتابة

إعتمدت حركة اختراع الكتابة ، أو الأنواع المختلفة من الكتابة التى شهدتها البشرية ، على عاملين أساسيين : أحدهما تقنى — تعتبر الكتابة المسمارية أو الأبجدية « اختراعاً » بالمعنى التقنى للكلمة — والآخر اجتماعى وسياسى . ومن ثم يمكن أن تدرج الكتابة من هذه الناحية ، مثل تقنيات الاتصال الأخرى التى ظهرت بعدها ، ضمن منظومة يبدأ فيها السياق الاجتماعى والسياسى المحيط بتمهيد الطريق للاختراع وينتهى بتحديد حجم هذا الاختراع وتوجهه فيما بعد .

فما هو السياق الذى ظهرت فيه الكتابة ، أو بعبارة أخرى ، لماذا اخترع الناس الاشارات المكتوبة ؟ لقد كانت الرموز المصورة الأولى للكتابة السومرية مرتبطة الى حد كبير بنظام الأعداد الذى سبقها . وكانت الألواح الطينية الشهيرة التى اعتبرت فى تلك الفترة بمثابة وثائق مكتوبة أساسية قد شاع استخدامها قبل ذلك لتدوين الأرقام المقابلة لكميات البضائع . كانت هذه الأرقام تسجل فى البداية باستخدام قطع من الحصى متفاوتة الأحجام ومحفوظة فى كرات من الطين بها ثقوب . ثم بدأت هذه الحصى تختفى تدريجياً لتحل محلها رموز مدونة على قطع الطين نفسها . تحولت كرات الحجارة ، توخيا للراحة ، لتتخذ شكل ألواح منحنية فى البداية ثم مسطحة . وفى حوالى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد أصبحت هذه الأرقام تستكمل برسم الكائنات أو الأشياء التى تمثلها هذه الكميات . ومنذ تلك اللحظة بدأ التأريخ لنشأة الكتابة فى اطاراستخدام أصبحنا نسميه الآن لما « المحاسبة المكتوبة » .

بيد أن الوسيلة الأولى التى استخدمت فى الكتابة جسدت هذه الازدواجية حيث كان « القلم » المستخدم فى نقش الطين الرخو حينذاك ، مستديراً من

أحد طرفيه لتدوين الرموز العددية (حزوز مختلفة السمك) ، ودقيقاً من الطرف الآخر لرسم الرموز المصورة . وفيما بعد اتخذ هذا الطرف الدقيق شكل مثلث ممتد . واعتاد الكتاب السومريون التدوين على ألواح تحمل على أحد وجهيها رموزاً مصورة وأرقاماً ، وعلى الوجه الآخر اجمالى كل صنف من البضائع مذيل بما يمكن أن يكون توقيعاً .

لقد كان لهذا الاستخدام بالتأكيد صلة مباشرة بتطور حضارة مابين النهرين ، فى منطقة خصبة شهدت شكلا من أشكال المدنية . لقد ارتبطت عمليات الجرد بتطور التخزين وتركيز السلع ، وكذلك بتطور المبادلات التجارية . اذن ، فقد كانت الغاية الأولى من الكتابة هى حفظ المعلومات . وفى هذا الاتجاه ، كانت الكتابات الأولى بمثابة مكمل لتداول السلع فهل يمكن الحديث حينئذ عن تقنية حقيقية للاتصال ؟ ألم تكن الكتابة ذاكرة إحصائية أكثر منها أداة لتبادل الأفكار ؟ .

والأهمية الفاصلة للسياق الاجتماعى فى مراحل التطوير المختلفة التى مرت بها الكتابة تجسدت أيضا كأحسن مايكون فى الظروف التى واكبت اختيار الأبجدية الإيونيه التى فرضت نفسها فى النهاية على اليونان . واعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد ، بذلت عدة محاولات لتدوين جميع اصوات اللغة اليونانية المنطوقة بواسطة نظام للرموز الأبجدية يضم حروفاً متحركة . وتم تشكيل عدة أبجديات محلية انبثق منها نظامان كبيران هما الشرقى والغربى حتى وقع اختيار حكام أثينا الطبيعى على النظام الشرقى الذى سمى (الأبجدية الإيونية) لتدوين اللغة الاثينية .

وقد خضع اختيار الأبجدية ، الذى لم ينشأ عن أى ضرورة لغوية ، للعبة القوة السياسية — أثينا — التى تفرض على الآخرين رؤيتها للأمور . وحدث نفس الشىء فى روما حيث تزامنت هيمنتها السياسية مع انتشار الأبجدية اللاتينية كعنصر توحيد ، بما ترتب على ذلك من آثار دائمة نعرفها ، فما زالت هذه الأبجدية مستخدمة الى يومنا هذا فى مناطق كثيرة من العالم الغربى .

الأهمية الاجتماعية للكتابة عند القدماء .

ليس من السهل تحديد الدور الاجتماعى للكتابة فى الفترة منذ اختراعها وحتى نهاية القرون الوسطى عند الغرب . وقد يقع البعض فى إغراء إعطاء النصوص المكتوبة أكثر من حقها فى تلك الحقبة من التاريخ ! وهل الفكرة السائدة حالياً والقائلة بأن ظهور الكتابة وبالذات الكتابة الأبجدية المقطعية ، كان بمثابة نقطة الانطلاق لتغيرات هامة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً لها ما يؤكدها ؟ ثمة وجهتا نظر لم يثبتا فى هذا الشأن : تقول إحداهما أن الكتابة استخدمت على الفور كتقنية للاتصال ، ومن ثم طورت طرق تداول الأفكار والمعلومات تطويراً عميقا .. وتقول الأخرى أن احتكار الكتابة كان مصدر نفوذ لمحتكريها ، أدى الى تغيير شروط ممارسة النفوذ وبالتالى تعديل التوازنات الاجتماعية الكبرى .

يتعين مبدئياً ملاحظة التناقض الجزئى بين هذين الرأيين . فالتطور المفترض للكتابة كتقنية للاتصال تستقطب لحسابها كافة الوسائل الكبرى الخاصة بالتداول الاجتماعى للأفكار يتعارض فى الواقع مع الاحتكار الذى يمارسه الكتبة بغية تكريس نفوذ طبقة اجتماعية جديدة ، حيث أن هذا الاحتكار يتطلب تضييقا وتقليصاً لطرق الاتصال نفسها . وللاجابة بدقة على الأسئلة التى تطرح نفسها فى هذا المجال يجب التمييز ، أساساً بالنسبة للعصور القديمة ، بين التطور الداخلى لتقنيات الكتابة ، خصوصاً مع اختراع الابجدية اليونانية ، الذى كان سريعاً للغاية ، وبين الاستخدامات الاجتماعية للكتابة التى على العكس ، لم تنتشر ببطء شديد وظلت ثانوية فى مجتمع ساده التواصل الشفهى .

كان الوضع فى قديم الزمان كمايلى بشكل موجز : عدد محدود من النصوص المكتوبة ، قلة من القراء وعدد أقل من الكتاب . وساعد على محدودية هذا الانتشار بدرجة كبيرة ندرة وغلاء مواد الكتابة فى ذلك الحين مثل الرق وورق البردى . وخير دليل على ذلك اللجوء الى كتاب. نص محل نص آخر بعد محو أو كشط النص الأول . كانت سهولة وسرعة القراءة آمرا صعب المنال ، حتى فى اليونان وفيما بعد فى روما . ويذكرنا هافيلوك بأن عدد النصوص التى كان يمكن

للأثينى المتعلم أن يتمرن عليها ظل محدوداً .

وقد بدأ تأثير النصوص كوسيلة اتصال ، شهدت بعض النمو حتى سقوط الامبراطورية ، يتضاءل مع عودة شكل تقنى خاص مرتبط بالكتابة ألا وهو فن الخط الذى جعل من الحروف شيئاً مرئياً صرفاً . وخرجت الكتابة الخطية من حيز الاتصالات لتدخل العالم الفنى — فهل يعنى ذلك أن ندين — كما فعل بعض الكتاب — فن الخط ثم بشكل أعم أى استخدام للكتابة يبعد عن المتطلبات الوظيفية لتدوين اللغة المنطوقة بشكل واضح وفعال ؟ وهل يتعين أن نرى فى البراعة الخطية التى ستنتشر فى منتصف القرون الوسطى « عدواً للانتشار الاجتماعى لاستخدام اللغة » ؟ هذه الأسئلة تتيح لنا فرصة تحديد الى أى مدى لم تكن الكتابة بطبيعتها مجرد تقنية للاتصال ، وأن الاتجاه الذى اتخذته فى بعض فترات التاريخ اعتمد الى حد كبير على السياق الاجتماعى الذى كان يوجهها . ولم يحدث بالتأكيد أن أصبحت الكتابة تقنية اتصال ناجحة ، إلا مع الأبجدية اليونانية ولفترة ما ، حيث تحققت هذه الامكانية على الفور .

ومع اختراع الرموز المكتوبة ظهرت مهنة جديدة ، أو طائفة من المتخصصين هم الكتبة الذين كانوا فى الأصل كما رأينا محاسبين قبل أن يصبحوا كتاباً . ألم تتزايد الأهمية الاجتماعية للكتابة لكونها وسيلة نفوذ تحتكرها قلة من الناس ؟ لقد اقتصرت ممارسة الكتابة والقراءة فى الواقع على ما أسماه «هافيلوك» الاستخدام المهنى للكتابة والذى استمر حوالى ٤٥٠٠ سنة من الألف الرابعة قبل الميلاد وحتى عصر النهضة ، مع توقف نسبى وقصير من القرن الرابع اليونانى وحتى سقوط الامبراطورية الرومانية ، التى شهدت عودة الكتبة المحترفين ولفترة طويلة .

يمكن بالتأكيد تحديد الأهمية الاجتماعية للكتبة ، سواء الموظفين لخدمة السلطات أو النساخ المنعزلين فى أديرة نائية ، المحاسبين المصريين أو الفنانين المزخرفين ، بعدة طرق . وربما ينبغى هنا أيضاً توخى الحذر لعدم المبالغة الاسترجاعية فى وزن طائفة ظلت ، بسبب طبيعة فنها ، بمنأى جزئى عن مواقع صنع القرار . فالمكانة الرئيسية التى احتلها الكتبة الذين انحصرت مهمتهم فى

الاحصاء أو المحاسب ظلت نسبية لأنه تعين عليهم أن ينتظروا مدة طويلة جداً قبل أن تندمج المراكز الاقتصادية مع مراكز صنع القرار .

فمكانة الاقتصاد عند القدماء لم تسمح بادراج الكتبة، الذين كان دورهم رغم كل شيء ثانوياً، فى عداد ذوى النفوذ الحقيقى . ولا ينبغى اعطاء النفوذ الذى كان يتمتع به النساخ والمزخرفون أكثر من حقه برغم الأهمية الدينية لعملهم . وفى الثقافات الشفهية التى كانت سائدة فى عصر ماقبل النهضة ، لم تترك اللهجات المنطوقة إلا مكاناً ضيقاً للكتابة وكانت مكانة الخطباء ، كشيشرون مثلاً أقرب لمراكز صنع القرار من الكتبة .

الذاكرة والكتابة

ألم يحجب الانتشار الاجتماعى المحدود لتقنيات الكتابة أهمية التحولات الثقافية التى أحدثتها الكتابة فيما بعد برغم كل شيء ؟ لم يتردد بعض الكتاب فى اعتبار الابجدية مصدراً أولياً للقيم والثقافة اليونانية، ومن ثم جعلوا من هذه الطريقة المبتكرة لتدوين اللغة عصب التحديث . علاوة على أن التاريخ نادراً ما يقتصر على أسباب فردية ، فان مثل هذا الوضع يغمط الكثير من الحقائق . أولا وكما ذكرنا من قبل، لأن قيم المجتمع اليونانى ظهر معظمها ــ مالم يكن كلها ــ فى الفترة التى سبقت اختراع هذه الأبجدية ، من عام ١١٠٠ الى عام ٥٠٠ قبل الميلاد .

ثانيا : لأن مثل هذا الفصل الجذرى ، الذى يجعل من الأبجدية المحور شبه الوحيد لدخول الانسان من باب الحضارة ، يقلل من قدر الثقافة الشفهية . فهل ينطوى هذا الفصل على بذرة تفرقة جديدة ، تحوم حولها الشكوك اكثر من غيرها ، بين المجتمع « البدائى » والمجتمع « المتحضر » ؟ وهل مجتمع القرن العشرين يعد أكثر « تحضراً » لأنه أكثر من متعلم ؟ لاتزال الاجابة على هذا السؤال تحتاج لمزيد من البراهين .

وبرغم قلة المعلومات المتوفرة لدينا حول التحولات الثقافية الممكنة التى

أحدثها اكتشاف الأبجدية اليونانية واستخدامها (هذا الاستخدام الذى رأينا فى الغالب مدى محدوديته)، فمن الممكن التوصل على أى حال الى بعض النتائج اذا فحصنا على سبيل المثال تطور أشكال تخزين المعلومات فى العصور القديمة .

من بين الأسباب التى جعلت سقراط يعترض بشدة على استخدام الكتابة (وكذلك الخطابة) ، كما ورد فى احدى الفقرات الشهيرة من مسرحية « فيدرا » ، هو قدرتها على ادخال النسيان الى العقول لأنها تجعل العقل يهمل الذاكرة . « فمن منطلق الثقة فى الكتابة ، يعمل الانسان من خارجه بواسطة وسائل أجنبية عنه ، وليس من داخله ، من أعماقه على استدعاء ذكرياته ... وما سوف تلقنه لتلاميذك هو تهيؤ بأنهم تعلموا وليس العلم نفسه » . بيدأ ننا يجب ألا نتوقف بالطبع طويلاً عند عداء سقراط لتقنيات الاتصال كافة ، رغم أن تأثير الفيلسوف الكبير لم يسفر حتى يومنا هذا الا عن كل نتائج طيبة .

والنقطة التى كان سقراط محقاً فيها بلاشك هى ، أن تطور الكتابة كان يجب أن يغير بعمق ظروف تخزين المعلومات ، لقد كانت ذاكرة الأقدمين فى الثقافات الشفهية ، ذات قدرات خارقة . فإلى أى مدى أثر ظهور الأبجدية الاغريقية على معالجة الذكريات ؟ من هذه الناحية يجب أن نستوثق تقريباً من أن مخاوف سقراط ، على الأقل فيما يتعلق بالعصور القديمة ، لم تكن لها أساس من الصحة : فقد كان القرن الرابع قبل الميلاد بالتحديد هو الفترة التى بدأ فيها تطور طرق تخزين المعلومات الذى نظمته الخطابة ولم يكن يعتمد الا على الكلام الشفهى .

ويذكرنا « فرانسيس ياتيس » بأن القواعد الكبرى للذاكرة الاصطناعية كانت معروفة منذ فترة طويلة ، ولكن تشعب دور الكلام الشفهى المنظم شجع انتشارها على نطاق كان مجهولاً حتى ذلك الحين . ومن الواضح أن الكتابة لو كانت قد طورت بعمق شروط الانتاج العقلى لما كانت الطرق الخطابية لتخزين المعلومات شفهياً قد شهدت النمو غير المسبوق الذى أصابها فى العصور القديمة . لذا بدت الخطابة كتقنية للاتصال أكثر انتماء للعصور القديمة من الكتابة .

مراجع : M. Fabre, 1963; G. Gusdorf, 1952; E.A. Havelock, 1981; G. Ifrah, 1985; G. Jean, 1987; F. Yates, 1975.

٢ ـــ قوة الخطابة

لاجدال فى أن الاغريق هم الذين اخترعوا التقنيات الكبرى التى أرست أسس الخطابة . وكانوا أيضا أكثر النقاد صرامة لتلك التقنيات . وكان لتلك التقنيات ـــ خاصة فى أثينا ـــ استخدام قانونى فى الأساس ، فى اطار المرافعات فى القضايا ، كما كان لها استخدام سياسى ، حيث كانت الخطبة المسماة « البيانية » ، مثل الخطب التى تلقى فى حالات العزاء ، تسمح بنقل القيم الخاصة بالمدينة .

لكن، كان لابد من انتظار روما ، ومؤسسات الجمهورية ، لكى تلعب الخطابة دورها كاملاً كتقنية من تقنيات الاتصال وتتطور بكامل طاقتها . لقد كانت روما من الناحية العملية « مجتمع اتصال » بالمفهوم العصرى . وتجاوز نفوذها فى هذه ناحية الحدود الزمنية للامبراطورية بمسافة كبيرة ، طالما أن فكرة وجود رابطة اجتماعية قائمة على الاتصال المنظم والمؤسسى تجاوزت القرون الوسطى ، الى عصر النهضة بل أتت ثمارها فى العصور الحديثة .

كيف نشأت الخطابة ؟ يبدو أنها نشأت بالتحديد فى صقلية فى القرن الرابع قبل الميلاد ، كانعكاس للمخاطبة التى تهدف الى الاقناع وكتدريس لتقنيات هذا الاقناع . ويؤكد « بارت » فى هذا الصدد أن « التفكير فى أمور اللغة »

بدأ بهدف « الدفاع عن مصالح شخصية ». وفى حوالى عام ٤٨٥ قبل الميلاد ، قام اثنان من الطغاة الصقليين هما « جيلون » و « هيرون » بسلب ممتلكات سكان مدينة سيراقوسيا لتوزيعها على المرتزقة الذين كانوا يستخدمونهم . وعندما أطيح بهما خلال انقلاب ديمقراطى وأراد السكان العودة الى الوضع السابق لحكمهما ، كانت دعاوى الأسر التى ترغب فى استعادة ممتلكاتها لاحصر لها .

وساعدت المرافعات العديدة التى تلت هذا الوضع على نشأة علم خاص قام بتدريسه اثنان من الخطباء المعروفين هما « كوراكس » و « ثيسياس » . وبدت الخطابة ــ فى اطار التغير الاجتماعى ــ كرغبة فى العودة الى التوازن مع استبعاد استخدام القوة .

الخطوات الأولى للخطابة

ابتدع « كوراكس » الفكرة القائلة بأن كل خطبة يجب أن تكون مقسمة الى أجزاء كبرى تتوالى بصورة طبيعية . وشكلت هذه التقنية فى المخاطبة القاعدة المستقبلية لكل عرض متبصر للحجج والبراهين . فكان يجب أن تبدأ كل خطبة بكلمة موجهة الى القاضى « الاستهلال » تهدف الى تهيئة المستمعين وتعريفهم بالحجج التى ستعقب الاستهلال ، ثم تنتهى « بخاتمة » تمس قلوب الحاضرين . وبين هذين الجزءين يتم عرض الحقائق بشكل « سردى » ثم تناقش فى جزء يسمى « التأكيد » .

ونظراً للعلاقات التى كانت تربط « صقلية » « باثينا » ، بدأت هذه التقنيات الجديدة فى الاتصال ، التى تم اختبارها فى الدعاوى المرفوعة ضد الطغاة ، تنتشر بسرعة فى دولة الاغريق . وكان أحد عوامل انتشارها بالتأكيد هو إصرار القضاء الاغريقى على أن يدافع الشاكون بأنفسهم عن قضاياهم . وتطورت مهنة كاتب الخطب ، لأن كل مواطن لم يكن بالطبع قادراً على الترافع أمام محكمة دون مساعدة أحد الخبراء ، سواء بسبب قلة معلوماته القضائية ، أو قلة ثقافته

بشكل عام . ثم شهدت الخطابة انحرافاً « تقنياً » أوليا تمثل فى دروس السفسطائيين (فى حوالى عام ٤٥٠ قبل الميلاد) الذين كانوا يؤكدون على القدرة الهائلة للكلام والحجج مع فلسفة تقول بأنه لاتوجد حقيقة مطلقة وانما مجرد آراء نسبية . وعلى يد السفسطائيين ، تحولت الخطابة تدريجياً الى مجرد وسيلة ، عقيمة وشكلية ، تستخدم صوراً بلاغية محفوظة عن ظهر قلب ويتم استخدامها بشكل آلى فى هذا الموقف أو ذاك ، أى وسيلة فى خدمة كافة السلطات .

واستنادا الى هذا الانحراف الذى أبتدعه التقنيون — كما أسماهم اريسطو — أدان كل من سقراط وأفلاطون جميع أشكال تنظيم الخطابة التى لم تكن تعتمد فى الأساس على البحث عن الحقيقة . فالخطابة عند افلاطون لم تكن فناً ، وانما شعوذة وروتين يهدفان فقط الى المتعة دون السعى الى الأفضل ، « لأنها لكى تحقق أهدافها لم تكن تعتمد على منطق يقوم على أشياء موجودة فى الواقع وبالتالى لم تكن تستطيع أن ترد هذه الأهداف إلى أسبابها . وكان لابد أن يترتب على هذا النزاع بين أفلاطون والسفسطائيين نتائج دائمة لأن الخطابة لم تكن وحدها المستهدفة وانما من ورائها شرعية كل تقنية من تقنيات الاتصال نفسها . وأظهر سقراط دون تحفظ وباتساق كامل بين أفكاره وأعماله — عداءه للكتابة التى غيرت فى رأيه طبيعة المعرفة وأفسدتها .

ومن ثم نرى أن أكبر تقنيتين من تقنيات الاتصال فى العصر القديم وهما الخطابة والكتابة كانتا مستهدفتين ، بصورة دائمة وحتى وقتنا هذا ، من جانب الفلاسفة وعدد من المثقفين . ولكن هؤلاء أنفسهم سيقررون فيما بعد اللجوء الى الكتابة وأحيانا الخطابة ليس كوسيلة اتصال فقط وانما ايضا كأداة لكشف الحقيقة لمن يتوصل اليها .

كما سيشن أحد تلاميذ أفلاطون ، وهو أريسطو (٣٨٤ — ٣٢٢ ق/م) الذى سيصبح مدرساً للاسكندر الأكبر ، حرباً على السفسطائيين لكن مع اعادة الاعتبار الى الخطابة . وقد لاحظ « ميريديك دوفور » أن الخطابة

الجديدة ، باعتبارها أداة مساعدة للكلام المأخوذ عن تقرير مثقل بالأخلاقيات والحقائق ، يمكن أن تلعب دورها فى الدولة ، سواء أمام المحاكم التى تقرر العقوبات التى يمكن تطبيقها عند انتهاك القوانين ، أو أمام البرلمان الذى يناقش سبل حماية الدولة .

وقد عرف اريسطو الخطابة ليس باعتبارها مجرد أداة سلطوية للاقناع وانما كفن « لاكتشاف كل ما تنطوى عليه حالة بعينها من عناصر اقناع » بحيث أن « القاعدة فيها ليست فى رأى دوفور اللا أخلاق ـــ أى عكس الأخلاق المكتسبة ـــ وأنما التخلى عن الأخلاق ، فى عدم اكتراث مؤقت ازاء أمر ملزم » وتبدو الخطابة لدى أريسطو كعملية سلسة للغاية ، ترتبط بالظروف ،والمهم فى الخطيب هو قدرته على المواجهة فى أى وقت وتكييف خطبته حسب السياق .

وسنجد أن تقسيم المجلدات الثلاثة التى وضعها أريسطو عن الخطابة شبيه جداً بالمفاهيم العصرية للاتصال وهو ما فعله « بارت » حيث خصص الجزء الأول للمرسل (مفهوم الحجج) . والجزء الثانى للمتلقى (لأنه يتعامل مع انفعالات وبراهين كما تلقاها) والجزء الثالث للرسالة نفسها (تحليل الصور وترتيب أجزاء الخطبة) . لاشك أن أريسطو ابتكر فناً جديداً للاتصال اليومى ولمخاطبة الجماهير ، وهى تقنية تقع فى منتصف الطريق بين الصلافة النسبية للسفسطائيين وعدم الاكتراث الاجتماعى للفلاسفة الافلاطونيين .

لكن برغم التقدم الذى أحرزه هذا المفهوم الاتصالى على الطريق الديمقراطى، لم تكن الدولة الاغريقية هى الاطار الاجتماعى المثالى الذى يسمح بازدهار تقنيات جديدة للكلمة . ووفرت روما التى توافد عليها خطباء الإغريق فى ذلك الحين مناخا ثقافياً واجتماعياً أنسب لنمو الاتصال عن طريق الخطابة . فقد كانت القيم التى بنيت عليها الجمهورية ثم الامبراطورية والتى صنعت تفرد روما وعظمتها ، ذات صلة وثيقة بروح الخطابة وارتبطت معها بعلاقة من التعزيز المتبادل .

روما ، مجتمع اتصالى

كان كل شيء فى روما يتشكل حول الرغبة فى جعل الاتصال الاجتماعى أحد الأركان الأساسية فى الحياة اليومية . وعكست عمارة المدن ، خاصة الساحات ، هذه الرغبة . وكانت هذه الميادين المركزية ، المليئة بالحياة والضجيج والتى شكلت بؤرة الحياة السياسية والاجتماعية موجودة أيضا فى اليونان ، ولكنها فى أثينا صممت بحيث تحف بها المعابد والمبانى الضخمة المصفوفة بشكل متناسق للرائى (مثل البارثينون) ، أما المعبد الأغريقى فكان ، كما لاحظ بيير جريمال ، عبارة عن واجهة فى الأساس ، تشكل خلفية للحياة العامة ، ومصممة لتكون جزءاً من ميدان أو منطقة مقدسة ، ولكى يسهل دخولها على الناس . لقد كان التفكير الرومانى موجهاً بالكامل الى داخل الدولة .

وكان هاجس الاتصال الاجتماعى ملحاً الى حد أن أى رجل يريد أن يحظى بالاحترام يتعين عليه أن يعرف أسماء جميع الأشخاص الذين قد يصادفهم فى الشارع طوال اليوم . وفى نهاية عهد الجهورية وابان الامبراطورية ، كان المواطنون الأكثر ثراء يصطحبون معهم خادماً تنحصر مهمته فى أن يهمس لهم بأسماء الأشخاص الذين يقابلونهم فى طريقهم .

كانت الحياة الثقافية مفتوحة فى كافة الميادين العامة ، وفى القاعات المفتوحة لكل زائر ، وفى المناقشات . وكانت تشكل جانباً هاماً من الأنشطة الاجتماعية . وكما لاحظ جريمال كانت ظروف الحياة العامة ابتداء من القرن الثانى قبل الميلاد تجعل من الفن الخطابى ضرورة يومية . فقد كثرت القضايا السياسية ، وتعاظم دور الرأى العام شيئاً فشيء فى الحياة السياسية وفى مجلس الشيوخ . وكما حدث فى بلاد الاغريق ، شهدت تقنيات الخطابة انحرافاً جمالياً ، ساعد عليه الذوق الرومانى المحب للتفاصح . ولكن كبار الخطباء وعلى رأسهم شيشرون (١٠٦ ــ ٤٣ ق/م) قاوموا هذا الانحراف الذى أصاب أداة ثمينة لأنها استبدلت الكلمة بالعنف الجسدى وأضفت طابعاً أخلاقياً على ممارسة السلطة .

كان شيشرون نفسه مثالاً للشخص الذى استطاع أن يحقق ـــ بفضل قوة مرافعاته وخطبه بعد انتصاره على **كاتيلينا** فى عام ٦٣ ـــ مكانة اجتماعية وبريقاً لا يليقان إلا بقائد عسكرى . وترجع فصاحة شيشرون الفائقة الى حرصه على المواءمة بين تقنيته الخطابية والقيم التى تبرزها ، خاصة الفكرة التى أصبحت احدى سمات الرومان والقائلة بأن طبيعة البشر تفرض عليهم التكافل فى عالم مفترض انه عبارة عن دولة كبيرة يلتزم أفرادها بالضرورة بواجبات إزاء الآخرين .

تندرج هذه القيمة الرومانية الأساسية ألا وهى **الانسانية** ضمن منظومة من **الوصفات** الأخلاقية عملت كلها ـــ بطريقة أو بأخرى ـــ على دفع فكرة ايجاد علاقة اجتماعية ـــ يكون الاتصال إحدى ركائزها ـــ قدماً الى الأمام . وكانت السيطرة على النفس (فضيلة) تتعارض على سبيل المثال ـــ مع عدم القدرة على التحكم فى الطبيعة البشرية وأن يكون الانسان تابعاً للدولة . وكانت تتطلب تصوراً مستبداً للواجبات المدنية . ان التقوى ، التى لاتتجه الى عوالم خيالية وغير مطروقة ، تتطلب التزاماً دقيقاً بالطقوس والعلاقات القائمة بين الأفراد داخل العالم نفسه ـــ لقد كان الاتصال المستمر بأرواح الأجداد ـــ التى يجسدها ممثلون فى الطقوس الجنائزية ـــ واحترام الالتزامات مع الأحياء هى أسس الحياة الاجتماعية بأسرها . ومن ثم كان يتعين على أهالى روما أن يجمعهم تضامن لاينفصم ، شكل امتداده الى شعوب أخرى احدى ركائز الامبراطورية الرومانية .

قيام الامبراطورية الرومانية : رابطة اجتماعية أصيلة .

تتمثل كبرى خصائص الامبراطورية الرومانية ـــ التى تميزها عن الامبراطوريات السابقة التى قامت على السيطرة العسكرية وحدها ـــ بالتأكيد فى أن قوتها كفلها اشتراك المهزومين فى دولة اتسعت بلا حدود وكانت ترحب بأعدائها أولا بأول بين صفوفها ـــ وكانت استقلالية المدن المهزومة مكفولة كما كان لكل واحدة منها وضعها الخاص .

ويرى جريمال فى هذه الظاهرة فضائل التجمع ، كنوع من الرابطة القانونية والمعنوية ، التى قربت بين الأمم المختلفة المقهورة تحت قيادة روما ، أفضل مما لو حدث بالإجبار . وقد تبنت هذه الأمم خلال بضعة أعوام الحضارة المنتصرةوتمنت الارستقراطية المحلية ، بصفة عامة ، أن تصبح « رومانية » ، وهو نفس ما تمناه بعد بضعة قرون الغزاة الأجانب .

وقد حلل جاك ايلول تغلغل النفوذ الرومانى هذا لدى الشعوب المجاورة خلال مرحلة الجمهورية على انه ثمرة سياسية دعائية نفسية موجهة الى الخارج . وكان الهدف هو خلق اقتناع لدى هذه الشعوب بتفوق روما حتى تطلب هى نفسها الاندماج فى النظام الرومانى ، كنوع من الإجلال . فى الاتحادات ، كانت الشعوب المهزومة تحتفظ باستقلاليتها ولكنها تقدم كتائب عسكرية . وكان هذا النظام يفصل بين الشعوب بعضها والبعض الآخر على أساس الصلة الخاصة التى تربط كل منها بروما (تم ابرام ١٥٠ معاهدة منفصلة فى ايطاليا وحدها) . وكان تأسيس « المستوطنة » ، التى كانت عبارة عن مدينة رومانية مقامة فى أرض أجنبية ، يسمح بممارسة رقابة عسكرية ، وإعمار سكانى ، واستعراض كفاءة التنظيم والادارة الرومانيين .

كانت الشعوب المجاورة تحصل على صفات اجتماعية تقسم مجموع سكان الامبراطورية الى مواطنين من روما ، ولاتينيين وايطاليين و « مستوطنين » و « اتحاديين » و « رحالة » . وكان للمدن أيضا صفات مختلفة . ولاحظ ايلول أن سكان الامبراطورية أصبحوا فى نهاية الأمر اكثر ارتباطاً بروما من أوطانهم الأصلية ، وكانوا ينتظرون من روما القرار الذى سيسمح لهم بالانتقال الى طبقة أعلى . وقد أدت هذه السياسة ، التى كانت تتلاعب بالأحاسيس ، الى الوصول الى اتفاق داخلى على أن « روما » لم تكن أبداً لتتأسس بالقوة البحتة . فقد احتاج الأمر لاثارة التنافس ، والاخلاص والتضحية ، والكبرياء من أجل الانتماء الى نظام بمثل هذه العظمة .

واذا كان الأمر قد تعلق بمؤسسة دعائية استخدمت الاقناع النفسى بدلا

من السلاح ، أو محصلات نظام سياسى وقانونى اشتمل على مقدمات ذات نزعة انسانية ، فان النتيجة كانت هى نفسها فى النهاية ، طالما استبدلت بالقوة البحتة سياسة مؤسسية للاتصال الاجتماعى قدمت الدليل على فعاليتها من خلال فضائلها الحضارية .

حتى اللاتينيون عندما لجأوا الى القوة الصرفة ، رأوا أن علاقاتهم بأعدائهم يجب أن تستند الى قوانين مشروعة . فالعدو ، على سبيل المثال ، لايمكن أن يقتل الا على يد شخص جنده نظامياً الامبراطور . وكان محرماً قتل عدو سلم نفسه أو لم يكن من رعايا دولة أعلنت الحرب . وكانت قمة البنيان القانونى الذى يحددقواعد الاتصال فى زمن الحرب هو فرض قبول صك استسلام الأمة المهزومة على طرف القتال ، وهو ما التزم به الرومانيون أنفسهم . فهل كان هذا من قبيل الدهاء القانونى أو الادراك العميق لمفهوم العقد ؟ على أى حال ، فقد سمح هذا النظام بارساء قواعد اللعب فى قطاعات للاتصال كان كل ما تطرحه يمثل خطوة الى الأمام على طريق الحضارة .

الحضارة اللاتينية : ثقافة الاتصال .

أسهمت الظروف التى قامت فيها الامبراطورية ، حتى لو لم يخل النصر بالتأكيد من مظاهر عنف ، فى نشر الثقافة اللاتينية على نطاق واسع وجعلها عالمية ، سواء زمنيا أو مكانيا . وقد اتخذت هذه الصبغة العالمية ، التى كانت بعيدة كل البعد عن مفهوم الامبريالية الثقافية ، شكلا أكثر اتصالية يتمثل فى السعى الى نوع من التصالح ، الذى يعد من خصائص الروح الرومانية ، ويرمز له بعبادة الآلهة كونكورديا ، التى لم تكن سوى رمز للاجماع الوطنى . لقد كانت الثقافة اللاتينية فى المقام الأول ، اذا وضعنا فى الاعتبار الأسس القانونية والسياسية للامبراطورية ، ثقافة استيعاب وترجمة ، وخير شاهد على ذلك دمج الثقافة الاغريقية والمؤثرات الشرقية وأخيرا الديانة المسيحية فى تركيبة فريدة .

تأثرت اللغة الرومانية بشدة بالمذهب العملى ، وجعل شيء من التحدى للتجريدية والصيغ المغرقة فى العمومية الكتاب اللاتينيين يبتكرون أسلوباً واضحاً ومحدداً ليس فيه مجال للبس . ويشير جريمال الى أن اللغة اللاتينية المستخدمة فى روما كانت نوعاً من « الآلات الدقيقة » وانها كانت شاهداً على المجهود الضخم المبذول لتسجيل القيمة الحقيقية لأشياء مؤكدة بدون أى لبس .

ويقول جريمال : لايكفى أن تنبيء اللغة عن حدث ما ، وانما ينبغى أن تكشف مدى مسئولية المتحدث عما يقول ، واذا كان يريد أن يضفى عليه موضوعية تامة وكاملة ، أو أنه على العكس ليس سوى متحدث بلسان الآخرين أو اذا كان يكتفى بالحديث عن مجرد احتمال . ويشير جريمال أيضا الى نقطة هامة وهى أن المفاهيم الاغريقية الرئيسية ، التى اتسمت بسعيها نحو عالمية مجردة تمت ترجمتها الى اللغة اللاتينية بمعنى مختلف ، أكثر مادية وأكثر توجها نحو الحياة الاجتماعية للمدينة . وقد مهدت هذه النزعة العلمية لظهور فكرة الاعلام ، أى نوع من المعرفة يمكن صياغته ، والاستدلال عليه ، وهى معرفة قابلة للتداول عن طريق التعليم بوجه خاص .

نشأة مفهوم الاعلام

من السمات الرومانية البحتة ، الرغبة فى التعليم والاعلام ، وهى قيمة لقيت تشجيعاً عملياً فى خصائص لغة اتجهت بالكامل الى الاتصال المادى . وكلمة « informatio » اللاتينية التى اشتقت منها كلمة information الحديثة بمعنى اعلام تحيلنا الى مجموعتين من المعانى: المجموعة الأول تعنى عملية التشكيل بمفهومها المادى ، أما المجموعة الثانية فتقصد ـــ حسب السياق ـــ تعليماً أو فكرة ، مفهوماً ، وتصوراً .

ويبدو تعايش هاتين المجموعتين من المعانى ، التى تشير احداهما الى عالم التشكيل المادى ، وتشير الأخرى الى المعارف والتعليم ، ابتكاراً لاتينيا بحتاً . وهو ينم عن أن الثقافة الرومانية لاتفصل المجال التقنى عن المجال المعرفى كما كان الاغريق

يفعلون . ففى بلاد اليونان كانت الفوارق الاجتماعية تخلق عالمين معزولين تماماً أحدهما عن الآخر ، الأول عالم الحرفيين والتقنيين ، الذين كانوا مستعبدين ، والثانى عالم الرجال الأحرار ، المواطنين المتفرغين للمسائل الفكرية . وهكذا يجب فهم احتقار المثقفين الاغريق للخطابة على انه احتقار للتقنيات . وبالمقارنة يبدو المجتمع اللاتينى أقل تعقيداً فى جعل المعرفة مادة للبناء والتشكيل .

وهذا مسلك تجسد تماماً فى الاهتمام الذى اولاه الرومان للحياة الخاصة اليومية — وهو اهتمام أصبح للمرة الأولى فى تاريخ الآداب القديمة موضوعاً للكتابة فى رواية « ساتيريكون » « لبيترون » ، بينما كان من غير المتصور حتى ذلك الحين رواية مغامرات أشخاص لاينتمون الى الأساطير أو التاريخ .

وفى النهاية أصبحت جميع الخفايا والمآسى والحفلات الخاصة تعرض على الجمهور ، كمسرحيات — على سبيل المثال — دون أن تتراجع أمام كونها أصبحت من الأمور العادية أو أنها تشتمل على بعض مظاهر الفجور . وقد ابتكر « اوفيد » الذى لم يتوقف نجاحه عند حدود الامبراطورية الرومانية نوعاً جديدا من المؤلفات لايزال يحقق نجاحاً حتى يومنا هذا هو « دليل العلاقات العاطفية » وهو النسخة القديمة مما يمكن أن نسميه حالياً « وصفة سلوكية » . ويشرح كتاب « فن الحب » بكل دقة ، وبالاستعانة بأمثلة عديدة ونصائح عملية ، أين وكيف يلتقى الانسان بشريك حياته ، وكيف يتعرف عليه ثم يجتذبه وأخيرا كيف يحتفظ به . لقد أصبحت الخطابة موظفة بشكل مباشر لخدمة الحياة اليومية .

تطور تعليم الخطابة

مع تحول الخطابة الى حرفة بفضل افتتاح العديد من المدارس ابتداء من القرن الثانى ، أصبح تعليم الخطابة يعتمد على الكتب . وكان أشهر المؤلفات فى هذا الشأن « الخطابة فى هيرينيوس » الذى ضم محصلة أفكار مؤلف مجهول ، وتم نسخه وتداوله طوال القرون الوسطى و « الخطابة » لشيشرون الذى ظل معروفاً وله شأنه حتى القرن التاسع ، و « مؤسسات الخطابة » لكوانتيليان الذى

اشتمل على خطة متكاملة للتدريب التربوى، ولقى فيما بعد تقديراً شديداً من قبل « لوثر » « وايرازم » و « لافونتين » و « راسين » . كان شيشرون قد فرض القيم الرومانية على اريسطو عندما نزع عنه صفة الثقافة وعندما قاوم التخصص فى المدارس للترويج للثقافة العامة .

كان التعليم يهتم أساساً بالثقافة العامة . وكان ينبغى على الطالب ، تحت اشراف مدرسه الذى كان يمثل له القدوة ويبدأ بنفسه ، أن يؤدى نوعين من التمارين ، السرد (لملخصات أو تحليل لأحداث تاريخية أو معاصرة ، يتم ترتيبها أو عدم ترتيبها . وفقا لتخطيط نموذجى) والخطب المبنية على حالات افتراضية . وهكذا يتعلم الطالب الاتصال ، بعيداً عن تلقى المعارف مجردة . وكانت ثقافته اتصالية ، وتؤهله لمسئولياته القادمة كمواطن . وبهذا المفهوم ، كانت كلمة « اعلام » الطالب تعنى تزويده بالارشادات اكثر مما تعنى تدريبه على الاستفاده بها .

بيد أن سيطرة تعليم الخطابة لم تؤثر على المكانة المتنامية التى احتلتها الوثائق المكتوبة ، برغم المستوى الذى كان لايزال بدائياً لتقنيات طباعة الكتب . وتم اللقاء بين الخطابة والكتابة فى عهد كوانتليان (من ٣٠ — ١٠٠) الذى وضع نظرية للكتابة . وكان هذا الخطيب الكبير ، آخر الخطباء القدامى ، يعلم من يريد إحراز تقدم فى الكتابة بعض القواعد مثل : القراءة والكتابة بكثرة ، تقليد نماذج ، تصحيح النصوص بعد تركها لبعض الوضع « تستريح » .

وقد أتاحت الفترة من القرن الثانى الى القرن الرابع الميلادى ، التى كانت مرحلة سلم وتجارة ، الفرصة للخطابة لكى تشمل الثقافة العامة ، وتصبح هى نفسها ثقافة عامة ومن ثم تصب فى الكتابة . وهكذا أمكن للكتاب أن يصبح وسيلة اتصال ، وهى وظيفة لم تتم بالقدر الكافى الا فى عصر النهضة ، فإلى جانب خطب الفلاسفة والخطباء وتلاميذهم ، كان ثمة حلقات قراءة عامة ، وكان الكتاب ، بل وأحيانا الأباطرة ابتداء من اوجست ، يقرأون أعمالهم على الملأ .

وظل تطور الكتاب متأثراً بشدة بالممارسات الخطابية . وكان التفكير فى الأعمال المكتوبة يتأثر بمسألة القراءة العلنية ، لذا كان المؤلفون يبحثون عن مؤثرات خطابية ، كأن ينهوا موضوعاتهم بجمل رنانة ، ذات صياغة مؤثرة تجذب انتباه المستمع وتلخص كل ماقيل ، وهو تقليد خطابى بحت . وأحيانا ، كان يضطلع بتنظيم هذه القراءات العلنية بعض أصحاب المكتبات المغامرين الذين رأوا فيها وسيلة لتعريف الناس بالكتب الجديدة أو الطبعات الجديدة من الكتب القديمة . وكتب جريمال يقول « فى روما كانت المكتبات كساحات الخطابة ، ملتقى لهواة المعرفة ، يناقشون فيها القضايا الأدبية : وكان الشباب يستمعون بينما العملاء من الشيوخ يخطبون بين الكتب الملفوفة ، المصقولة بعناية ، والمصفوفة من فوقهم — وكان باب المكتبة مغطي باللافتات التى تعلن عن الأعمال المعروضة للبيع ، وأحيانا يكون أول بيت من القصيدة مدوناً على صدر مؤلفها . وكانت الاعلانات تعلق على الأعمدة المجاورة . أما المكتبات نفسها فتقع بالطبع بالقرب من الساحات .

وهكذا طور الرومان جميع تقنيات الاتصال التى ورثوها عن شعوب الامبراطورية المختلفة . فالاعلانات ، مثلا ، كانت معروفة منذ زمن طويل . وكان الاغريق يستخدمونها للتعريف بالقوانين ، وكانت تنقش على ألواح من الخشب أو الحجارة . وابتكرت روما « الالبوم » وهى جدران مطلية بالجير ومقسمة الى مستطيلات ، بداخلها مدونات . وكان نقل الرسائل — ويجسده أحد جنود الماراثون الذى يصل الى أثينا حاملاً أنباء النصر ثم يخر صريعا من الإعياء — ثم نقل الرسائل عن بعد معروفاً بالطبع فى الثقافات القديمة . فالملك «تيزيوس» كان ينبغي عليه ، للاعلان عن انتصاره على «المينوتور» (وحش اسطورى فى الحضارة الكريتية) وانه لايزال سليما مُعَافَى ، أن يستبدل بأشرعة سفينته السوداء أخرى بيضاء . وقد أدى نسيان هذا التقليد الى انتحار « ايجه ». أما الرومان ، الذين كانوا دوماً أكثر عملية ، فقد استخدموا هذه التقنيات لتحديد معالم طرقهم العسكرية بواسطة شبكة برقية بصرية . واخترعوا أيضاً ، من أجل مزيد من الفعالية ، فكرة تحرك

حامل الراية بين الكتائب لنقل أوامر القائد الى جميع الجنود . وطوروا أيضا تركيبة كلمة السر بالنسبة للحراس الليليين فأصبحت بالشفرة . تعزى قوة الرومانيين اذن ، جزئيا ، الى ادراكهم لأهمية الرسالة .

ومن منطلق ادراكهم ، أكثر من أى شعب آخر ، لدور الاعلام فى الحياة العامة ، اخترع الرومانيون أيضا أول صحيفة حقيقية وأسموها « Acta di urna » التى كان القيصر يطلع من خلالها على سير العمل فى مجلس الشيوخ ، كما تحمل أنباء الاحتفالات والأخبار الخفيفة .

وابتداء من القرن الرابع قبل الميلاد ، حلت الأبجدية الأيونية محل الأبجديات الإغريقية المحلية . أما الانتشار الكبير لهذه الأبجدية فى منطقة البحر المتوسط وماوراءها ، فقد تم على يد اللاتينيين . وفى القرن الأول قبل الميلاد ، فى عهد شيشرون ، استقرت هذه الابجدية ولم يكن ينقصها سوى حرف واحد لتصبح فى شكلها الحالى . وقد أضحت هذه الأبجدية اللاتينية أساساً مشتركاً للكتابة فى الغرب بأسره . الى جانب المخطوطات اللاتينية التى أعيد نسخها فى القرون الوسطى والتى أعاد عصر النهضة اكتشافها ، استطاعت الدروس الكبرى فى الخطابة لأريسطو وشيشرون وكوانتيليان أن تصمد لقرون طويلة بفضل ارتباطها الوثيق بالمذهب الكاثوليكى . وبمرور الزمن ، ظلت الخطب القضائية كما هى لم تمس ، وانتقلت الخطبة الاستشارية ، فى نهاية الجمهورية ، الى الدواوين الامبراطورية والسفارات ، أما الخطبة epidictique فقد شهدت انتعاشاً جديداً مع التبشير المسيحى .

وأصبحت كلمة « Logos » الإغريقية بعد ترجمتها الى الرومانية « ratio» وتحول « الكلام » الى « الحساب » . وابتكرت الثقافة الرومانية ، التى تشبعت تماماً بفكرة تنظيم الاتصال للاحتفاظ بحيوية الروابط الاجتماعية ، الاعلام أى « الكلام من أجل الآخر » .

مراجع : ARISTOTE, trad. M. DUFOUR, 1967; R. BARTHES, 1970; P. BRETON, 1985; CICÉRON, trad. E. COURBAUD, 1922; A. DELLA SANTA, 1986; J. ELLUL, 1967; M. FABRE, 1963; P. GRIMAL, 1968, 1986; C. PERELMAN et OLBRECHTS-TYTECA, 1970; O. REBOUL, 1984.

٣ ــ عصر النهضة أو إنعاش الاتصال

كان عصر النهضة ، وبالتحديد العقود التى تعاقبت من ١٤٥٠ الى منتصف القرن السادس عشر ، فترة ملائمة لتطور تقنيات الاتصال . وكثيرا ما تم تصوير تحول الوثيقة المكتوبة الى كتاب مطبوع على أنها رمز للطفرات الثقافية والاجتماعية التى ميزت نهايات القرون الوسطى والتى حولت الوثيقة المكتوبة الى أداة اتصال لا مثيل لها .

وكان الكتاب المطبوع ، الذى اعتمدت عليه ممارسات اتصالية ثقافية جديدة ، بحق هو نقطة التقاء الروح التقنية الجديدة ، وتطور الروح التجارية ، وتحريك الأفكار التى ابتكرها انصار النزعه الانسانية ، حيث تصدرت أنماط التبادل الثقافى الأشكال الحديثة للاتصال الاجتماعى .

الطباعة : سبب أم نتيجة

يقع الكتاب العصرى فى ملتقى بعدين : أولا النظام التقنى الذى يؤدى الى تطويره كقناة لتوصيل النصوص ، وثانيا عالم الأفكار شديدة التنوع التى يسهم فى نشرها . لاشك فى أن الاتجاه العام لاهمال تقنيات الطباعة المرتبطة بتقنيات نقل الكتب وتوزيعها حتى تصل الى يد القارىء ، برغم أهميتها ، أدى الى تعطيل الوظيفة الاتصالية للكتاب .

ومع ذلك هل نستطيع أن نقول أن الكتاب ومعه النظام التقنى للطباعة كانا وراء الانقلاب العام فى الأفكار والهياكل الاجتماعية الذى أدى الى عصر النهضة ؟ الاغراء كبير لنا ولغيرنا فى أن نرى فى التقنية السبب وراء التغير الاجتماعى . صحيح بفضل تقنيات الطباعة كان انتشار الكتاب مذهلاً . فمنذ نشر أول كتاب مطبوع « مزامير منز » فى عام ١٤٥٧ وحتى نهاية القرن أى عام ١٥٠٠ تراوح عدد الكتب المطبوعة بين ١٥ و ٢٠ مليون كتاب موزعين على ٣٥ ألف طبعة ، أى بمتوسط انتاج يصل الى ١٣٠٠ كتاب يومياً . من الصحيح أيضا أن الكتاب المطبوع كان من الدعائم الأساسية للافكار الجديدة التى انتشرت فى الأوساط الانسانية ومنها الى دوائر أكثر اتساعاً .

لكن ، بدلاً من أن نرى فى الطباعة السبب وراء تحولات عصر النهضة ، وهو ما توحى به شعارات مثل « ثقافة المطبوع » أو « عالم جوتنبرج » ، أليس من الأفضل أن نوسع مجال رؤيتنا ؟ ونحاول أن نفهم الى أى مدى لقى التحديث الذى ادخله الكتاب المطبوع دعماً و أصبح قابلاً للتحقيق بفضل الانقلابات الاجتماعية والفكرية التى شهدتها اوروبا منذ القرن الخامس عشر ؟ وهى مرحلة لم تكن أيضا نقطة انطلاق ثابتة تماماً ، طالما أن أوروبا كانت مسرحاً ، منذ القرن الثالث عشر ، وعلى حساب اضطرابات عديدة ، لهزات شديدة جعلتها تتحرك الى الأمام ، مثل اعادة الإعمار التدريجى للمدن ، والحملات الصليبية واسعة النطاق التى اتاحت فرصة الاحتكاك بالثقافات الاغريقية والعربية ، أو ظهور جماعات الصدقة لتعلن عن احتياج حقيقى للاصلاح .

بالتأكيد كان الكتاب فى حد ذاته ، من حيث كونه نظَّم الكتابة ، باعثاً على التغيير خاصة من زاوية نقل وتداول الأفكار . لكن القرن الخامس عشر كان قرن تحريك الأفكار ، وسيكون من الانصاف بالتأكيد القول بأن الحركة الفكرية التى كانت فى سبيلها للانتشار فى أوروبا هى التى حركت الكتب وشجعت مهمتها الاتصالية الجديدة . فطوال القرون الوسطى ظل التخزين ونسخ

النصوص، أساساً لحساب دائرة مكتبات الرهبان المغلقة ، هو المصير الأوحد للكتب .

لم يكن الكتاب ، بطبيعته ، أداة للاتصال . واذا كانت الأعمال التى استهدفت أساساً نشر أفكار ربما كانت جديدة ، لتصبح مادة نقاش بين أكبر عدد من الأشخاص، قد لعبت دوراً كبيراً فى الاتصال الاجتماعى، فيجب أن نضع فى الحسبان ، من ناحية أخرى ، الكتب الدينية ، التى تم طبعها فى عصر النهضة بأعداد كبيرة (٤٥٪ من الأعمال التى طبعت قبل عام ١٥٠٠ كانت كتباً دينية بأنواعها المختلفة) والتى كانت الطباعة بالنسبة لها مجرد ذاكرة ، ويمكن القول أنها ذاكرة ميتة ، لأن النصوص المقدسة كانت غير قابلة للنقاش حتى لو ظلت مادة للتعليقات . وينسحب الأمر نفسه على الأعداد التى لاتحصى من الكتب التى لم تكن فى الواقع سوى جداول رقمية ، تستخدم على سبيل المثال لتحويل النقود ، أو فى عمليات حسابية بدائية ، ولم يكن لها أى دور مباشر فى الاتصال .

وقد أدى تحريك الأفكار ، الذى كان من خصائص عصر النهضة ، الى تغيير هذا الاتجاه ، فحتى النصوص المقدسة تعرضت طبعاتها الموروثة من الماضى الى مراجعة : ألم يكن أحد رهانات المناقشات بين الكاثوليك والبروتستانت ، فى عهد الاصلاح ـــ منذ عام ١٥١٧ ـــ هو طباعة نسخة من الانجيل متسقة مع الرؤى الدينية لأولئك أو هؤلاء ؟ .

بدأ تحريك الأفكار الذى أدى الى عصر النهضة قبل اختراع الطباعة وأسهم الى حد كبير فى نشأتها كطريقة ميكانيكية لاستنساخ النصوص. وقبل أن يصبح الكتاب المطبوع متاحاً من الناحية التقنية بفضل المطبعة واستخدام الحروف المتحركة ، كانت ورش النساخ تنسخ يدوياً كميات من النصوص المطلوبة فى الأسواق . وأثبت هـ .جـ . مارتن ـــ استناداً الى « قسائم طلبيات » ترجع الى تلك الفترة وتم العثور عليها مؤخراً ـــ أن بعض ورش النساخ كانت ، قبل اختراع المطبعة وفى بداية القرن الخامس عشر ، تنسخ طبعات حقيقية تصل الى ٤٠٠ نسخة من العمل الواحد . وتشهد عملية تصنيع هذه الكتب ، التى لم تكن

تكتب صفحة بصفحة وانما على ألواح تضم أربع أو ثمانى صفحات لتكون فى النهاية مجلدا يجب قطع صفحاته قبل قراءته ، على الضغوط التى كانت تواجه عملية تصنيع الكتب أو على الأقل نسخ كميات منها .

وجاء اختراع المطبعة اذن فى سياق ملائم له تماما ، حيث كانت طلبات القراء تتزايد على الكتب . وإن كان من غير الممكن اقامة صلة ارتباط مباشر بين الطلب على القراءة الذى كانت تلبيه ورش النسخ بشكل اجمالى واختراع هذه التقنية الجديدة . فقد كانت الظروف الحقيقية وراء اختراع جوتنبرج اكثر تعقيداً من ذلك .

ظروف اختراع كبير .

يركز البير لابار على أهمية التقدم الذى حدث فى مجال التقنيات المعدنية . فقد نشأت المطبعة فى الواقع فى مدينة صغيرة لم تكن مركزاً ثقافيا كما أن مخترعها كان يفكر أصلاً فى اختراع طريقة أكثر فعالية لتصنيع الكتب .

ويتعين ، فى هذا المجال كغيره ، منح بعض الاستقلالية للاختراع التقنى الذى يجب أن ينتظر حدوث بعض التقدم فى العناصر المادية المكونة له ، حتى يصبح قابلا للتنفيذ . لقد نشأت المطبعة فى وسط صائغين وضاربى نقود ، استفادوا من تطورات القرن الخامس عشر فى مجال سبك المعادن . لكن كان ينبغى بالتحديد إحلال الورق محل الرق (فى الفترة من عام ١٣٥٠ الى ١٤٥٠) لكى تتوفر لعملية الطباعة منظومة تقنية متكاملة . لقد ارتبط سبك حروف الطباعة بعمليات معروفة ، لكن كان من غير المتصور مادياً الطباعة على الرق ، لأنها ببساطة مادة غير ملساء بالقدر الكافى لاحتمال عمليات التحبير والطباعة الجديدة .

لم يكن الورق ولا طريقة الحروف المتحركة التى قام عليها النظام التقنى للطباعة معروفين إلا فى الغرب . وكان قد تم استيراد هذه التقنيات ــ وهو أمر مؤكد بالنسبة للورق على الأقل ــ من الشرق وبالتحديد من الصين. ولايمكن أن

نغفل التساؤل ـــ كما فعل جوزيف نيدهام ـــ عن السبب الذى جعل الطباعة تتطور وتحرز نجاحها المعروف فى الغرب وليس فى الصين . يثبت التحليل المقارن هنا أيضا أن وجود العنصر التقنى ليس شرطاً كافياً لتطورها الاجتماعى ، حيث يجب أن يقترن بظروف اجتماعية وثقافية واقتصادية مواتية . لكن يبدو أن هذه الظروف المتعددة تلعب دورا لايمكن تجاهله فى عملية الاختراع نفسها .

وقد تم اجتياز الخطوات الكبرى التى كان يمكن أن تؤدى بالصين الى تطوير الطباعة الحديثة فى وقت مبكر للغاية . فقد كان الورق ، الذى تم اختراعه بلاجدال فى الصين (قرابة القرن الثالث الميلادى) ، حيث انتقل منها تدريجيا الى الغرب ، مستخدماً منذ القرن التاسع فى طباعة النصوص البوذية باستخدام الحروف الخشبية وكانت « السوترا الماسية » (عام ٨٦٨) من أوائل النصوص التى طبعت . وكان « بى شنج » أول من اخترع الطباعة فى القرن الحادى عشر الميلادى ، واستخدم الحروف المتحركة المنقوشة على الطين المحروق ، ثم أعاد « وانج شن » اكتشافها بعد فترة . وكانت الحروف موجودة على كتل متحركة موضوعة داخل أدراج تدور حول محور لتسهيل الوصول الى الحروف .

بيد ان النظام التقنى للطباعة لم يكن متجانسا : فالحروف المعدنية المستوردة من كوريا منذ عام ١٤٠٣ كانت تثقب الورق الرقيق ، ولم تكن عمليات التحبير مرضية كما أن طريقة الطبع (التى استوحاها الغرب من تقنيات صناعة النبيذ فى حوض الراين) لم تكن معروفة . وكان ينقص الطباعة الصينية دفعة حاسمة تجعل منها تقنية مكافئة لتلك التى اخترعها جوتنبرج . فهل ينبغى أن نرى فى ذلك جموداً تقنياً ، أم هو قصور فى التخيل ؟ على أى حال لم يكن الحرفيون ولا المخترعون الصينيون يفتقرون الى الانجازات المتطورة التى تحسب لهم .

بدلا من التفكير فى تطور الطباعة من حيث « الجمود » الذى واجهها ، ألا يكون من الأفضل التأكيد على أن هذه التقني. لم تحظ «باهتمام» المجتمع الصينى

فى ذلك الحين ؟ وقد فاته على أى حال فى هذه الناحية عنصر محرك حقيقى . من المؤكد أن اختراع الورق على يد الصينيين لم يكن من قبيل المصادفة . فقد أفسح تنظيم المجتمع الصينى مكانا متسعاً — على مدى فترة زمنية طويلة (آلاف السنين)— لبيروقراطية المثقفين ، وهى دائرة ضيقة من العلماء والموظفين الذين يتمتعون بنفوذ كبير ، ومن بينهم تقنيون ومهندسون يعملون فى خدمة الدولة ، ويشرفون على الأعمال الكبرى وخصوصاً الأعمال الهيدروليكية . ولم تكن هذه الطبقة تتجدد بشكل وراثى وانما عن طريق مسابقات تؤدى الى الحصول على وظائف مرموقة . وكان نظام « الاختبارات الامبراطورية » الذى بدأ فى القرن الثانى قبل الميلاد يسمح بتعيين « أفضل عقول الأمة » فى كل جيل حسب تعبير نيدهام . وفى هذا السياق ، لعبت الوثائق المكتوبة على الورق دوراً فى الانتاج والتبادل الفكرى ، لم تكن الطباعة لتدعى القيام بأحسن منه .

ويؤكد جوزيف نيدهام أن النظام الاجتماعى للصينيين كان ديمقراطياً منذ قرون طويلة ، ولهذا السبب كان تأثير الوثائق المطبوعة ، التى انتشرت بفضل الطباعة بالحروف الخشبية ، عليه أقل من تأثير الطباعة على الغرب . فبينما أدت تقنيات طباعة الكتب بكميات كبيرة الى حركة هائلة كدمقرطة المعرفة فى أوروبا ، لم يتجاوز تأثير الطباعة الخشبية فى الصين توسيع دائرة تعيين كبار الموظفين ، دون أن يؤثر بعمق على مؤسسة ذات أداء مُرضٍ من هذه الناحية ولاتعدم التطور بانتظام .

لم تكن الطباعة هى التقنية الوحيدة ، فى القرون الوسطى فى الصين ، التى ما أن بلغت حداً من التطور حتى أصبح تقدمها بطيئا . وقد طرح نيدهام ، الذى تساءل عن هذه المسألة المحيرة ، عدة عوامل تفسيرية . فبينما كان عصر النهضة هو مهد التطور الغربى لعالم تحكمه قوانين ، مما مهد الطريق الى استخدام المنطق الرياضى فى الرصد الذى كان جاليليو (١٥٦٤ — ١٦٤٢) من رواده ، كانت الفلسفة السائدة فى الصين تبدو كما لو كانت مادية عضوية حيث ترتبط كل ظاهرة بكافة الظواهر الأخرى فى نظام تدرجى ، وهو تصور لايشجع البحث

العلمى . وقد نشرت الكونفوشية الجديدة أخلاقيات تحمل حلولاً لجميع أنواع المشكلات سواء المادية أو الاجتماعية أو السياسية . بل إن التنظيم البيروقراطى الاقطاعى كان يحول دون وصول التجار الى مواقع اجتماعية رفيعة ، وهذا ما رأى فيه نيدهام تفسيراً رئيسياً للغياب ـــ النسبى ـــ لتطور التقنيات . ومن ثم لم يكن ممكنا لمنظومة قيم ، ذات قاعدة تجارية وقادرة على الاتساق كما حدث فى الغرب مع السعى المنظم لتطوير كفاءات نظم تقنية ، أن ترى النور وتحظى بالتالى بالبريق اللازم لاجتذاب المثقفين الى ركابها . ومن المؤكد أن غياب الطباعة الحديثة عن الصين ارتبط بشدة بهذا العنصر .

وكما يؤكد التحليل الذى اقترحه مارتن ، بخصوص عملية اختراع نظام الطبع بالحروف المتحركة على يد جوتنبرج ، فإن الكتب التى سمحت الطباعة بنشرها فى الغرب ـــ أناجيل ، كتب قداسات ، قواعد ، تقاويم ـــ كانت هى التى تحقق أكبر قدر من المكاسب ، بشرط أن يتم انتاجها فى سياق تجارى . اذن فقد كانت البذرة التجارية هى ماكان ينقص القرن الخامس عشر ، حين بدأت التقنيات المصرفية والتجارية تشهد انطلاقة لم تتوقف . لقد حشد اختراع جوتنبرج امكانات تقنية ومادية ، وكان شركاؤه هم صناع الورق وبائعو المخطوطات ، فضلاً عن رجال المال والمصارف .

وهكذا يتضح بحث جوتنبرج عن وسيلة تقنية اكثر فعالية عندما يرتبط بحرص تجارى على الربح . وهذا الاستنتاج لاينتقص شيئاً من الخطوة التقنية ، ولا من وزن العنصر التجارى فى تطوير تقنيات الاتصال فى عصر النهضة، بيد أن الروح التجارية التى اتسقت تماماً مع التحديث التقنى ، كانت فى الواقع سابقة له ، ويبدو من الحكمة تفسير نشأة المطبعة من خلال تلاقى حركة النهضة الثقافية مع الروح التجارية بدلا من العكس . لقد جعل عصر النهضة من الكتاب أداة جيدة للاتصال ، وسرعان ما أصبحت هذه الأداة هدفا تجارياً .

التحولات الثقافية وتداول الأفكار .

يندرج النظام « الواقعي والبورجوازى » الذى بدأ يترسخ فى القرن الخامس عشر ضمن حضارة مادية لها نقطتا ارتكاز متميزتان : الأولى ثقافية تتعلق باعادة اكتشاف الحضارة الرومانية وبشكل أوسع الثقافة القديمة ، والثانية جغرافية ومكانية تتعلق بتطوير المدن كمراكز شهدت نهضة الغرب .

لقد كانت النهضة فى بدايتها اعادة اكتشاف للحضارة اللاتينية وللتقدم المادى الذى كانت تحمل بذوره ، خصوصاً من ناحية تقنيات الاتصال ، وتم فى القرون الوسطى إهمال إحدى النقاط الأساسية فى عمارة المدن وهى المتمثلة فى تنظيم المدينة حول ساحة ، عبارة عن ميدان عام يكون نقطة مرور اجبارية ، وتقاطعا لاتجاهات المرور الحضرية ومقراً للانشطة الاجتماعية المتميزة . كان « الميدان ــ الكبير » المركزى مفهوماً غير معروف فى مدن القرون الوسطى وكان الشارع مصمما لاليكون طريقاً موصلاً وانما كمساحة فراغية بين المنازل . وقد تميز رجال عصر النهضة بالتقدم والعبقرية فى اقتباس تقنيات تنظيم الحيز التصويرى والحضرى . ومن هنا فتحوا مجالاً مادياً للاتصال الاجتماعى .

وهكذا كان تطور المدن مهداً طبيعياً لتطوير الطباعة ، وخصوصاً انتشار الكتب . من الناحية الجغرافية ، بدأ انتشار الكتاب فى مدن محور الراين الذى يربط فرنسا والولايات الألمانية وسويسرا بايطاليا فى الجنوب وهولندا وانجلترا فى الشمال . وبدأ الكتاب المطبوع ، الذى كان هو ذاته مكانا لتبادل ونشر الأفكار ، يلعب دوراً جديداً « كساحة ثقافية » تدعمه الى حد كبير صفته المزدوجة كسلعة وشيء قابل للنقل ، وعندما أصبح الكتاب مصدراً للربح ــ حيث إكتسب توزيعه صفة ملحة لتغطية الاستثمارات الضخمة اللازمة لطبعه ــ ازداد انتشاره بشكل ملحوظ ــ كما أن طبيعته النقالة التى تتأكد يوماً بعد يوم جعلته يتعايش مع وسائل النقل والمواصلات الكبرى . واتضح أن الكتاب ، باعتباره وسيلة اتصال تحركها الأفكار الاصلاحية التى يحملها فى ظل حضارة

مدنية متطورة ، يخدم أيضا الاتصال ويجيد التواصل مع نفسه ــ ويكمن جزء كبير من قوة الكتاب فى هذه الازدواجية .

ودور « الكتاب التقنى » كأداة اتصال تسمح بتوليف نظم تقنية كاملة يستحق بالتأكيد التركيز عليه . كانت الكتب التقنية من أوائل الأعمال التى تم طبعها فى سياق شهد تطور الاهتمام بالتقنيات بشكل ملحوظ : لقد تم فى وقت مبكر جداً طبع الكتب اللاتينية القديمة ، التى جاءت من امبراطورية الشرق القديمة ، ومرت بمكتبات العصور الوسطى : تم طبع « **بلين** » منذ عام ١٤٦٩ . (بعد اثنى عشر عاماً فقط من « مزامير مينز ») ، و « الزراعيون اللاتينيون » فى عام ١٤٧٢ (أعيد طبعها ٣١ مرة) . وابتداء من ١٤٧٠ . بدىء بشكل مكثف فى طبع أعمال لمؤلفين تقنيين جدد مثل « فرانسيسكو دى جورجيو مارتينى » عن طريق ورش النساخ أو باستخدام طرق الطباعة .

كان مهندس عصر النهضة ــ ويشير براتراند جيل فى هذا الشأن الى رغبة ليوناردو دافنشى العارمة فى العثور على الكتب التى أراد دراستها ــ يغذى الكتاب ويتغذى عليه ، فقد انتقل فنه « من المحصلة الى الأسباب » واذا كانت المحصلة التجريبية اقتصرت على الاطار الشفهى للاتصال ، فان « السبب الجديد » الذى اعتمدت عليه تقنيات عصر النهضة كان موضوعه المثالى هو نمط الاتصال الاجتماعى الذى شجعه الكتاب المطبوع على نطاق واسع .

تميز عصر النهضة ، كما أكد براترند جيل ، بافتتان جديد بالعالم المادى الذى كانت العصور الوسطى قد اهملته . واتجهت مجموعة متكاملة من الحركات الفكرية الى الملموس ، مما أحدث تحولاً عميقا فى الروح التقنية الى جانب « الواقعية » ، وأصبحت النفعية والتجريبية قيماً رئيسية . وأسهم الكتاب المطبوع فى تضخيم هذه القيم ، التى ساعدت الى حد كبير فى ظهوره . وقد اعتمدت عملية البحث عن طريقة للطباعة ثم التوزيع أكثر فعالية ، فى السياق التجارى الذى كان يعمل فيه جوتنبرج ، على قاعدة أولية شجعت ، كما رأينا ، التحديث التقنى بدلاً من أن تكون نتاجاً له . اذا كان ينبغى وصف هذه القاعدة فى كلمة

ــ موجزة بالتأكيد ــ ربما يكون من المغرى أن نرى فى عملية تجديد الوسائل التقنية والصيغ الجديدة للتبادل الثقافى ــ قبل الدافع التجارى ــ قاعدة مشتركة لكل هذه الأبعاد ألا وهى : قاعدة « القدرة على الأداء » التى تركز التفكير تدريجيا على ضرورة التحقيق الفعال للأهداف سواء كانت اقتصادية أو مادية أو ثقافية . هذا البعد الذى غاب تماما فى القرون الوسطى ، كان بالتأكيد هو عصب الثقافة المادية التى سيطرت تدريجياً على المجتمع الغربى منذ عصر النهضة .

من الفكرة الى المعلومة

من التحولات الثقافية الكبرى التى جاء بها عصر النهضة ، جعل « الفكرة » مادة للاتصال ، « مادة عقلية » أصبح فى الامكان نقلها ، تحويلها ، إثراؤها ، التحقق منها ، تعديلها ، تبديلها ، وتركيبها حيث انها لم تعد مرتبطة بنظام عقائدى يصحح أو يقيد تداولها . وأصبح ممكنا « إعمال » الأفكار ولم يعد المثقف هو المعلق على النصوص المقدسة ، وانما الحرفى الذى يكتشف الأفكار ويشكلها ويخضعها للنقد لكى يعيد تشكيلها من جديد قبل أن يطرحها للتداول . وبواسطة الكتاب ، دخلت الأفكار فى دائرة تجارية ، بحيث مالم تكن هى التى تباع بشكل مباشر ، فعلى الأقل الوسيلة المطبوعة التى تضمها . وأصبح فى الامكان النظر الى الفكرة ، التى اكتسبت قيمة بفضل تقنيات الطبع والتوزيع الجديدة ، باعتبارها معلومة .

هل أثر التحول التدريجى للفكرة الى معلومة ، الذى واكب الانتعاش النقدى وتطور التقنيات ، على طرق الاستدلال ؟ ربما تكون الاجابة على هذا السؤال ، فى اطار عمل يقتصر على تناول تقنيات الاتصال ، طموحاً مبالغاً فيه . ولنكتفى هنا بالاشارة الى بعض الحقائق المتعلقة بعصر النهضة ، لقد شجع الكتاب ــ من حيث شكله ــ التقنيات والعلوم الوصفية التى وجدت فيه وسيلة ملائمة تماماً لانتشارها المكثف ، لكن الكتاب ــ كتقنية للاتصال ــ كان له

آثار على الأساليب الثقافية التى كانت تسمح فى ذلك الحين بتخزين الحقائق والبراهين فى الذاكرة . ولم يكن من الممكن ألا تترك التغييرات الجذرية التى ادخلتها أساليب التخزين فى الذاكرة أى آثار على طبيعة الاستدلالات المستخدمة . لقد شهدت الطرق المرتبطة « بالذكاء الاصطناعى » ، والتى كانت مستخدمة على نطاق واسع منذ قديم الأزل ، فترة انحسار فى عصر النهضة ، ثم اختفت مع جيوردانو برونو، بشكل سرى وتقريباً بلا عودة . وكانت احدى الخطوات الأساسية ضمن هذه التحولات ، فى اطار حركة تتماشى مع روح عصر النهضة ، هى اعادة اكتشاف مؤلف لاتينى هو كوانتيليان الذى جعل من فن الذاكرة علما نفعياً وعلمانياً ، حينما كانت طرق التخزين فى الذاكرة تعتبر — طوال القرون الوسطى — عنصراً من عناصر التبشير الدينى .

وقد قام بيير دو رافين الذى استغل تجدد الحماس لهذه الأساليب ، بنشر كتاب فى فينيسيا فى عام ١٩٤١ اتسم بفائدته لكافة المهن (المحامين، الفلاسفة، السفراء ورجال الدين الخ) . وأعيد طبع الكتاب عدة مرات وتمت ترجمته الى عدة لغات بل واستنساخه — كما يقول فرانسيس ياتس — على يد بعض القراء المتحمسين . ويبدو أن بيير دو رافين قام بدعاية جيدة لأساليبه الخاصة ، وهى ظاهرة ليس فيها شيء عجيب ولكنها تظهر الى أى مدى كان الاهتمام بتحسين أساليب التخزين فى الذاكرة يؤدى بشكل طبيعى الى الاهتمام بتطوير نشرها . وبينما كانت النظم الموروثة من العصور الوسطى تندثر ، كانت الأساليب الجديدة ، التى تستخدم دوائر التوزيع التجارية ، تشهد نجاحاً واسعاً . لكن الطرق التى نشرها رافين كانت لاتزال تستخدم تقنيات تقليدية وبالتحديد « أسلوب المواقع » ، مثل الكاتبين المشهورين فى القرن السادس عشر رومبرش وروسليو .

وكما يؤكد فرانسيس ياتس ، فقد جعل الكتاب المطبوع من العمليات العقلية التى تسمح بتخزين الأحداث فى الذاكرة بحيث يمكن استدعاؤهابسهولة أمراً غير مجد . وبدأت تختفى العادة التى اكتسبتها أجيال من العلماء ، والمتمثلة فى

التخزين الفورى لحدث جديد فى الذاكرة عن طريق ربطه بصورة ما واحلاله فى مكان من الذاكرة مهيأ بشكل مسبق ، وذلك بسبب اقتناء الكتب والمكتبات الخاصة ، لكن هل يعد ظهور الكتاب المطبوع هو السبب الوحيد الذى يفسر اختفاء الذاكرةالاصطناعية القديمة ؟ ألم تكن الثقافة الانسانية ، المتسقة تماماً مع الكتاب المطبوع الذى يضمها ، تشتمل فى حد ذاتها على قوى معادية لنمط التخزين فى الذاكرة الموروث من القدماء ؟ وكان ايرازم يفضل ، على مواقع وصور الأنظمة التقليدية ، هذه الفضائل الجديدة فى الاستدلال المتمثلة فى الدراسة والترتيب والتطبيق.ولم تكن المشكلة فى التخزين الأمين ومن ثم بناء أشكال الاستدلال حول ضرورة استنساخ من الماضى ، وانما فى تشجيع الاستدلال النقدى ، الأقل تحفظاًومن ثم أقل عرضة للتذكر . لم تكن روح النهضة فى حاجة إلى ذاكرة ، وعلى أى حال فقد كان دور الكتاب المطبوع هو الاحتفاظ بالآثار المؤقتة للمواد المكتوبة .

النزعة الانسانية والاتصال

إن أفضل الأعمال التى حولت الكتاب الى وسيلة للاتصال هى مؤلفات المفكرين الانسانيين . وكما رأينا فى مؤلفات رافين حول الذاكرة ، فقد كانت بدايات عصر النهضة فرصة للاختيار بين ماضيين مختلفين ، اللاتينى والعصور الوسطى ، أكثر مما سمحت بانتاج أفكار جديدة حقاً ، على الأقل فى الفترة الأولى . وبصفة عامة أصبح الكتاب ، الذى كان يستخدم حتى ذلك الحين فى نشر ثقافة العصور الوسطى ، الأداة المتميزة لاعادة اكتشاف العصور القديمة . وبفضله ابتكر « المثقفون الجدد » فى عصر النهضة أسلوباً للمبادلات الثقافية أثر ، ربما بشكل أساسى ، على عالم الاتصال الاجتماعى بأسره .

وبرغم النجاحات الأولى التى حققها الفكر الانسانى ، فهو لم يكسب تأييد جميع الناس على الفور . وظل التعليم لفترة طويلة يخضع بصورة عنيفة لاشراف بعض رجال الدين الذين استعانوا بالموضوعات التى كانت سائدة فى

ثقافة العصور الوسطى . لكن أنصار النزعة الانسانية الذين اضطروا لايجاد وسائل تعبير فعالة بمعزل عن المؤسسات التقليدية ، سعوا بأنفسهم الى نقل أفكارهم . وشكلت الكتب والمكتبات والمؤتمرات والمبادلات خلال الرحلات المتعددة ، جامعة حقيقية غير رسمية ، ليس لها موقع ولا مركز ظاهر ، وانما تحيا على التداول الفعال للأفكار وعلى اثرائها المستمر .

يعد إيرازم من الوجوه البارزة فى التيار الانسانى ، وكان يستمد تفرده كمفكر فى عصر النهضة من كونه رائدا ، بالمفهوم العصرى للكلمة ، فى مجال الاتصال وكان يطالب بصفة « المواطن العالمى » حيث كان ينتقل باستمرار من هولندا الى ايطاليا ومن المانيا الى فرنسا ، لكى يحتك بأفكار نظرائه اكثر من اهتمامه بالسفر فى حد ذاته . وكان نشاطه فى المراسلة وتبادل الخطابات يشغل الجزء الأكبر من وقته الى حد انه كان يحول ، كما لاحظ روبرت ماندرو ، بينه وبين احراز أى تقدم فى أعماله الخاصة . وقد اكتسبت خطاباته صفة الظاهرة الاجتماعية ، طالما انها كانت تنشر باستمرار ، بموافقته أو بدونها ، فى صورة مجلدات مطبوعة حققت انتشاراً واسع النطاق . وقد نشر ايرازم نفسه فى عام ١٥٢٢ كتاباً حول قواعد المراسلات الذى كان أول مؤلَف من نوعه فى الاتصال العملى .

كان ايرازم مثالا للمثقف الذى يطور أفكاره ويثريها بالاحتكاك المستمر بأفكار الآخرين . وقد عكست قواعد « جمهورية الآداب » التى وصفها « توماس مور » فى مدينته الفاضلة فى نفس الفترة هذه الخاصية لدى أنصار النزعة الانسانية فى تكوين ماسمى « Sodalitates » أو « شبكات الصداقة غير الرسمية بين المثقفين التى سمحت ، وفقا لتعبير روبرت ماندرو ، بعمل اعلامى موثوق فية على مستوى أوروبا كلها . ومن المؤكد أن القواعد الضمنية للاتصال بين أعضاء هذه الشبكات كانت بمثابة النواة للأفكار الاتصالية المعاصرة .

مراجع : F. BRAUDEL, 1979; M. FABRE, 1963; B. GILLES, 1965; A. LABARRE, 1970; R. MANDROU, 1973; H.-J. MARTIN, 1963; J. NEEDHAM, 1969; F. YATES, 1975.

٤ ــ نحو حضارة الرسالة

مرت خمسة قرون بين عصر النهضة ونهاية الحرب العالمية الثانية ، تبلور خلالها المشروع المعاصر « لمجتمع الاتصال » . وأسهمت معظم الأحداث التاريخية الهامة التى وقعت خلال هذه الفترة فى دفع تقنيات الاتصال تدريجياً الى مقدمة المسرح الاجتماعى .

اللحظات الكبرى فى الجدل الاجتماعى

كان الاصلاح ثم التيار المعارض للاصلاح فرصة لم يسبق لها مثيل للترويج لجميع قنوات الاتصال الاجتماعى . فقد اعتبر لوثر المواد المكتوبة ومن بينها بالطبع الكتاب بمثابة المحرك للتجديد المسيحى . ووجد اختراع جوتبرج التقنى حافزاً فى الالتزام الروحى بضرورة وجود صلة مباشرة بين كل مسيحى والكتاب المقدس . ومن ثم أصبح تعليم الأميين عاملاً أساسياً فى السلام الفردى . ولم يعارض التيار المناهض للاصلاح هذا الاتجاه وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية تولى للاقناع عن طريق التعليم وللدعاية الدينية اهتماماً مماثلا على الأقل لذلك الذى توليه للقمع الجسدى للملحدين .

وواكب دور الكتاب فى هذا الصراع الدينى تطور مواز فى التبشير بجميع أنواعه ، على اعتبار أنهما الوسيلتان الوحيدتان للتأثير فى الأميين الذين كانوا حتى

ذلك الحين أغلبية كبيرة ، حتى فى المدن ، من ناحية ، وللتبشير عن طريق القدوة والاقناع المباشر من ناحية أخرى . وبرزت ، بمناسبة النزاعات بين الكاثوليك والبروتستانت ، ظاهرة جديدة : هى المشاركة فى الحوار الاجتماعى والثقافى من قبل الأشخاص الذين كانوا محرومين من هذه الميزة من قبل . وكان كل فريق يسعى الى إقناع الشعب وتغيير معتقداته . وبغض النظر عن الطبيعة الفردية للشعور الدينى بالضرورة ، فان كل مؤمن ، حتى لو كان آخر الصعاليك ، هو المستقبل المحتمل للبراهين . لذا ينبغى أن تصاغ هذه البراهين بحيث تكون فى متناول الجميع سواء من حيث مضمونها أو الوسائل المستخدمة فى توصيلها الى الأفراد .

وقد تم اختراع « الدعاية » بهذه المناسبة ، أو على الأقل هذه التسمية ، للتعبير عن الجمعية التى أسسها فى عام ١٥٧٢ البابا جريجوار الثالث عشر ، وكان اسمها Depropaganda Fide لمقاومة الاصلاح . وتظهر الأهمية المعقودة على « نشر » العقيدة المسيحية الى أى مدى يعد الجدل ، سواء كتقنيةنشر اجتماعى لمجموعة من القيم أو كتقنية ايمانية ، طريقة متفردة فى علاقة الانسان بربه .

وسارت الخطوة التاريخية الكبرى التالية وهى الثورة الفرنسية فى نفس الاتجاه من حيث تقنيات الاتصال . وكان التأكيد على سيادة الشعب من أبرز القيم الجديدة التى دعا لها رجال الثورة . فقد سمحت ، عندما جعلت من « الأمة » ملكية مشتركة ، بأن تصبح هذه الأمة موضع تقديس جديد من ناحية ، وأكدت على الكيان السيادى والمسئول للانسان من ناحية أخرى . هذا التعريف الاقليمى الجديد للتفرقة بين النطاق الفردى والنطاق العام جعل الاتصال الاجتماعى لاغنى عنه ، باعتباره الوسيلة الوحيدة لربط النطاقات الفردية للأشخاص . وكان لهذا الانقلاب العميق فى القيم ، الذى حلت محله بعد فترة المعتقدات الليبرالية التى وصلت الى العالم الانجلو سكسونى ، نتائج غير محسوبة على الدور الجديد للاتصال وتقنياته .

منذ ذلك الحين أصبح الاتصال الاجتماعى بمثابة الجسر الذى يربط الأشخاص بعضهم بالبعض الآخر ، وقد تأثر الاتصال بنفس معامل الحرية الذى

حكم النطاق الفردى . وكان إلغاء الرقابة على الكتابة وحرية الصحافة والرأى علامة على أن مايربط الأشخاص بعضهم بالبعض الآخر يجب أن يتحرر — مثل الناس أنفسهم — من جميع القيود . وقد انطبقت على الاتصال الاجتماعى نفس القاعدة التى تحد النطاق الفردى والتى يلخصها الشعار الشهير لرجال الثورة « إن حرية الفرد تنتهى حيثما تبدأ حرية الآخرين » .

فقد كانت هذه الحرية الجديدة للفرد — المواطن تفترض الاختيار ، اختيار المعلومة . وأصبحت المشاركة فى الاتصال الاجتماعى بالتالى ضرورة أساسية للديمقراطية الجديدة . لم يعد « الاستعلام » مجرد حق حاربت الشعوب من أجله ، وانما واجب ثورى لن يكون من المستحسن فى بعض الفترات التقاعس عنه . وفى عصور القمع، حول الجهل السياسى الأفراد بسرعة الى حلفاء موضوعيين « للمعارضة الرجعية » .

لقد ارتبطت المرحلة الثورية بحشد لم يسبق له مثيل لجميع تقنيات الاتصال دون أن تستجد فى هذا المجال ابتكارات تقنية بارزة . والدور الذى لعبته الكتيبات والكتب والجرائد فى العملية الثورية معروف ، لكن ينبغى التأكيد على الأهمية الحاسمة للخطباء وللخطب التى تهدف الى تعبئة الشعب واثارته . ولم تكن الاشارات الدائمة الى روما وقيمها فى تكوين الميثولوجيا الجمهورية فى هذا السياق وليدة المصادفة . وكانت اللوحات المصورة فى تلك الفترة تظهر رجال الثورة وهم يخطبون فى الناس وظلت هذه المشاهد رموزاً دائمة للديمقراطية فى المخيلة الشعبية .

وبرغم عدم استحداث ابتكارات تقنية فى مجال الاتصال ، الا أن أساليب التعبير التقليدية تحولت الى وسائل اتصال تخدم الروح الجمهورية . وابتدع بيلران فى عام ١٧٩٠ مجموعة رسومات Epinal التى تشيد بمقاومة الكهنوت ، والاخلاص للامة وكافة القيم الثورية . وتم تجنيد الصحافة والمسرح أيضا لخدمة القضية الثورية . حتى الملابس أصبحت وسيلة بسيطة ومباشرة للتعبير عن الرأى ومحاولة الاقناع به عن طريق القدوة : مثل تسريحة الشعر التى أصبحت رمزاً للحرية ، والحلى وملابس الثوار ، فضلاً عن الاستخدام المنتظم للألوان الثلاثة التى

أصبحت شكلاً سائداً للاتصال الاجتماعى .

وفرت موجة التصنيع التى سادت القرن التاسع عشر ، وما صاحبها من تطور لم يسبق له مثيل فى تقنيات المجالات كافة ، الأسس المادية لتجديد تقنيات الاتصال خاصة فى المجالات المكتوبة عن طريق تطوير الطباعة والبرق .

ثم حدث تغير كبير فى بداية القرن العشرين ، ليس على صعيد التقنيات المستخدمة فى الاتصال وانما فى « الوعى بأن الاتصال يجب أن يرتبط بتقنية » وكان يجب انتظار الأربعينات لكى يصل هذا الوعى الى نضجه الكامل ، وان كانت بدأت تظهر مؤشرات فى مستهل القرن تؤكد أن هذه الفكرة تنمو . وابان الحرب العالمية الأولى شكلت الحكومة الأمريكية لجنة مكلفة بتنظيم الاعلام فى ظل دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب كان اسمها « لجنة الاعلام الجماهيرى » . وكان هدف هذه اللجنة هو المحافظة على معنويات الشعب ونشر معلومات عن الحرب وتأمين نشر المثل العليا الأمريكية فى الخارج . وقد شنت هذه اللجنة حملة حقيقية ، وكانت تستند فى جميع الموضوعات التى تطرحها على المثل التى صاغها الرئيس ويلسون حول العدالة والديمقراطية فى العالم أجمع . وكان لهذه الحملة تأثير ملحوظ على العالم أجمع بما فيه الرأى العام الألمانى . ويرى جاك ايلول أن « مهارة وفعالية هذه الحملة ترجع فيما يبدو الى التخطيط للدعاية على أساس تقنى بحت وبمعزل عن السياسة » . وأدت هذه اللجنة عملها « كأداة علمية فى المعركة » . وكانت الخاصية الكبرى فى أداء هذه اللجنة هى الرغبة فى تكوين صورة للمثل العليا الأمريكية على شكل رسالة .

ثقافة البديهيات وثقافة الاستدلال

هذه الاستقلالية التى تمتعت بها الرسالة ، والتى كانت فيما يبدو احدى نتائج التطور البطىء لتقنيات الاتصال ، تم التمهيد لها بتغيير عميق فى طبيعة أساليب الاتصال ، على صعيدين أساسيين على الأقل : إعادة التوازن بين دور المواد المكتوبة والشفهية من ناحية ، وفى صراع الاتصال بين ثقافة الاستدلال

« وثقافة البديهيات » الجديدة التى ترتبت على تطور العلوم والتقنيات فى العصر الحديث من ناحية أخرى .

فى أواخر عصر النهضة ، أدت اعادة اكتشاف الخطابة عن طريق بعض الكتاب اللاتينيين أمثال شيشرون وكوانتيليان الى احياء فن ـــ شفهى فى الأساس ـــ ألا وهو « القاء الكلمات » والاستدلال الفعال . وارتبطت الخطابة أكثر فأكثر « بالثقافة العامة » كما كان الحال فى زمن كوانتيليان . ولعب الآباء اليسوعيون دوراً هاماً فى نشر الخطابة كنموذج تربوى عام . واعتباراً من القرن السادس عشر ، تم افتتاح عدة مدارس « كانت بداياتها فى لييج وستراسبورج ونيم » تعتمد فى برامجها على مواد انسانية والخطابة اللاتينية. وخرجت هذه المؤسسات صفوة المجتمع حيث كانت الثقافة والفصاحة والقدرة على الاقناع ـــ كما كان الحال فى العصور الماضية ـــ هى مواصفات القادة . وظل اتقان الاتصال ـــ الذى كانت الخطابة من تقنياته ـــ مرادفاً لممارسة فعالة ومشروعة للسلطة . وتجاوز النموذج الرومانى ، بدون عناء كبير ، تقلبات الثورة الذى كان فى الواقع أحد مراجعها الرئيسية .

وبمحاذاة هذه الامبراطورية المتعاظمة للخطابة وبعض تطبيقاتها التقنية ، تأثرت بعض أشكال الاتصال الاجتماعى بالتقدم الفكرى الذى طرأ على بعض العلوم البحتة والتجريبية . وأدى البحث المنطقى أو التجريبى عن بديهيات الى ظهور طائفة جديدة من البراهين أثرت تدريجياً على طبيعة كل استخدام للغة : فقد كان معيار أى محاججة حتى ذلك الحين هو قابلية الوقائع للنقاش وتبادل وجهات النظر حولها . واستمر هذا الاتجاه حتى حدثت مبالغات الفلسفة الكلامية ، لكنه لم يكن أقل تأثيراً فى الممارسات السائدة فى حقل المعرفة . لقد انطلقت الطريقة العلمية الجديدة التى ابتدعها ديكارت من المبدأ القائل بأن قابلية واقعة ما للنقاش تجعلها محتملة فحسب ، وماهو محتمل فقط يكون بالتأكيد خطأ، ويدلل ديكارت على كلامة قائلا: «اذا اختلف شخصان فى حكمهما على نفس الشيء ، فمن المؤكد أن أحدهما مخطىء ، وكلاهما لايستند الى معرفة

علمية ، لأن أيا منهما لو كانت لديه حجج مؤكدة وواضحة لقام بطرحها على الآخر بحيث يقنعه فى النهاية » .

وهكذا وضع ديكارت حداً فاصلاً لتصورات انسان القرن السابع عشر حول المعرفة والاتصال . ونما هذا الفصل مع تطور نوع آخر من البديهيات ، هى البديهية التجريبية التى بفضلها لم يعد الفيصل هو الاجماع على حقيقة أمر ما ، وانما الاستعانة بعنصر مادى خارجى ألا وهو التجربة ، التى تأتى بالبرهان الذى يفرض نفسه على الجميع . كان لمعاداة ديكارت للخيال وترويجه لمفهوم السببية أثر شديد على تصفية هذا الجزء الهام من الخطابة المتمثل فى « الذاكرة الاصطناعية » والتى قضى عليها تماماً فى القرن السابع عشر . واقترح ديكارت ، فى اطار اخلاصه لبحثه عن طريقة تسمح بالتوصل الى البديهية المنطقية ، اعادة تنظيم عملية التخزين فى الذاكرة ، بدون الاعتماد على أساليب تقليدية تستخدم تقنيات تجميع الأفكار الى جانب طرق للترتيب وفقا لمواقع محددة سلفاً ، وانما استناداً الى مفهوم السببية،فيجب أن تكون الصورة المختزنة فى الذاكرة « مرتبة وفقاً لعلاقات ارتباط متبادلة » .

بينما كانت محتويات الذاكرة الاصطناعية التى تعتمد على ملامح شخصية شديدة الارتباط بالخيال ، قابلة للتداول عن طريق الكلام ، فان محتويات « الذاكرة البديهية » تعد غير قابلة للانفصال عن الأشخاص الذين يصيغونها كما أنها قابلة للنقل بسهولة الى قنوات خارجية . ومن ثم أصبح فى الامكان تنظيم الاستدلال والذاكرة حول إجراءات قاطعة . وقد حققت هذه « الطريقة » الجديدة نجاحاً ثقافيا واجتماعياً ملحوظاً . لأنها أضفت طابعاً عصرياً ــ ولمدة طويلة ــ على فكرة أن « اللغة الدولية » ممكنة تقنياً ومرغوبة اجتماعياً من ناحية ، وعلى مسألة قدرة الآلات على تقليد السلوكيات البشرية من ناحية أخرى . فما هى فائدة « اللغة الدولية » ؟ يرى ديكارت وكذلك ليبينز أن هذه اللغة التى تعتمد على الحساب ، يجب أن تكون فى النهاية « لغة حقيقية » حسب تعبير ليبينز تعفى من « مناقشة » مسائل تفرض نفسها على الجميع ، لحساب طريقة

تحليل منطقية لهذه المسائل . ويجب أن تسمح هذه اللغة ، المصممة لكى تكون آلة جديدة للاستدلال ، لأبسط الفلاحين بحل أية مشكلة كأى فيلسوف .

وهكذا تكون اللغة كالآلة ، قريبة الشبه بالآلات الحاسبة ــ آلة باسكال على سبيل المثال ــ التى تسمح ، حتى لأولئك الذين لايجيدون الحساب ، بالحصول على نتائج عمليات حسابية . واذا كانت المعلومات الحسابية قد انتقلت فى هذا المثال الى الآلة ، فان جميع المعارف الانسانية هى التى ستنتقل فى حالة اللغة العالمية حيث ستعمل من تلقاء نفسها كآلة مستقلة يستخدمها الانسان من الخارج بشكل ما .

ويفترض حلم الوصول الى لغة جديدة ، تتوسط فى العلاقات بين البشر بعضهم وبعض وتفرض عليهم وضوح الحقيقة ، أن تختفى طرق التخزين فى الذاكرة التى ارتبطت منذ القدم بالخيال الشخصى ، وذلك لحساب قنوات خارجية واضحة. كما يفترض امكانية ألا يكون جميع أطراف الاتصال من البشر فقط وانما اى « كائن » قادر على ارسال أو استقبال رسائل واضحة . وقد افتتح الفكر الكرتيزى عصر الانسان الآلى ، هذا الجهاز الذى يشبه الرجل أو المرأة والذى اثر وجوده المحير فى القرن الثامن عشر بأكمله ، وقد صنع ديكارت « كائنا اصطناعيا » من هذا النوع وأسماه فرانسين .

من وجهة نظر التاريخ العام للتقنيات ، فان الانسان الآلى فى ذلك العصر يصنف ضمن فئة أقل الآلات انتاجية ، برغم أنه نتاج معارف صانعى الساعات وهو يتصدر الموجة المعاصرة الكبرى الآلية الصناعية . وتشكل هذه الكائنات طرفاً موازيا ، ممتلئا وفخما ، لكنه على هامش التيار العام للتقنيات . ومن وجهة نظر تقنيات الاتصال ، سيكون من الصعب الا يرى المرء فى هذه النسخ المطابقة للانسان تجسيداً لحلم قديم هو « الشريك الاصطناعى » . ويؤكد روبرت اسكاربيت فى حديثه عن الانسان الآلى ، على الهدف الذى كان مقصوداً ألا وهو تصنيع ما أسماه « انسان متسق » وهو انسان اصطناعى يمكن أن تضبط عليه قناة اتصال من مصدر خارجى تكون لديها كل مزايا التفكير والكلام دون

مساوىء «هذه الضجة الطارئة والمضللة المتمثلة فى الحرية » صحيح أن النموذج المثالى لاتصال متحرر من ضغوط الاستدلال ، كما تطلع اليه الكارتيزيون ينطبق تماما على انسان آلى يعقل ويحسب ويخلو من نقاط ضعف الروح البشرية التى لاتكف عن « الجدل » .

على أى حال ، أياً كان التأثير الثقافى لهذه « الثقافة البديهية » الجديدة فهى لم تكف عن التآلف مع « ثقافة الاستدلال » التى ازدهرت اكثر واكثر برغم الضربات العنيفة الكبرى التى وجهتها اليها ، فى القرن التاسع عشر ، النزعة العلمية أو محاولة توسيع نطاق صلاحية العلم أبعد من حدود النظم التقليدية ثم الماركسية كتطبيق « للبديهية العلمية » على المجتمع بأكمله ، على ماضيه ومستقبله .

الأهمية الاجتماعية المتنامية « للرسالة »

ربما يجد المرء إغراءً فى أن يحكم على هذا التحول الثقافى الهام ، الذى اثر بشكل مباشر على أشكال الاتصال الاجتماعى ، بأنه يوازى انقلابا فى ثقافة الكلام لتحل محله حضارة الكتابة . فهل حلت الكتابة تدريجياً محل الشفهية ؟ تبدو الحقيقة الاجتماعية للاتصال كما انتشرت من القرن السابع عشر وحتى عصرنا الحديث ، أكثر تعقيداً من ذلك . والمشكلة أن الآثار التى تخلفها الممارسات الشفهية لمجتمع مايصعب بالطبع العثور عليها . وان كان التطور الهائل لفن الخطابة الذى بدأ منذ القرن السابع عشر يعد مؤشراً جيداً على التواجد القوى للشفهيات .

ويتأكد الدور الاجتماعى الحاسم للخطيب وللاستدلال كلما وقعت حوادث هامة تعبىء الرأى العام ، والثورة الفرنسية خير شاهد على هذا . إن التكوين التدريجى لرأى عام مترتب على تطور الديمقراطية وحقوق الإنسان ، حقق للخطباء مكانة بارزة . وهكذا ، بدلا من الاعتماد فى وصف الحضارة التى بدأت

تترسخ تدريجياً على التعارض المصطنع بين الكتابة والشفهية ، سنكون أكثر دقة لو أسميناها « حضارة الرسالة »

واعتباراً من القرن التاسع عشر على وجه التحديد ، بدأ الاتصال الاجتماعى ينتظم حول الرسالة وتداولها . وبدأت جميع الاختراعات التقنية فى مجال الاتصال تسير — على أى حال — فى هذا الاتجاه . وأصبح البعض يضفى ثقلا أكبر وأيضا مزيداً من المرونة على الكتابة ، ومنح آخرون للشفهية بعداً مادياً واجتماعياً لم يكن أحد من خطباء الماضى يجرؤ حتى على تصوره . وأصبحت الرسالة منذ ذلك الحين موضع جميع الرهانات وأيضا جميع الاهتمامات . وكان أكبر تجسيد ملموس لهذه الأهمية الجديدة للرسالة هو تطور الجريدة كقناة أساسية للمعلومات ترتبط قيمتها بقدرتها على التداول .

تطور الصحافة ونشأة الرأى العام

ظهرت الصحيفة كمصدر منتظم للمعلومات فى بداية القرن السابع عشر . وعلى المستوى التقنى ، أصبح تطورها ممكنا بفضل اجتماع ثلاثة عناصر : تطور الطباعة التى كانت قد ظهرت فى بداية القرن الخامس عشر ، تحسن وسائل النقل والمواصلات مما حقق قدراً من الأمن الى جانب سرعة كبير فى الانتشار ، ثم تطور الخدمة البريدية التى وفرت للصحافة البنية الأساسية المثالية لتوزيع ثابت . ومع ذلك لم تكن هذه الأسباب التقنية لتصبح ذات مغزى لو لم ترتبط بما أسماه ايلول تكوين « الرأى العام » ، الذى نشأ من الصلات المتزايدة بين فئات المجتمع التى تشكل عناصر الأمة .

كانت الصحف الأولى شفهية : بيانات الخطباء الذين يجتمعون فى حدائق « تويلورى » وحتى عندما حلت أوراق مكتوبة محل هؤلاء ، دخلت هذه الأوراق على الفور فى دوائر المناقشات العامة . فقد كانت الصحيفة تقرأ ويتم التعليق عليها فى الحانات أو الصالونات وتصبح غالباً محوراً للنقاش . وكانت الأمية لاتزال منتشرة على نطاق واسع — حيث لم تتراجع معدلاتها إلا فى منتصف القرن التاسع عشر

بيد أنها لم تكن مرادفة لعدم المشاركة فى المجادلات السياسية .

وكانت أول صحيفة تصدر بانتظام وذات أهمية (فى مقابل المنشورات المطبوعة التى ظهرت هنا وهناك) هى (Lagazette لصاحبها theophrnaste Renaudot والتى صدر أول عدد منها بتاريخ ٣٠ مايو ١٦٣١ . وكانت تصدر كل أسبوع فى اثنتى عشرة صفحة وتوزع ١٢٠٠ نسخة . ثم مضى قرن ونصف قرن قبل أن تصدر أول صحيفة يومية فى فرنسا « Le journal de Paris » فى أول يناير ١٧٧٧ . وبسبب سيطرة السلطات على الصحافة ، فهى لم تكن منبراً للتعبير عن التعددية والأفكار الجديدة التى كانت تغلى حينذاك . كانت النشرات والكتيبات والكتب ، أى المطبوعات المنتظمة فى مجملها ، شبه السرية غالباً ، تمثل الجانب التحريرى فى الجدل السياسى المحتدم . وكان أسلوب الصحافة يعتمد فى جميع البلاد المعنية على معلومات مختارة بحيث تكون مؤيدة للسلطة ، دون تعليق أو شرح أيديولوجى .

كان للاضطرابات السياسية التى شهدها القرن الثامن عشر آثار مباشرة بالتأكيد على تطور الصحافة . فى فرنسا ، ظهرت مئات الصحف خلال عامى ١٧٨٩ و ١٧٩٠ ، وكانت من الدعائم الأساسية للجدل السياسى ؛ فى الولايات المتحدة الأمريكية حظيت الصحافة سريعاً بمناخ سياسى ملائم . وكفل أحد تعديلات دستور الولايات المتحدة الأمريكية « حرية تبادل الأفكار والآراء » باعتبارها « من الحقوق الثمينة للانسان » . وتحول الموضوع الى عادة وأصبح كل تهاون عملى فى هذا المبدأ بمثابة رقابة على حق لايمكن التصرف فيه ، بما فى ذلك أولئك الذين يوظفونه لخدمة قضية .

وقد لخص توكفيل المسألة برمتها فى بضع كلمات عندما أعلن « أنه لايوجد وسط ـــ فى دنيا الصحافة ـــ بين التبعية والترخيص » فإما أن تكون الصحافة حرة أو لاتكون . وقد بذلت عدة جهود دعائية فيما بعد للايحاء بوجود منطقة وسط بين هذين الخيارين .

فى نهاية عصر الامبراطورية ـــ عندما أنشأ نابليون الرقابة المسبقة ـــ

استعادت الصحافة تدريجياً دورها كأداة من أدوات الجدل السياسى . وظهرت صحافة عمالية ، لها جرائد على مستوى عال « Atelier » التى صدرت فى عام ١٨٤٠ . وكانت الصحيفة دائما ماتتداخل فى النسيج الاجتماعى ، وتفسح مكانا واسعاً للثقافة الشفهية وخير دليل على ذلك الأهمية التى كانت معقودة على دوائر القراءة واللقاءات وجمعيات الدراسات العمالية . من ناحية الاتصالات الاجتماعية فان الانحسار الهائل للأمية لم يشجع الثقافة المكتوبة وحدها بل العكس هو الصحيح .

لقد شهدت الصحيفة فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تطوراً تأثر بالتقدم التقنى والاندماج الكامل للصحافة فى الدوائر التجارية ، بفضل الاعلانات الى حد ما . وشكل التقاء الليبرالية السياسية — التى كفلت حرية الصحافة باعتبارها احدى ركائزها الرئيسية — مع الليبرالية الاقتصادية التى قامت على حرية المؤسسات ، خصوصاً فى الولايات المتحدة الأمريكية ، تربة خصبة لتطور الصحافة ، التى حظيت أيضا بحماية السلطة السياسية . ولعب الاعلان ، الذى حقق تطوراً سريعاً مع الانتعاش الاقتصادى ، دوراً كبيراً فى التقريب بين الصحافة والدوائر التجارية : فى بداية القرن العشرين كانت الاعلانات تحتل نصف مساحة الصحف ومنذ ذلك الحين ارتفعت معدلات توزيع الصحف . ففى فرنسا بلغ عدد الصحف التى صدرت ، فى عام ١٨٩١ أربعمائة صحيفة ، وفى نفس الفترة وصل عدد الصحف التى صدرت فى الولايات المتحدة ١٦٦٢ صحيفة توزع ٩ ملايين نسخة . وبعد عشرين عاماً ، فى سنة ١٩١٠ بلغت معدلات توزيع الصحف الأمريكية ٢٤ مليون نسخة مقابل ستة ملايين فى فرنسا .

التقدم فى نقل الرسائل

واكبت التقنية هذا الانتعاش بل وشجعته . ففى عام ١٨٦٧ اخترع هيبوليت مارينونى ماكينة « الروتاتيف » ، وهى أسرع عشرين مرة من جميع التقنيات التى كانت موجودة . وفى عام ١٨٨٦ أتاح اختراع طريقة « اللينوتيب »

فرصة الحصول على نتيجة أفضل فى التجميع . بيدأن التطورات الكبيرة التى كانت بمثابة نقاط تحول للصحافة فى مجال الاتصال الاجتماعى بعيد المدى ، تمثلت فى تقنيات الطباعة وأيضا وسائل نقل المعلومات ـــ مثل البرق ثم التليفون ـــ التى كانت حاسمة برغم ارتباطها بتقنيات أخرى .

وكان أول نموذج للبرق هو « التلغراف الجوى » الذى أخترعه كلود شاب . ومثل الصحف الأولى ، كانت هذه مبادرة خاصة استخدمت ثمارهاالأولى كوسيلة اتصال لخدمة الدولة . ثم ظهر التلغراف الجوى فى خضم الغليان الثورى ، وبالتحديد عندما كانت الجمهورية محاصرة من كل جانب . وكانت السلطة فى ذلك الوقت ـــ عام ١٧٩٣ ـــ فى يد لجنة الخلاص العام ، ولم يكن أعضاؤها يستطيعون التنقل بسهولة على الحدود . فشكلت الحاجة الماسة للاتصال السريع مع جنرالات الثورة المناخ المثالى لظهور مشروع شاب التقنى الى النور ، ذلك المشروع الذى ظل يدافع عنه بدون جدوى لعدة سنوات .

وقد انشأ شاب لحساب الدولة خط باريس ـــ ليل ، الذى أصبح نواة لشبكة متشعبة تتلاقى خطوطها فى باريس . ظلت شبكة شاب مستخدمة حتى عام ١٨٥٥ ، وكان يعمل بها ألف شخص على خطوط يبلغ طولها ٥ آلاف كيلومتر وتربط ٥٥٦ محطة . وبرغم اقتراح شاب بفتح خدمة الخطوط البرقية للجمهور ـــ على أن تكون البداية برجال الصناعة والتجار ـــ ظل التلغراف الجوى لفترة طويلة ـــ وحتى فتحه للبورصات والغرف التجارية وحدها ـــ وسيلةاتصال موظفة بالكامل لخدمة السلطة المركزية التى أصبح أحد رموزها : حيث ألقى مثيرو الشغب فى بوردو عام ١٨٣٠ أثاث حاكم الولاية على خط « جارون » وفى الوقت ذاته حطموا أجهزة التلغراف البرق بعد فكها .

وأدى اختراع التلغراف الكهربائى ثم تشغيله بسرعة الى الاهمال التام للتلغراف الجوى . وتمت أول تجربة فرنسية على التلغراف الكهربائى فى محطة سان جيرمان يوم ١٨ مايو ١٨٤٥ . وبفضل الروح العصرية التى سادت الامبراطورية الثانية ، تم مد شبكة هائلة فى الفترة من ١٨٥٠ الى ١٨٧٩ . وتراجع احتكار

الدولة لخطوط التلغراف بسرعة أمام صولات نواب جماعات المستخدمين المحتملين المختلفة والرأى العام . فى البداية ، حظرت الحكومة تداول الرسائل السياسية (بخلاف الرسائل الحكومية) . لكن فتح التلغراف للجماهير العريضة جعل هذا الاجراء باطلا . وتم قطع شوط طويل : ففى عام ١٨٩٤ أصبحت الرسائل مجهولة ومشفرة بلغة سرية ، وهو ما لم يكن يتخيله أحد قبل بضع سنوات .

واستطاعت وكالات الأنباء الكبرى: مثل هافاس ورويتر واسوشيتدبريس التى نشأت خلال حركة تطور الصحافة ، أن تغير من أسلوب عملها بعد استخدام التلغراف . فقد ساعد التلغراف على ظهور قيمة جديدة هى سرعة وصول المعلومة الى الجمهور . وكان **لهذا التغيير آثار هامة لم تنحصر فى انعكاسه على طبيعة الاتصال الاجتماعى ، الذى ألغى** تدريجياً ، من أذهان المعنيين على الأقل ، مفهوم المسافة الاجتماعية ، الذى كان ينطوى على فكرة التراجع الثقافى الى حد ما . وقد أضفى عنصر السرعة وضعاً إجتماعياً متميزاً على التلغراف . وجاء التليفون ليعزز هذا الاتجاه حيث أضاف اليه تدريجياً الخصائص التى اقترنت بعصر الاتصالات الحديثة . واذا كان القرن التاسع عشر قد عرف بأنه قرن الصحافة المكتوبة ، فقد أصبح القرن العشرون هو قرن الاتصالات متعددة الاتجاهات .

مراجع : R. Barthes, 1970; C. Bertho, 1981; J. Cohen, 1968; Descartes, 1970; J. Ellul, 1967; R. Escarpit, 1976; A. Labarre, 1970; D.S. Landes, 1975; C. Perelman et Olbrechts-Tyteca, 1970; F. Yates, 1975.

الباب الثانى

طفرة وسائل الاعلام والتقنيات الجديدة

٥ ـ التقنيات الألكترونية الأولى فى خدمة الاتصال

لم يكن أحد فى البداية يتصور أن يصبح التيار الضعيف حامل الذبذبات الألكترونية ، أداة فعالة فى خدمة التغير الاجتماعى . وكان الانجاز الاجتماعى الحقيقى ، من بين الاكتشافات التى تم التوصل اليها فى نهاية القرن التاسع عشر فى مجال الكهرومغناطيسية والألكترونيات ، هو الاتصال الهاتفى اللاسلكى أولا يليه بعد بضعة عقود التليفزيون ثم الرادار وأخيراً الحاسوب . لقد حققت الألكترونيات تطوراً سريعاً فى مجال تقنيات الاتصال .

الخطوات الأولى للألكترونيات

بدأ « استخدام الألكترونات » فى الواقع بناء على فكرة توصل اليها « امبروز فليمينج » المستشار العلمى لماركونى . وكان الرهان هو الاتصال بدون أسلاك ، كما كان يقال فى ذلك الوقت ، أى ايجاد وسيلة لنقل الرسائل مباشرة وعلى الفور عبر الأثير . وقد سمح التقدم الذى أحرزه « فاراداى » ثم « ماكسويل » فى علم الفيزياء ابتداء من عام ١٩٣٢ بتصور الامكانية النظرية لبث موجات كهرومغناطيسية قادرة على حمل مثل هذه الرسائل . اذن من حيث التطور ، لم يكن ثمة ثورة كبرى : فبعد استخدام الكهرباء فى نقل رسالة برقية عبر

خط ، أصبح فى الامكان بث موجات عبر الاثير لتوصيل معلومات معينة . وسعى ماركونى بهذه الطريقة الى نقل اشارات مورس من انجلترا الى تيرنوث ولم يكن أحد يتخيل امكانية استخدام الموجات الكهرومغناطيسية على الفور فى نقل الصوت البشرى أو الموسيقى .

وجرب رودلف هرتز فى عام ١٨٨٧ هذه الموجات التى أصبحت منذ ذلك الحين تحمل اسمه . ولكن برغم امكانية بث الموجات الهرتزية ، لم تكن أجهزة الارسال والاستقبال قد تطورت بما يكفى لاتمام هذه العملية . ولكن أديسون توصل الى اكتشاف غريب أثناء محاولته اصلاح بعض الأخطاء فى مصباحه الكهربى ذى السلك : وهو امكانية توليد وهج أزرق اللون حول سلك المصباح فى ظروف تفريغ وفولتية معينة ــ وتم توصيف هذه العملية على الفور بأنها انتاج لألكترونات (بواسطة عالم فيزياء ايرلندى يسمى جورج جونستون ستونى فى عام ١٨٩١) .

فى الحقيقة كان أوجين جولدستين قد سبق ستونى الى هذا الاكتشاف فى بوستدام (واستخدمه كوسيلة تسلية فى الصالونات) . وأثبت مدير معمل كافنديس فى كامبردج وكان يدعى ج ج تومسون فى عام ١٨٩٧ انه ينتج عن مرور ألكترونات . كما توصل فلمنج الى نفس النتائج واخترع فى عام ١٩٠٤ الصمام الثنائى المعروف بغية استخدام الألكترونات فى الاتصال اللاسلكى . فقد كان لسحابة الألكترونات المنبعثة من القطب الجنوبى الى سلك المصباح الكهربى خاصية الاندفاع فى خط مستقيم نحو القطب ، فاذا كانت موجبة نتجت الالكترونات داخل المصباح واذا لم تكن كذلك لايحدث الانبعاث . وبذلك أصبح الحصول على « تيار ضعيف » ــ كمقابل للكهرباء العادية ــ فى متناول الأيدى .

وكان التطور التالى حاسماً ، بالنسبة للراديو ولجميع الأجهزة اللاحقة ، ففى عام ١٩٠٦ توصل لى دوفورست ، أثناء سعيه لتصميم جهاز استقبال جيد للاشارات الراديو ــ كهربية وحبذا لو كان يضخم الاشارات التى يتلقاها ، الى

اختراع صمام ثلاثى ــ حيث تخيل إمكانية وضع شبكة مشحونة كهربياً ، بين القطب المرسل للالكترونات والقطب الذى يستقبلها ، تسمح بتوجيه بعض الألكترونات وتغييرها وفقا للاحتياجات . وتم التوصل بذلك الى الفكرة التى أسماها « برتدا ندجيل » العنصر الأساسى فى النظام التقنى المعاصر الجديد وأسماها أ .ف . هارلو « أصغر عملاق حقيقى فى التاريخ بأسره » .

من الراديو الى الحاسوب

كان الراديو هو أول جهاز الكترونى ، يقوم على فكرة الأنبوب ذى الفراغ . وبدأت الانطلاقة التجارية لهذه التقنية الاتصالية الجديدة مع بداية العشرينات وسرعان ماحققت رواجاً هائلاً . وتجدر هنا ملاحظة أن اختراع الراديو كان محصلة ثلاث ظواهر كانت لها صلة مباشرة بالاتصال ولكن بدرجات مختلفة . فقد أصبح تصنيع الراديو ، كمارأينا ، ممكنا من الناحية التقنية بعد امكانية السيطرة على حركة الجزيئات : فانبعاث الألكترونات وتبادلها وسريانها ظاهرة اتصالية يمكن التحكم فيها فيزيائيا . وفى هذا السياق تم اختراع مفهوم التغذية الاسترجاعية الذى استخدم بعد عدة سنوات فى الاتصال بصفة عامة . وفيما بعد « أصبح الراديو ــ كما أكد ديفيدس . لاند بقوة ــ شاهدا على وجود عالم من المعرفة ، يتم فيه تبادل مخزون الأفكار ... عالم ساعد بشدة على انتشار الأفكار الجديدة علاوة على تطوير الاتصالات » . لقد كان الراديو أداة تقنية معقدة ، تجمع بداخلها العديد من الابتكارات . وأسفر الاتصال المكثف بين العلماء بعضهم وبعض ، وبينهم وبين المهندسين والصناعيين عن ظهور هذه التقنية الاتصالية الجديدةوفى النهاية لم يشهد الراديو أى مشكلة فى التوزيع التجارى . فقد كان هو ذاته خير دعاية لنفسه . مثلما حدث فى عصر النهضة عندما كان الكتاب ــ بمضمونه ــ خير دعاية لنفسه ولصلاحيته كتقنية اتصالية ــ وهو مالم يحدث طوال العصور الوسطى ، أما الراديو فقد ساعد بفعالية على انتشاره الذاتى .

وأكد لاند ، فى معرض تفسيره للانتشار الجماهيرى السريع للراديو ، أن

فائدة هذا الجهاز مرتبطة ارتباطاً عكسيا بالدخل ، فهو بالنسبة للقادرين ليس سوى وسيلة تسلية من بين وسائل أخرى ، ولكنه بالنسبة للمحتاجين وسيلة الترفيه الوحيدة ومن ثم لايمكن الاستغناء عنها . ويجب أيضا التأكيد على الأثر التعليمى بل التعليمى الذاتى لهذه الوسيلة الجديدة فى مجال الاتصال الاجتماعى .

لقد أسهمت الحرب العالمية الأولى فى ازدياد شعبية تقنيات الاتصال فى جميع المجالات وتطويرها ، بما فى ذلك الاذاعة . ووفرت أزمة عام ١٩٢٩ والاحباط الذى تلاها ، وظهور النظم الشمولية ، تربة مثالية لنمو الحاجة إلى الاتصال . وتشير الإحصائيات الخاصة بمنح التراخيص التى كانت لازمة فى ذلك الحين لشراء أجهزة راديو فى أوروبا الى أن المنحنى الصاعد فى ألمانيا كان أكبر بكثير من انجلترا أو فرنسا : ففى عام ١٩٣٣ صدر فى ألمانيا ٥ ملايين و ٥٣ ألف ترخيص مقابل ٦ ملايين فى انجلترا ومليون و ٣٠٨ ألف فى فرنسا ، وبعد بضعة أعوام فى سنة ١٩٣٩ أصبحت هذه الأرقام بالترتيب كمايلى ١٣ مليون و ٧١١ ألفا فى ألمانيا ، و ٨ ملايين و ٩٠٠ ألف فى انجلترا و ٤ ملايين و ٩٩٢ ألفا فى فرنسا .

وكانت الخطوة التالية فى هذه الابتكارات الألكترونية ، التى كانت قد بدأت لتوها ، هو الرادار وبعده مباشرة الحاسوب ، الذى يعد حجر الزاوية فى تقنيات الاتصال فى القرن العشرين .

إن التشابه بين نشأة الكتابة عند تخوم الشرق الأوسط منذ خمسة آلاف سنة وظهور الحاسب الآلى فى منتصف القرن العشرين مدهش فعلا . ففى الحالتين ولدت تقنية جديد للاتصال من علم الحساب ثم انفصلت عنه تدريجيا ، وفى الحالتين مرت التقنية فى البداية بمرحلة اقتصرت تقريباً على تخزين المعطيات والمعالجة السلبية للمعلومات ، وفى الحالتين تصبح هذه التقنية ديناميكية لتساند نشاطاً هائلاً لتداول الأفكار والمعلومات بين الناس ، وفى الحالتين : ما أن يتم ابتكار التقنية الأساسية حتى يحدد سياق التطور الاجتماعى الشكل الذى سوف تتخذه وسائل الاتصال الجديدة .

ولاشك فى أن الكتابة كانت أبطأ من الحاسوب فى تحولها الى تقنية حقيقية

فى خدمة الاتصال ، ولكن اذا نظرنا الى المسألة عن قرب سنجد أن تطور الحاسوب ، نحو استخدامه كتقنية من تقنيات الاتصال لم يكن مباشراً . بل إن هذا التحول لم يتحقق بصورة حقيقية حتى يومنا هذا ، ولاتزال الثورة التى يتوقعها الكثيرون من الحاسوب بعيدة عنا . ويبدو أن المعادل الموضوعى للأحداث التى أدت الى عصر النهضة ، فيما يتعلق بالكتاب ، لم يأت بعد بالنسبة للحاسوب .

على أى حال لقد أصبحت هذه الوسيلة بين أيدينا ويمكن أن نتتبع الخطوات الكبرى التى سبقت اختراعها واستخداماتها وإرهاصاتها الأولى ،فقد ولد الحاسوب ، مثل الكتابة ، من علم الحساب ومن الرغبة فى معالجة عدد من المعلومات الاجتماعية بشكل منطقى . وكانت القاعدتان التقنيتان اللتان مهدتا لظهور الحاسوب ، ابتداء من القرن التاسع عشر ، هما تطور الأنشطة الحسابية خاصة فى دنيا الهندسة ، والتقدم الذى طرأ على الكتابة الآلية كتقنية تخدم الالمام بالواقع الاجتماعى والاقتصادى . ثم ظهرت فى منتصف القرن العشرين وبالتحديد حوالى عام ١٩٤٥ أول حاسبات آلية ، اتسمت بالخضوع لاغراء الاتصال، وسرعان ماظهرت عملياً أول شبكات تضع الحاسبات الآلية فى خدمة الاتصال .

تطور الحساب

كان مهندسو عصر النهضة ، الذين اتسموا بحب الاستطلاع العام والذين كانوا يبحثون فى الرياضيات عن طريقة « **لحساب الايرادات بشكل صحيح** » ، وراء أحد الانقلابات الهامة فى هذه التقنية . فبعد أن ظلت الشعوذة لآلاف السنين هى القاعدة ، أسهم استخدام الرياضيات التطبيقية فى إحداث تغيير عميق فى الممارسات التقليدية وخاصة فى مجال البناء .

وكانت التطبيقات العسكرية إحدى نقاط الانطلاق الرئيسية فى استخدام الرياضيات فى المجالات التقنية . ومن الأمثلة الأولى المعروفة فى هذا الصدد ، لجوء جنود المدفعية التابعين للملك شارل الثامن فى نهاية القرن الخامس عشر لنصب

أشرعة على أحد الشواطىء المتاخمة لميناء نابولى تمكنهم من قياس مدى القذائف وفقاً لزاوية القصف . ومن العجيب أن التطورات الحاسمة التى أدت بعد خمسة قرون الى اختراع الحاسوب ظهرت أيضا كنتيجة لتطبيق طرق جديدة فى حساب جداول القصف للجيش الأمريكى أثناء الحرب .

ثم يحل المهندسون ، وهم رجال الحسابات والتنبؤات ، تدريجياً محل الحرفيين فى تنفيذ المشروعات المعمارية الكبرى . وكان هذا التغير فى التقنيات وراء تحول آخر أكثر حسماً بالتأكيد فى طريقة الاتصال بين الأساليب التقنية نفسها . وبينما كانت خبرة الحرفى لاتنتقل إلا بالتجربة المباشرة وعن طريق القدوة ، فان المعلومات المؤكدة للمهندس يمكن تداولها جزئياً بدون أى تواجد مادى . ويمكن أن يشكل النص المطبوع والرسم التقنى عوناً رائعاً للمهنيين الجدد ، وبدأت هذه التقنية تصبح مادة لتواصل اجتماعى حقيقى .

إن التطور الصناعى الذى حدث فى القرن التاسع عشر جعل من نهاية هذا القرن وبداية القرن العشرين العصر الذهبى للحساب المستخدم فى التقنية ، الذى أعطى اشارة البدء للانجازات المعمارية الكبرى . وكانت الجسور والأنفاق والأبراج وناطحات السحاب النتاج المباشر « لامبراطورية المعادلة التفاضلية » التى شمل نطاق تطبيقاتها كافة الأشياء الخاضعة لقوى . ومنذ ذلك الحين أصبحت أصغر دعامة فى أى جسر ، وأصغر أرضية فى أى مبنى مهما قلَّت أهميته تبدأ فى صورة حساب خاص بهذا الجزء يضمن بالتأكيد أو بالأحرى فعاليته وأمنه .

لقد واكب التطور الهائل فى مهنة الهندسة هذه السيطرة شبه الكاملة للحساب على نواح كاملة من النشاط البشرى . وتمثل المكبح الوحيد لهذا التوسع فى التقدم الأكثر بطءاً اللآلات الحاسبة . كانت الاحتياجات موجودة والنظرية قائمة ، لكن التطبيق العملى مفرط فى البطء طالما أن الحسابات كانت يدوية ، ولم ييسرها نسبياً الا اللجوء الى المسطرة الحاسبة ، التى كانت بمثابة عصا سحرية عصرية فى الهندسة ، ثم الآلات المكتبية الكهروميكانيكية والتى لم تكن عملية الى حد كبير .

وبدأ استشعار هذا القصور بشدة فى الثلاثينات وخاصة بعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب . حيث كانت أمور النقل والادارة والتموين على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لجيش شديد العصرية ، ويستخدم تقنيات متقدمة أكثر من الاعتماد المكثف على المشاة — على غرار الأسلوب العسكرى السوفيتى — خاصة وانه كان يدخل معارك بعيدة عن قواعده . كانت الحرب الأمريكية حرباً تقنية ، احتل فيها الحساب مساحة كبيرة ، كما كان الحال فى جميع الأنشطة التى طورتها الصناعة الأمريكية . فالقنبلة الذرية ، التى أنهت هذه الحرب بشكل جذرى ، كانت نتاجاً بحتا للقدرات الحسابيةلدى صفوة المهندسين الأمريكيين الذين حولوها الى واقع مادى ، بعد أن وضع علماء الفيزياء خطوطها النظرية العريضة . ورأت أول حاسبات آلية النور بعد ذلك مباشرة ، حيث كانت لها صلة مباشرة بهذه الأحداث .

وواكب تطور الأنشطة الحسابية نمو « ايمان حقيقى بالحساب » . فمنذ عصر جاليلو الذى كان يرى الكون ككتاب ضخم يعتمد فى أسلوبه على الصيغ الرياضية ، وديكارت الذى كان يرى فى الرياضيات مصدراً لتجديد شامل فى مناهج التفكير ، لم يعد الحساب مجرد تقنية وانما « نظام حقيقى للعالم » . وبدلا من النظريات الميكانيكية البحتة التى كانت تعد الكون مجموعة من التروس التى تحدد تشغيلها مسبقاً ، ظهرت فى القرن التاسع عشر مجموعة أرق من المفاهيم ، تدور فى اطار المنطق ، ولم تكن غايتها هى ايجاد الدليل على وجود الله وانما مجموعة من الاهتمامات الأكثر علمانية بالظروف الحقيقية لبعض النصوص المؤكدة لوجوده .

وسرعان ما تصدى هذا المنطق الجديد ، مع بداية القرن العشرين ، للغة فعاد لتناول القضايا التى طرحتها الخطابة منذ زمن بعيد ولكن بأشكال أخرى : ماهى اللغة ؟ ماهو البرهان على صحة كلام ما ؟ وهل يمكن التأكد من صحة البرهان ؟ لقد كان التفكير فى الاتصال — كما تدل أعمال ويتجنستاين — وراء النماذج الجديدة التى ميزت فيما بعد العصر الحديث . وبات الطريق مفتوحاً لكى يعامل الاتصال كالحساب . ولكى يصبح الاتصال بهذا المعنى صفحة جديدة فى

كتاب الكون الكبير لجاليليو . وخطا عالم الرياضيات الانجليزى « آلان تورينج » خطوة كبيرة فى هذا الاتجاه بصياغة تعريف للوغاريتمات ، التى أصبحت تشكل أحد الأسس النظرية لعلوم الحاسب الآلى العصرية .

تطور الكتابة الآلية

كان الطريق الى الحاسبات الآلية ممهداً الى حد كبير أيضاً بفضل التطور الذى طرأ على الكتابة الآلية ، وهى التقنية التى تهدف الى ميكنة عمليتى جمع ومعالجة المعطيات الاحصائية والحسابية بصفة خاصة ، ثم كافة المعلومات الاجتماعية والاقتصادية التى يمكن مصادفتها أو استحداثها بصفة عامة .

كان الاحصاء ونظام البطاقات ، كما رأينا ، من الأشياء التى استهوت الناس من قديم الأزل ، وارتبطت غالبا بتطور المدن والدول المركزية ، فى فترات نمو وتركز الثروات . فهل كان سكان مابين النهرين هم أول من اخترع الاحصاء والمحاسبة ، أم سبقتهم شعوب أخرى الى ذلك ؟ على أى حال لقد تركوا أقدم آثار مؤكدة على ذلك . وحقق تطور الأنشطة التجارية فى عصر النهضة وثبة الى الأمام بالنسبة للتقنيات المحاسبية ، وفرض وجود الحكومات المركزية فى قلب انتاج الثروات بأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، اعتباراً من القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اجراء حصر للأملاك المادية وكذلك السكان . كما فرضت الكميات الهائلة من المعلومات التى تم الحصول عليها ضرورة معالجة المعلومات بواسطة آلات .

قام الأمريكى هيرمان هولريث (١٨٦٠ — ١٩٢٩) بتصميم أول آلة كاتبة فى صيف عام ١٨٩٠ ، بعد ن حجزها ومولها مكتب الاحصاء وهو الجهة التى كلفتها الحكومة الأمريكية باجراء ومعالجة عمليات حصر السكان وقد اكتسبت عمليات الحصر هذه أهمية خاصة فى بلد يعتمد دستوره على هذا التعداد لتحديد عدد ممثلى الولايات فى البرلمان وفقاً لعدد السكان فى كل ولاية . كما ظهرت قيمة تجميع المعلومات الاجتماعية والاقتصادية عندما سادت المجتمع الأمريكى موجة

متزايدة النمو ، بسبب الهجرة ، من الانتقال الجماعى الى الغرب الأمريكى وارتفاع معدلات مواليد القادمين الجدد : لقد ارتبطت المعلومات ـــ مثل الاتصال ـــ جزئيا بحركة البضائع والانتقالات المكثفة للأشخاص من مكان لآخر .

وظهرت تدريجياً صعوبة التنظيم التقنى لهذا الإجراء ـــ الذى تقرر منذ عام ١٧٨٧ ـــ عندما كان العالم الجديد لايقطنه سوى أربعة ملايين نسمة : ففى عام ١٨٨٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية ٥٠ مليون نسمة وأصبحت عملية حصرهم يدوياً تستغرق سبع سنوات . وأسهمت الآلة الحاسبة التى اخترعها « هولريث » فى اختصار هذه المدة بشكل ملحوظ .

ومنذ هذه الدفعة الأساسية ، حققت الكتابة الآلية نجاحاً كبيراً . وأصبح للبطاقات المثقوبة التى تم استخدامها لتدوين المعلومات خاصية العالمية : فالثقوب ، يمكن أن تمثل ـــ بالاتفاق المسبق ـــ أى نوع من المعلومات ، بشرط قابلية هذه المعلومات للتعبير عنها بصورة شاملة فى هذا الشكل البسيط . وأثبت استخدام نظام هولريث فى روسيا ـــ ابتداء من عام ١٨٩٦ ـــ عالمية هذا المبدأ لأن هذا النظام فى التدوين ، كما كانت الكتابة منذ زمن بعيد ، مستقل عن اللغات المستخدمة (٤٤ فى أول احصاء روسى) .

ومن ناحية أخرى ، أتاحت الآلات الكاتبة الفرصة للنساء لكى يطرقن وبشكل مكثف قطاع التجارة والخدمات . وتدريجيا تطورت قدرات المرأة التى بدأت كناقبة واستطاعت بفضل الآلة الكاتبة ارتقاء مواقع المسئولية .

وكانت السياسة الاجتماعية التى انتهجها ف . د . روزفلت وراء انشاء مركز ضخم للاحصاء يضم ٢٣٠٠ موظف و ٤١٥ آلة يقومون يوميا بفرز حوالى ٦٠٠ ألف بطاقة . وفى فرنسا ، ابتكر « رينيه كارميل » إبان الحرب العالمية الثانية أرقام الهوية المؤلفة من ١٣ رقماً ، وكان يحلم ببنك للمعلومات يضم بيانات تتعلق بالسكان يتم تجديدها أولا بأول. وقد لاحظ « روبر ليجونيير » أن الكتابة الآلية أدت الى إقامة صلة مباشرة بين الدولة والفرد .

وقد حققت الولايات المتحدة الأمريكية تقدماً على غيرها من الدول فى هذا

المجال ، وأسهم استخدام الآلات ذات البطاقات المثقبة لتنظيم المسائل الادارية خلال الحرب العالمية الأولى فى شيوع هذا النوع من أنواع المعالجة للمعلومات الاجتماعية . وعندما أصبح الحاسوب فى الخمسينات سلعة تجارية اكثر انتشارا ، كان من أبرز استخداماته حلوله محل الآلات القديمة فى حقل الكتابة الآلية ، أما الشركات التى جاءت تتقاسم السوق فقد كانت جزءاً من الشركات القائمة بالفعل فى هذا المجال .

وبينما أصبح الحساب نموذجاً ايضاحياً جديداً ، أضحت الكتابة الآلية بالتدريج إحدى الوسائل الحديثة للحكومة . وتعاظمت مكانة المعلومات يوماً بعد يوم . وبرغم عالمية الآلات الكاتبة ، فانها لم تكن من الأدوات العملية تماماً اذا وضعنا فى الاعتبار نمو الاحتياجات بغير حدود . فقد كانت تشبه الى حد ما ، من حيث جمودها ، الرموز المصورة القديمة . أما الحاسوب فقد أتى بقدر كبير من المرونة فى معالجة المعلومات ، تشبه مرونة استخدام الحروف الأبجدية .

الآلات الحاسبة الكبيرة الأولية وعالم التليفون

جاء اختراع الماكينة التى كانت بمثابة محور هذا التحول ــ الحاسوب ــ مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، كما رأينا ، على أيدى فريق من المهندسين يعاونهم بصورة كبيرة عالم الرياضيات جون ثون نيومان . وشهد العقد المنصرم تصنيع آلات حاسبة بالغة الضخامة . وكان أكثرها حداثة يستخدم تقنية تعتمد على محطات التقوية التليفونية . وكان مهندسو التليفونات ــ فى الواقع ــ من أكبر مستخدمى الحسابات . وأوجد التطور السريع للتليفون ، ليس كوسيلة اتصال للمسافات القريبة فحسب ، وانما أيضاً للمسافات البعيدة ، مشاكل تقنية جديدة ومبتكرة . لقد أصبح السعى الى التجويد ــ تحميل مزيد من الاتصالات على نفس الخط فى نفس الوقت مع توخى دقة أكبر للرسالة ــ هو هاجس المهندسين ، وخاصة العاملين فى معامل أبحاث « بل » التابعة لأكبر شركة فى هذا المجال . وأدت الأبحاث فى مجال التليفونات وتمكن المهندسين العاملين فى هذا المجال إلى تصور

امكانية تصنيع آلات تعتمد فى أجزائها الأولية على معدات الاتصال ، ويسمح مرور تيار كهربائى فى داخلها باجراء عمليات حسابية .

من المذهل اكتشاف الى أى مدى كانت التقنية الحاسبة الجديدة قريبة من تقنيات الاتصال وانتقال الرسائل . ومسألة وجود معدات مشتركة ، خاصة محطة التقوية التليفونية ، لاتفسر الأمر برمته . ثمة مؤشرات عديدة تثبت أن فكرة الحساب كانت تدرج على الفور ضمن مفهوم الاتصال والشبكات . وقد تم تصنيع أول حاسب ذى مقوٍ مزدوج فى الفترة مابين شهرى أبريل وأكتوبر ١٩٣٩ على يد أحد مهندسى معامل « بل » ويدعى جورج ستيبتز . ولم يكن من الممكن تشجيع اختيار المقوى المزدوج المنصوب فى الهواء الطلق الاباستخدام هذه المقويات الشهيرة ، التى كانت تتميز بقدرتها على اتخاذ وضعين اثنين فقط ، مرتبطين بفتح المقوى أو إغلاقه (كان أحد المهندسين الفرنسيين ويدعى « لوى كوفينيال » قد أعد فى عام ١٩٣٦ دراسة عن استخدام المقوى المزدوج فى الحساب)

كانت آلة ستيبتز «النموذج رقم ١» التى انتجتها معامل « بيل » للتليفونات تتكون من ٤٥٠ مقوى ، وتتميز بامكانية تشغيلها بواسطة مبرقة كاتبة تنقل الى الوحدة الحاسبة ، عن طريق مايشبه الخط التليفونى ، المعطيات والتعليمات . وقد سمحت هذه الميزة فى التصميم بسرعة ادخال الآلة على الشبكة . وفى البداية ، مع الحاح وتعجل الاحتياجات الحاسبة للمعامل ، تم توصيل فريقين من المستخدمين ، بواسطة مبرقتين كاتبتين ، بالوحدة المركزية : وأمكن تلبية طلب الفريق الأول ، أما الفريق الثانى فكان ينتظر دوره .

ثم خطت معامل بيل خطوة أخرى عندما صححت شبكة للحساب عن بعد ، على سبيل العرض . وفى سبتمبر ١٩٤٠ ، بمناسبة المؤتمر السنوى لجمعية الرياضيات الأمريكية ، تم تركيب مبرقات كاتبة فى مكان انعقاد مؤتمر بكلية دارموث فى نيوهامبشاير . وتم توصيل هذه المبرقات ، عن طريق الشبكة

التليفونية ، « بالنموذج رقم ١ » الذى كان موجوداً فى مانهاتن بقلب نيويورك . وقد أحدث هذا العرض بعض الأثر لأنها كانت على الأرجح المرة الأولى التى تجرى فيها عمليات حسابية عن بعد باستخدام آلة . وكان القائمان على هذه التجربة الفريدة هما نوربرت واينر الذى لعب بعد بضعة أعوام دوراً كبيراً فى تاريخ الاتصالات ، و « جون موشلى » أحد المهندسين الذين صمموا الحاسوب ابتداء من عام ١٩٤٥ .

وقد تقلص هذا التقارب الكبير بين تقنيات الاتصال التليفونى وتقنيات الحساب لبعض الوقت بسبب التخلى السريع عن المقويات التليفونية لحساب الأنابيب ذات الفراغات ، المشتقة هى نفسها من عائلة أخرى لتقنيات الاتصال ، الاذاعة ، والتى كانت تستخدم فيها بكثرة . ولم يحل الانتقال الى الالكترونيات دون ادماج الحاسوب بشكل شبه فورى فى بنية شبكية ، تستخدم هى أيضا الأسلاك التليفونية ، بل العكس هو الصحيح .

نشأة الحاسوب

تم تصميم هذه الآلة الجديدة فى الفترة من خريف عام ١٩٤٤ الى صيف عام ١٩٤٥ . وكان فريق المهندسين الذى يعاون « جى . موشلى » و « جى . ايكرت » والذى قام بوضع خطط الجهاز الذى أصبح فيما بعد واحداً من أهم اختراعات تلك الفترة ، لديه خبرة بالآلات الحاسبة ، خاصة الالكترونية منها. وكان موشلى وايكرت قد صنعوا بالفعل آلة حاسبة ضخمة تولى الجيش تمويلها ليتم استخدامها فى حساب جداول اطلاق القذائف .

ولم يكن ممكنا فى ذلك الوقت الحصول على موافقة عامة على استخدام الألكترونيات والأنابيب ذات الفراغ الشهير . بيد أن جماعة ضغط حقيقية تكونت للدفاع عن تقنيات المقويات التليفونية ، التى كانت تتعارض بعض الشىء مع هذا المدخل الجديد للحساب . وكان لابد من الاستعانة بفون نيومان ومهارته لفرض مبدأ تقنى جديد فى تنظيم هذه الماكينات .

وكان من أكبر الحيل التى ابتكرها فون نيومان هى تزويد الآلة بوحدة مراقبة داخلية تنظم أوتوماتيكياً ، باستخدام برنامج مناسب ، جميع الحركات الداخلية للمعلومات داخل الآلة وتلك التى تدخلها أو تخرج منها . وكانت هذه الفكرة ثورية بالنسبة لجميع الآلات التى كانت موجودة حتى ذلك الوقت ، والتى كانت مجرد عدادات كهربائية كبيرة ، يقوم العاملون عليها بتغذيتها أولا بأول بالعمليات التى يجب إجراؤها والمعطيات المناسبة . وقد زود فون نيومان الآلة الجديدة بذاكرة متسعة ، تضم المعطيات والعمليات فى « عناوين » محددة ، ثم بوحدة حسابية ، لم تعد منذ ذلك الحين هى العنصر الرئيسى فى الآلة ، وأخيراً بوحدة المراقبة هذه التى تنظم انتقال المعلومات وفقاً للاحتياجات والعمليات ، وتخزن فى الذاكرة النتائج حتى يتم نقلها . ويجمع الحاسوب الذى يستطيع تخزين معلومات مزدوجة واستخدامها فى اجراء كافة العمليات ، بين وظائف الآلات الحاسبة والآلات الكاتبة التقليدية التى اقتبس منها طريقة البطاقات المثقبة التى يعتمد عليها ، وذلك كله فى جهاز واحد .

شبكات الاتصال الأولى

مع اختراع الحاسوب ، تشابهت طريقة دخول المعلومة تماماً مع حركتها . فالمعلومة، داخل الآلة، ليست إلا عملية انتقال لذبذبات الكترونية تم الاتفاق مسبقاً على مغزى معين لها . وحتى تخزين المعلومة تم تخيله كحالة خاصة لهذه الحركة : فالساعة الالكترونية التى تعد بمثابة قلب الحاسوب تقوم عدة آلاف من المرات كل ثانية بتنشيط كل ذبذبة من الذبذبات الموجودة فى دوائر الآلة ، سواء كان هذا التنشيط فى المكان نفسه ، أو فى المكان التالى ، فتوجد بذلك الحركة . وتقاس قوة الحاسوب بسيطرته المحددة على حركة المعلومات داخل الآلة . ويضيف وجود المعلومة فى شكل حركة مستمرة ، قادرة على الخروج من الحاسوب للانتشار فى شبكة بث ، الى هذا الجهاز وظيفة مؤكدة وهى الاتصال . غير أن هذه الفكرة كانت غريبة تماماً على اهتمامات فون نيومان ، الذى كان مثله الأعلى فى تصميم

الحاسوب هو المخ البشرى . وكان يرى أن المنطق البشرى هو نتاج معالجة للمعلومات على مستوى الخلايا العصبية ، وأن من يستوعب مراحل هذه المعالجة سيكون قادراً على تصميم « عقل اصطناعى » يشبه فى أدائه المخ البشرى « الطبيعى » .

على أى حال ، عند هذه النقطة المحددة فى تاريخ الحاسوب ، حيث نرى صلته القريبة بل الحميمة بعائلة تقنيات الاتصال ، بدأت بعض الانشقاقات فى الظهور لتخط الأحرف الأولى فى تاريخ الكتابة ، وهو مالا ينبغى اغفاله . وبدأ اتجاهان يتحددان ، حسبما ننظر الى الحاسوب ، كما فعل نيومان ، سواء كجهازلمعالجة المعلومات أو باعتباره آلة للاتصال ، حسب تعبير نوربرت واينر .

فى الحالة الأولى ، فان كل تجديد يعزز القدرات الداخلية للآلة ، وقدرتها على الاستقلال عن البيئة المحيطة بها . وكان لفون نيومان ، الذى اهتم أكثر بالقدرات الفردية للمخ ، تأثير أكيد على تطور الأبحاث المعلوماتية . وبفضله أو بسببه ، تم تخصيص جانب كبير من التمويل العسكرى المكرس لهذه المسألة لمشروعات استطاعت تنفيذ آلات آكثر ضخامة وقوة . وحتى وفاته ، فى عام ١٩٥٦ ، كان منتهى طموحه هو اللحاق بالعقل البشرى وجرَّ بالفعل جزءاً من الحاسوب الى هذا السباق المجنون ، الذى ترتب عليه تطور الذكاء الاصطناعى فى نهاية الخمسينات .

وبمحاذاة هذه الأبحاث على المخ ــ الطبيعى والاصطناعى ــ بدأ الحاسوب عمله كتقنية للاتصال . وكانت ورقته الرابحة فى هذا المجال هى سرعته فى جمع ومعالجة وتنظيم المعلومات . وحدث من هذه الناحية تلاقٍ تاريخى بين الحاسوب والوضع السياسى والاستراتيجى الذى أو جدته الحرب الباردة اعتباراً من عام ١٩٤٧ . وقلبت الظروف الجديدة للحرب النووية جميع معطيات اتخاذ القرار وتنظيم الرد . وكانت القضية على المستوى التقنى هى : كيف نعرف أن الروس يهاجموننا ؟ وكيف نرد عليهم فوراً ؟ وكان الرد هو الحاسوب : ليس وحده وانما كجهاز عصبى ، ومركز لجهاز فائق السرعة لنقل المعلومات . ألم يكن من الممكن

أن تلعب وحدة المراقبة نفس الدور الذى تلعبه داخل الجهاز ، فى قلب نظام كامل للاكتشاف والرد .

وهنانشأت أول شبكة معلوماتية على مستوى دولة بأكملها . وتم وضع عشرات الرادارات على الحدود الاستراتيجية يمكنها أن تعد فى الوقت المناسب خريطة كاملة للسماء يتم تجميعها بواسطة أربعين حاسوباً ضخماً مرتبطة فيما بينها بخطوط تليفونية خاصة . وتقوم نفس الأجهزة على الدوام بمقارنة هذه الخريطة الحقيقية بالخريطة التقديرية التى يتم اعدادها بناء على خرائط الطيران التى تسلمها الطائرات المدنية والعسكرية لأبراج المراقبة المختلفة . وعند اكتشاف فروق بين الخريطتين ، كحالة وجود شىء غير معروف ، تصدر أجهزة الحاسوب المركزية أوامرها للطائرات الاعتراضية بالاقلاع والسير وفقاً لخطط محددة يجب الالتزام بها لبلوغ هذه الأهداف .

فى مثل هذه الشبكة ، تم استخدام وظيفة الاتصال فى الحاسوب على أكمل وجه وأصبح المثال السابق نموذجاً يحتذى لشبكات أخرى مدنية وعسكرية ،خاصة الشبكات الأولى لحجز الأماكن لدى شركات الطيران . وتم تنفيذ التقنيات المعلوماتية الأولى للاتصال بهذه المناسبة .

مراجع : S. AUGARTEN, 1984; P. BRETON, 1987c; B. GILLES, 1978; P. LÉVY, 1987; R. LIGONNIÈRE, 1987.

٦ ـــ مناطق الاتصال الجديدة

ثمة ثلاث مناطق كبرى رسمتها ، اعتباراً من الخمسينات ، حدود مجال تقنيات الاتصال الاجتماعى. هذه المناطق هى : وسائل الاعلام ، الاتصالات اللاسلكية والحاسب الآلى . وجمع هذه التقنيات تحت نفس المسمى « اتصال » يجب ألا يحجب اختلافاتها الأساسية ، سواء على المستوى الفكرى أو الأنثروبولوجى . وينبغى قبل البحث عن كيفية نشأة ايديولوجية الاتصال التى تعد بمثابة القاسم المشترك لهذه المجموعة التى تبدو أحيانا متنافرة ، حصر هذه الاختلافات مع تسجيل نمو التيار « الرقمى » ، الذى يميل الى ايجاد تجانس بين تقنيات الاتصال واخضاعها جميعا « لثقافة البديهيات المنطقية » على حساب الأشكال التقليدية « لثقافة الاستدلال » .

توزيع خريطة الاتصال

يبدو قطاع وسائل الاعلام ـــ الطباعة ، الصحافة ، الراديو والتليفزيون ـــ للوهلة الأولى كما لو كان يملك أكثر الجذور التاريخية عمقاً . فالطباعة ترجع بداياتها الى « نهضة » الغرب ، والصحافة المكتوبة يتجاوز عمرها الآن القرنين ، أما الاذاعة والتليفزيون فقد شهدا برغم شبابهما النسبى تطوراً مذهلاً . ويوجد ، بين وسائل الاعلام ، قطاع لم تتحدد ملامحه بعد ، لأنه مازال فى طور التكوين ، وإن

كان ينزع سريعاً الى الاستقلال : هو « ادارة الاتصال » الذى يشمل العلاقات العامة والدعاية وأجهزة الاتصال والاعلام الداخلية فى المؤسسات .

تغطى وسائل الاعلام رقعة هائلة فى مجال الاتصال الاجتماعى طالما أنها أخذت على عاتقها وظائف شفهية ومكتوبة فى الوقت نفسه ، كما أضافت الى المعلومات التى تقدمها والتى تجمع بين التنوع والتعددية عنصر الصورة التى يتسع مجال تغطيتها باستمرار . وقد ورث هذا المجال جميع ثروات « ثقافة الاستدلال » التى تمتد جذورها عميقة فى تاريخ البشرية . وستشهد الدعاية ، التى تستمد مصادرها الابداعية من الثروة القديمة لمهارات الخطابة التقليدية ، على قوة هذا المفهوم الاستدلالى للاتصال الاجتماعى الذى يعد الاقناع مفتاحه الرئيسى . وتستند القوة الشعبية لوسائل الاعلام على قدم التقليد الذى ترتبط به ، الى جانب ارادة ديمقراطية تتوق للوصول الى أكبر عدد من الناس .

على الصعيد المادى ، تعتمد وسائل الاعلام على تقنيات ترجح باستمرار كفة الاتصال الاجتماعى على الاتصال بين الأشخاص . علاوة على أن هذا القطاع يظهر قدرة هائلة على استيعاب الابتكارات التقنية المصممة لاستخدامات أخرى وتوظيفها لخدمة غاياته الخاصة . ويعد التليفزيون ، الذى حذا حذو الراديو فى استخدام أحدث التقنيات الالكترونية على نطاق واسع ، أفضل مثال على هذه الحيوية المذهلة .

أما المنطقة الثانية فى الاتصال الاجتماعى ، التى شهدت نمواً سريعاً برغم حداثة عهدها ، فهى الهاتف (التليفون) ، أو بشكل أعم كافة الخدمات التى تهدف الى نقل الرسائل . ويعد البرق (التلغراف) هو الجد الأكبر للتليفون ، وكانت أول أشكال البرقيات هى البصرية التى ابتكرها « شاب » . ففى البداية ، اعتمدت هذه الطريقة لنقل الرسالة نقطة نقطة على عنصر الكتابة ، بواسطة نص مكتوب بالشفرة ، ولكن سرعان ما ساعد استخدام الكهرباء ، الى جانب الرغبة فى ايجاد تفاعل أكبر بين طرفى الرسالة، على تحول التليفون الى تقنية شفهية .

لم يتم استخدام البرق ثم الهاتف على الفور لخدمة الاتصالات بين الأشخاص ، فقد كانت الاستخدامات الأولى للبرق مقصورة تماماً كما رأينا على اتصالات السلطة السياسية : نقل الأوامر والتعليمات من المركز الى الأطراف ، ثم نقل المعلومات والتقارير فى الاتجاه العكسى . وقد جعل التطور الكبير فى صناعة التليفونات فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ثم الأكثر بطءاً فى أوروبا ، من هذا الجهاز وسيلة تقنية متميزة للاتصال بين الاشخاص الذين تفصلهم مسافات بعيدة . كما ساعدت التطورات التقنية فى هذا المجال ، وارتباطه بالحاسب الآلى فى العصر الحديث ، على تحويل التليفون من جديد ، ثم بشكل أشمل كافة الأجهزة اللاسلكية ، الى تقنية للاتصال الاجتماعى فى صورة شبكات تنقل المعطيات والمعلومات بشكل آلى . لقد ورثت الاتصالات اللاسلكية تقليداً كانت تسيطر عليه الشفرة . والاقتصاد والفعالية فى نقل الرسائل . هذا التقليد ، الذى نشأ فى عالم السفارات والرسائل السرية لأنظمة الحكم السابقة ، وضع منذ زمن بعيد تقنياته الشفرية فى أسر الأرقام بل الأرقام الثنائية التى اخترعها فرانسيس بيكون فى القرن السابع عشر لترميز رسائله . وقد ساعدت هذه الخاصية على التقريب المعاصر بين الهاتف والحاسب الآلى .

أما المنطقة الثالثة التى احتلتها تقنيات الاتصال الحديث ، وهى آخرها من حيث الظهور ، فهى تلك المتعلقة « بالمعلوماتية » كتقنية لمعالجة المعلومات . فسرعان ما أصبح الحاسوب ، الذى كان مقصوراً فى البداية على التطبيقات العلمية ذات الاستخدامات العسكرية ، وسيلة لخدمة المزيد والمزيد من الاستخدامات المدنية . وبرغم حداثة عهده ، سيتجه الحاسوب تدريجياً لأن يصبح تقنية تخدم الاتصال الاجتماعى بشكل مباشر . ومع أن الحاسوب كان ابتكاراً حقيقياً على المستوى المادى فى عام ١٩٤٥ ، فقد كان فى الواقع محصلة نضج ثقافى طويل لايفتقر الى الاهتمامات المرتبطة بالاتصال « غير أن الحاسوب كان الثمرة الحقيقية « لثقافة البديهيات » التى نشأت فى قلب التحديث الغربى ، منذ نهاية العصور الوسطى . لقد أصبحت المعلوماتية على الفور تأملاً فى لغة

البشر وقواعدها المنطقية ، سواء من ناحية ظروف ظهورها أو من ناحية وظائفها الاتصالية . ومن ثم ، فان أى اتصال عن طريق المعلوماتية يحمل على الفور ملامح الفلسفة المنطقية الخاصة بهذه التقنية .

الفروق الأنثروبولوجية فى عالم الاتصال

فى حالة اجراء تقييم لتقنيات الاتصال المختلفة ، يجب مراعاة عدم التقليل من شأن الاختلافات الأصلية الموجودة بين هذه المناطق الثلاث . وبعض هذه الاختلافات ، بغض النظر عن كونها عوارض تاريخية يتضاءل أثرها تدريجياً ، مرشحة بالتأكيد للبقاء وربما للتضخم .

وتشهد الحركة التى نراها فى الوقت المعاصر من هذه الناحية تطوراً مركباً ، حيث تتجه مجموعات التقنيات الثلاث الكبرى هذه الى التجانس ، وخاصة تحت التأثير العرضى « للنموذج الرقمى » ذى الأساس الالكترونى ، من جهة ، بينما تحتفظ ببعض الاختلافات غير القابلة للتلاشى من جهة أخرى .

وسيرى المراقب اليقظ فى هذه الحركات المختلفة ، فى أحيان أخرى ، لعبة تبادلية ، متسقة أحيانا ، ومتصارعة فى أحيان أخرى ، بين ثقافة الاستدلال وثقافة البديهيات . وفيما بين ثقافة الاستدلال التى تميز وسائل الاعلام وثقافة البديهيات المنطقية التى كانت وراء ظهور الحاسب الآلى ، تبحث الاتصالات اللاسلكية عن طريقها .

ثم يتم التقارب بين التقاليد الثلاثة الكبرى من حيث تقنية الاتصال بطريقتين . حيث يبدأ أولا تقارب على مستوى القاعدة ، اذ اجاز التعبير ، بفضل التوحيد التدريجى للأساس المادى للتقنيات ثم دخول « النموذج الرقمى » ، وهو مجموعة متماسكة من المعدات القائمة على الألكترونيات والتقنيات والرهانات الاقتصادية والسياسية . والشكل الأول الذى سيتخذه هذا النموذج سيكون التلاقى المتزايد بين الاتصالات اللاسلكية والحاسب الآلى ، ثم الدور المتنامى للألكترونيات والمعلوماتية فى تشكيل ومعالجة وتخزين المعلومة الاعلامية . وسرعان ما يصبح النموذج الرقمى عنصراً للتكامل العرضى لمعظم تقنيات الاتصال .

وستكون هذه التقنيات موحدة ، من أعلى هذه المرة ، بفضل الأهمية المتزايدة لأيديولوجية الاتصال . وبالتدريج ستتغذى الصور التي تكونها المجتمعات الغربية لنفسها بفكرة مفادها أن الاعلام والاتصال يلعبان دوراً أساسيا فى نظمها بل ولبقائها نفسه . وقبل أن نبحث عن كيفية قيام النموذج الرقمى ثم أيديولوجية الاتصال بتوحيد تقنيات الاتصال المعاصرة وايجاد التجانس بينها ، ينبغى تحديد موقع الاختلافات الجوهرية بين وسائل الاعلام من جهة ، والاتصالات اللاسلكية التى تحتل مكانة متوسطة وأصيلة والحاسب الآلى من جهة أخرى .

والاستنتاج الأول الذى سنتوصل اليه هو أن الأشخاص المسئولين عن تشغيل هذه التقنيات لاينتمون الى نفس الطوائف الاجتماعية ، ولم يتلقوا نفس التدريب ولا الثقافة المرجعية ، وأن صلاتهم الأنثروبولوجية بالتقنية مختلفة أساساً . أما الاستنتاج الثانى فهو أن هؤلاء الأشخاص لايعالجون ، لافكريا ، ولاعملياً ، نفس « المعلومة » . فالمعلومة التى يتعامل معها رجال الاعلام ليست هى على الاطلاق نفس المعلومة التى يتعامل معها فنيو الاتصالات اللاسلكية ، ولاهى نفس المعلومة التى يعدها العاملون على الحاسب الآلى ويحولونها . والاختلاف عند هذا المستوى بديهى تقريباً ولكنه ذو أهمية أساسية . لأنه يكون مصدراً لكثير من حالات سوء الفهم . لأن نفس الكلمة ــ المعلومة ــ يمكن أن ترمز لحقائق جد مختلفة . وفى الوقت نفسه فان هذه التعددية فى المعانى أساسية لأنها تسمح بالاتصال بين مناطق مختلفة فى عالم واحد ، هو عالم الاتصال .

معانى « المعلومة »

إنها حقاً مفارقة عجيبة أن يستخدم نفس اللفظ « معلومة » للاشارة الى سرد الوقائع الذى يقوم به الصحفى و « وحدة التعداد » التى تنتقل فى دوائر الحاسوب قبل أن ينتهى بها الحال ، فى شبكة للمعطيات . فى الحالة الأولى نقصد مادة لغوية حية ، وصفاً ، وسرداً ، ومشاهدة ، بشرط أن تعبر عن عنصر واقعى . وفى الحالة الأخرى سنجد الأمر يتعلق ــ كما تقول الأكاديمية الفرنسية ــ « بدعامة

للمعارف والاتصالات فى المجال التقنى والاقتصادى والاجتماعى » . والخلط كما نرى يكون فى قمته عندما تستخدم « المعلومة » ، من نوع « الدعامة الفيزيقية » للتعبير المادى عن « المعلومة » من نوع « التعبير عن الواقع » .

ولمزيد من الايضاح ، يجب أن نعترف أن الاختلافات بين القطاعات الثلاثة الكبرى فى الاتصال تتلخص ، فى نوع « المعلومة » التى تستخدمها . فالمتخصص ، فى دنيا وسائل الاعلام ، يشتغل أساساً على معنى الرسائل والاتصال خاصة وانه يكون على صلة بالجمهور . وتكون مادته الرئيسية هى « المعلومة الكيفية » . أما عالم الاتصالات اللاسلكية فيغطى نشاطه مجال نقل الرسائل وفعاليتها، وتكون مادته الرئيسية هى « النشاط التبادلى للمعلومة » بسبب وضعها فى شبكات، ومن ثم يمكن وصف المعلوماتية ، التى تنشأ من استفسار حول ظروف النتاج الفكرى وحول الشكل الرسمى للمعلومات ، بأنها مجال معالجة المعلومة الرقمية ، أى المعلومة فى شكلها الرقمى . وهذه الفروق هى التى تجعلنا نفهم ، على سبيل المثال ، أن الاتصالات اللاسلكية تحتل موقعاً وسطاً ، بما أنها مركز النشاط التبادلى للمعلومة الرقمية ، التى تعد الشكل المادى للمعلومة المنقولة، وكذلك المعلومات الكيفية، أى المغزى الذى تعبر عنه هذه المعلومة .

ويقودنا هذا التمييز البسيط بين شكل ومعنى المعلومة ، الذى يؤكد عليه بعض الإعلاميين مثل « جاك إرساك » فى فرنسا و « جوزيف ويزينبوم » فى الولايات المتحدة الأمريكية، الى سؤال أساسى هو : هل يستطيع الشكل المادى المتمثل فى المعلومة الرقمية أن ينقل ويعالج المعلومة الكيفية دون تحريف المعنى ؟ وقد ازدادت أهمية هذا السؤال لاسيما وأن النموذج الرقمى أصبح حالياً عنصراً لتوحيد ونقل مجمل التقنيات الاتصالية .

رجال الاتصال .

إن النظرة الأنثروبولوجية لهذه المناطق الثلاث : وسائل الاعلام والاتصالات

اللاسلكية والحاسب الآلية ، تثبت أنها مأهولة بأشخاص شديدى الاختلاف بعضهم عن بعض ، وأنهم لاينتمون من الأصل الى نفس الثقافة .

فالعاملون فى قطاع وسائل الاعلام من صحفيين ومنتجين ومبدعين يختلفون — كفئة اجتماعية — اختلافاً جذرياً عن العاملين فى قطاع الاتصالات اللاسلكية . حيث تتعامل الفئة الأولى مع الانسانيات والقواعد العملية للاستدلال ويجدون فى « الواقع البشرى» نبعهم الذى لاينضب . وتقترب الشخصيات الرئيسية فى وسائل الاعلام — فئة المنتجين مثلا — من حيث قيمها وأسلوب معيشتها من عالم الفنانين والمبدعين . وينتمى الرجال والنساء العاملون فى وسائل الإعلام الى تيار ذى تقليد بشرى يجعل من المعلومة شيئاً فى حالة تكون مستمر . والنظرة الفاحصة لبرامج التأهيل للمهن الجديدة فى عالم الاتصال تكشف سيادة هذا البعد الأساسى للاستدلال .

التقنية ، فى دنيا وسائل الاعلام ، ليس لها من صفة سوى كونها « أداة » ، حيثما لاتكون مرفوضة رمزياً فى موضع آخر غير محدد ؛ أما على المستوى الملموس واليومى ، فى مجال العلاقات الاجتماعية ، فقد ظل التقنيون قابعين بشكل تقليدى ، حتى الماضى القريب على الأقل ، خارج العملية الابداعية . ومن جهة أخرى أنتظم التقنيون — مهندسو الصوت والمصورون وغيرهم — فى تجمعات نقابية ثابتة وقوية ، تعمل على فرض احترام الظروف المادية المواتية لممارسة هذه المهن التى تحتل المرتبة الثانية بعد الابداع ، برغم انهم ليسوا مبدعين . وعلى النقيض من ذلك ، فان الرجال والنساء العاملين فى مجال الاتصالات اللاسلكية كانوا فى البداية مهندسين ولايزالون كذلك ، فبعضهم متخرج من أقسام الرياضيات التطبيقية ، والبعض الآخر متخصص فى مجال التقنيات المتقدمة مثل الكهرباء أو الألكترونيات . وسرعان ، ما وجد عدد من هؤلاء المهندسين نفسه منساقاً للتفكير فى طبيعة الرسائل التى يسهم فى نقلها . وقد انبثقت « نظرية الاعلام » الشهيرة التى وضعها شانون ، مباشرة من أبحاث استهدفت الحصول على أفضل نقل للرسائل ، ليس عن طريق تحسين خطوط

الاتصال المادية ، وانما عن طريق وضع الشفرة الملائمة التى تسمح بالقضاء ، على سبيل المثال ، على التشويش المستمر فى خلفية القنوات الناقلة .

وتناول هؤلاء المهندسون المعلومة والرسالة بعقلية أثرتها الثقافة العلمية . فكانوا همزة الوصل بين الرمز والاشارة والتشويش ، تلك الالفاظ التى يعبر كل منها عن سياق خاص به . لقد سيطرت على تعريفهم للمعلومة روح الإحكام (تحديد الكمية) ، التى سمحت لهم بالحصول على نتائج فعالة فى معالجة الرسالة وخطوط النقل . وكان رجال التليفونات هم مصدر الإلهام للمخطط ، الذى تم تعميمه فيما بعد على نطاق واسع ، الى حد أنه أصبح المرجع الذى يتم الاستناد اليه فى التمييز بين المرسل والمستقبل والقناة والرسالة فى عملية الاتصال .

ولكن ، سرعان ما أصبح مهندس الاتصالات اللاسلكية ، قبل كل شىء ، رجل الشبكة : وتلخصت المشاكل التى كان عليه أن يجد لها حلولاً من البداية فى مشاكل الحركة ، والوصلة ، وكل مايربط ، بصورة أو بأخرى ، نقطة بنقاط أخرى . ومن ثم كان تفكيره فى الرسالة ديناميكيا : أى أن الرسالة كانت بالنسبة له معلومة متحركة ، تنتقل ، تتبدل ، ثم تختفى . والشبكة ترتبط بالمنطقة ، ولكن بالمعنى الجغرافى السياسى والاجتماعى للكلمة هذه المرة .

فمن عهد « شاب » أصبح منفذو شبكات الاتصال يعرفون ماتريده السياسة . فهى تثرى مباشرة عمليات الترويج للمشروعات التى تبدو ، من حيث الظاهر، تقنية بحتة. وبينما تكون غاية العاملين فى وسائل الاعلام هى الاستقلال التام لأنشطتهم عن السلطة السياسية — الى حد أنهم يرون أنفسهم « سلطة رابعة » — فان الرجال والنساء العاملين فى مجال الاتصالات اللاسلكية يجدون صعوبة فى تحديد موقعهم بين السلطة السياسية ، اذا كان عملهم يدور فى إطار حكومى ، والسلطة الاقتصادية ، فى حالة حدوث عدم انضباط على سبيل المثال ، والمستهلك نفسه .

يشعر الرجال والنساء العاملون فى مجال الاتصالات اللاسلكية ، مثلهم كمثل العاملين فى جميع « الشبكات التقنية الكبرى » ، بقدر من التميز

الاجتماعى عن باقى التقنيين . وكما لاحظ « شانتال دو جورنى » ومن قبله « ج . ريبل » فقد كانت الامتيازات الاجتماعية الممنوحة لهؤلاء العاملين على اختلاف مستوياتهم الوظيفية ، والمساكن التى توفرها جهة العمل ، وصندوق المعاشات ، بما فى ذلك استقرارهم الوظيفى ، بمثابة « ضمان نظرى لفعالية هذا الاستثمار اجتماعياً وتقنياً». وهى خاصية سبقت عمليات تأميم الشبكات الكبرى (التليفون والكهرباء.. الخ) .

والعاملون فى مجال الحاسب الآلى ، هم أيضا مهندسون ، ولكنهم يتميزون جذرياً عن زملائهم من العاملين فى مجال الاتصالات اللاسلكية . وبرغم صعوبة العثور أحيانا على خصائص موحدة لأبناء مهنة تبدو وكأنها برزت سريعاً ، وهو مالايتوفر إلا بين المتخصصين فى مجال معدات الحاسب الآلى والمتخصصين فى برامجه . فان العاملين على الحاسب الآلى لايفتقرون الى الهموم والخصائص المشتركة .

وقد ركز المتخصصون الأوائل فى مجال الحاسب الآلى مجهوداتهم ــ كما رأينا ــ على تصميم ماكينة تستطيع القيام ببعض الوظائف الأساسية للمخ البشرى ، واجراء بعض الحسابات الرقمية فى البداية ، ثم معالجة المعلومات واتخاذ القرار ، باعتبارها بندا خاصا من بنود الحسابات . وسرعان ما أصبحت قضية العاملين على الحاسب الآلى هى كيفية تحويله الى شريك فعال فى الاتصال . وكان من أبرز سمات ثقافة العاملين فى هذا المجال ــ التى استقوها من تقليد يرجع الى أيام « ديكارت » ثم و « يتجنستاين » و « تورينج » ، مروراً « بليتيز » هى البحث عن البديهيات المعقولة ، والبرهان والطرح المنطقى ، وكذلك لغة عالمية . وفى هذا الإطار تهتم المعلوماتية عن قرب بالاجراءات التى تفسر وتحكم الابداع الثقافى . ثم جاء تحولها الطبيعى الى الذكاء الاصطناعى .

يبدو الالتزام الاجتماعى ــ وفقاً لمفهوم « الخدمة العامة » ــ لدى المتخصص فى مجال الحاسب الآلى أقل بكثير ظاهرياً من التزام زملائه فى مجال

وسائل الاعلام والاتصالات اللاسلكية . فعالمه المهنى أقرب لظروف الامتيازات المادية الصناعية ـــ الأجور العالية على وجه الخصوص ـــ من « الامتيازات الاجتماعية » ويحده التطلع الى الحيادية ، وكذلك الفكرة الداعية الى جعل الحاسب مجرد « أداة » فى خدمة أى غاية . بيد أن ذلك لم يمنع المعلوماتية من احتلال موقع متفرد فى المحيط الاجتماعى ولا البعض من وصفها بأنها المحرك « لثورة » حقيقية ، أو مركز « لثقافة تقنية » جديدة .

النموذج الرقمى الجديد .

من أهم التغييرات ، وربما هو أهمها على الإطلاق منذ قديم الأزل ، التى أثرت من الداخل على تقنيات الاتصال ، هو ظهور النموذج الرقمى والذى أصبح ممكنا بفضل الأيديولوجية الحديثة للاتصال . ونعنى بذلك اجتماع أربعة أبعاد ، فى تركيبة كلية متجانسة ، هذه الأبعاد هى : تقنية أساسية ، الكترونيات ، منهجية خاصة لمعالجة المعلومات آلياً ومنطقياً ، نظام متماسك ودولى لتمثيل العالم وأخيرا رهان استراتيجى واقتصادى . وترتبط قوة النموذج الرقمى بالتأكيد بالتآزر الذى يحدثه بين أبعاد برزت فى ذلك الحين فى عوالم التقنيات و السياسة والاقتصاد والفلسفة .

التقدم المذهل الذى تحقق فى عالم الألكترونيات معروف : وقد وصفنا بداياته التاريخية . ويفسر هذا التطور اكتشاف ظواهر انتقال الموجات الحاملة فى الجو ، وفى الفضاء ، ثم استخدام التيار الضعيف (المقابل للكهرباء كمصدر للطاقة) فى السيطرة على عمليات طاقية متزايدة . أما الألكترونيات فهى تسمح بنقل الاشارة وتوجيهها والسيطرة عليها وتضخيمها وضبطها .

ويمكن التمييز ، فى الاستخدامات المختلفة للألكترونيات ، بين وظيفة سلبية لنقل اشارة ـــ مثل حالة موجات الراديو ـــ ووظيفة ايجابية عندما تقوم الألكترونات بالسيطرة على عمليات أخرى ـــ مثل الجزء المعالج الدقيق الذى يدير جهاز الرد على المكالمات التليفونية . وتنبع أهمية الالكترونيات من كونها تقنية

تتمتع بالدقة والانضباط المطلق (ولذا فهى تستخدم حالياً بشكل أساسى فى قياس الوقت) وكونها فى الوقت نفسه أداة يمكن السيطرة عليها تماما، فالألكترون عند تشغيله يصبح خادماً يؤدى عدة مهام بدقة ونظام واخلاص وطاعة كاملة ، وهو يلعب أساسا دور رئيس العمال لمعظم المجالات التقنية الأخرى . ويدين التقدم الهائل الذى تحقق فى هذا المجال منذ ظهور الأنبوب ذى الفراغ وحتى الدوائر المكتملة فى يومنا هذا لبراعة الباحثين ـــ وللمساعدات المالية التى حصلوا عليها ـــ أكثر من المرونة الطبيعية المطلقة لعالم الالكترونات . ويمكن أن نرى فيه أثر التلاقى غير المألوف بين المهارة البشرية ومجال من مجالات الطبيعة يتمتع بالمرونة والطواعية .

وقد أقام علم الألكترونيات ، فى منتصف القرن تقريباً ، صلات مع منهجيات الحساب المنطقى ، مثل جبر « بول » أو خطوة التحليل اللوغاريتمى لحسابات « تورينج » . وقد نشأت هذه المنهجيات بمعزل عن الالكترونيات ، ويمكنها الاستغناء عنها ولكن قدراتها العملية حققت بفضلها تضخماً هائلاً . فقد كانت الألكترونيات وراء وضع الامكانيات المتاحة للمنهجيات الحسابية الجديدة ، والتى ظهرت فى القرن العشرين ، موضع التنفيذ على نطاق واسع . ويشمل هذا التصور الواسع ، فضلا عن الحساب ، كما يؤكد « بيير ليفى » « عمليات الفرز ، والتصنيف ، والتعديل ، والتنسيق ، والمقارنة والتبديل والترجمة من رمز لآخر » . ثم يتسع حتى يصبح « معالجة للمعلومة » بشرط الموافقة على جعل المعلومة كياناً حسابياً . وهنا يمكن الحديث عن المعلومة الرقمية عندما تستند الى دعامة ألكترونية ومنهجية حسابية بالمعنى الواسع الذى تناوله بيير ليفى .

إن امتداد الالكترونيات الى تقنيات الاتصال كافة لهو من الظواهر الهامة فى عصرنا الحديث . بيد أن النموذج الرقمى لم يقتصر ، كما كان الحال فى العادة ، على الظواهر الألكترونية وحدها . فهو أيضا جزء رئيسى من نظام قيمى ينص أساساً على أن مجموعة الظواهر الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية والبشرية تنبع من حساب منطقى ، وانها مادياً عبارة عن حساب منطقى . وقد شهد هذا الموقف

الفلسفى « الآلى الجديد » نجاحاً متزايداً ، وأصبح أحد العناصر المكونة لأيديولوجية الاتصال .

ويمكن تقدير تأثير « القيم » التى ينشرها النموذج الرقمى داخل تقنيات الاتصال بطرق مختلفة . على سبيل المثال ، فان المفهوم الاستدلالى التقليدى للمعلومة فى دنيا وسائل الاعلام بدأ يتأثر تدريجيا بظهور أيديولوجية « موضوعية المعلومة » التى تستند الى الأيديولوجية العلمية ، التى تقوم على عدة أسس من بينها عدم الأهلية الكرتيزية للحوار ، و« النظام القيمى الرقمى » الذى يعد التجسيد المعاصر للأيديولوجية . ومن المؤكد أن نموذج « الموضوعية » يحتفظ بجانب كبير من أهميته حينما يكون واقيا من تحريف الوقائع أو محاولات التضليل الاعلامى . ولكنه يصبح شديد الاشكالية اذا ما اتجه لاخضاع مقولات، نابعة من الجدلية وتعدد الرؤى أو الخيار بين قيم مختلفة، لشروط البلاغة البديهية أو الاستدلالية ، ونعنى بذلك المقولات الأساسية التى تشكل محتوى الاتصال الاجتماعى ، أو بشكل أعم ، تلك التى تتعلق بالحياة اليومية .

وثمة ملمح آخر يعكس الخاصية الاشكالية فى نظام القيم المرتبط بالتقنيات الرقمية يتمثل ، فى حالة نظم الحاسبات والاتصالات اللاسلكية ، فى الضغط العقلى الناشىء عن التفريعات المنطقية فى دخول بنوك المعلومات (حتى لو تعلق الأمر « بدليل ألكترونى » عادى) . ويكون الوصول الى المعطيات بالضرورة متسلسلا ، بينما يتميز العقل البشرى بالمدخل الشمولى . فلماذا تكون الأشياء هكذا ؟

هل يرجع ذلك الى عدم قدرتنا على تجاوز بعض القيود التقنية التى تجعل من الدخول المتسلسل أمراً اجبارياً ، أو لأن الدخول المتسلسل المنطقى يكون اختياريا ، ويكون متجانسا مع القيم الأساسية لعالم المبتكرين فى هذا المجال ؟ ان نجاح عائلة حاسبات الماكنتوش فى مجال المعلوماتية يرجع جزئياً الى أن مصمميها عدلوا عن هذا المدخل المتسلسل فى الحوارات بين الآلة ومستخدمها . ويسمح

هذا الاختيار بالبرهنة على أن « الالتزام بتوحيد الأنماط ووضع قواعد لها » الذى تحدث عنه مارتين آدرو والذى يعد من خصائص النموذج الرقمى ، ليس سوى تأكيد يمكن فيما بعد جعله نسبياً .

أما المشكلة الأساسية التى يطرحها تطور النموذج الرقمى فهى بلاشك « هذا الانقلاب فى التبعية بين اللغة والحساب » — حيث أصبح الثانى يميل الى الهيمنة على الأولى — والتى وصف بيير ليفى تطورها التاريخى .

ويقول لنا « ارتين آدر » إن الحاسوب يسمح لنا بتحويل المعلومات والمعارف الى أدوات وظيفية وهذا مايجعله ثورياً . وهذا أيضاً مايجعله مثار خلاف ، على الأقل بالنسبة لاستخدامه فى بعض قطاعات تقنيات الاتصال ، حيث تبرز مسألة تحديد ما اذا كانت اللغة يجب أن تتبع الحساب ، حتى لو إدعى الحساب انه يمثل اللغة .

وكيف يمكن تفسير — مهما كانت النتائج — الاختراق السريع من جانب النموذج الرقمى لتقنيات الاتصال ؟ يبدو واضحاً أنه بدون قوة الحجج القائلة بقرب قدوم مجتمع الاعلام ، أى بدون تطور الأشكال التى تمثل المجتمع وكأنه يجب أن ينتظم حول الاعلام والاتصال ، فان حجة فعالية الألكترونيات لم تكن تكفى وحدها . وقد أضيفت الى هذه الحجج التى تصف قدوم مجتمع الاعلام حجج أخرى تتعلق بالدور الاستراتيجى ، على صعيد اقتصادى وسياسى ، الذى تلعبه تقنيات الاتصال ، بشرط أن تحظى « بزيارة » النموذج الرقمى لها من جديد .

مراجع : M. ADER, 1984; J. ARSAC, 1987; P. BRETON, 1987c; C. de GOURNAY, 1987; P. LÉVY, 1987; T. ROSZAK, 1986; L. SFEZ, 1988.

٧ ـــ دعاية .. اتصال .. واستهلاك

سنرى أن الدعاية الحديثة بدأت تلعب دوراً متميزا فى نشر فكرة ضرورة تغذية المجتمع بتقنيات الاعلام والاتصال . كما أن ظهور الدعاية الحديثة لم يأت فقط فى اطار مجتمع يغير طرق انتاجه ، ولكنه واكب أيضا تطور الوسائل الألكترونية الجديدة لنشر الرسائل . ثم حدث تعاون ازداد وثوقاً يوما بعد يوم بين الظاهرتين ، حيث أسهمت الدعاية فى تمويل ونشر هذه الوسائل التى أصبحت ركائز متميزة . وعلى الخط الفاصل بين الجهاز التجارى وجهاز وسائل الاعلام تمكنت المؤسسة الدعائية، بواسطة دورها الثقافى اكثر من الاقتصادى ـــ حيث ظلت فعالية هذا الدور الأخير صعبة التقدير بدقة ـــ من أن تلعب دوراً أساسياً فى نشر أيديولوجية الاتصال . وكما لاحظ « ستيوارت ايوين » ، فيما يخص بدايات الدعاية فى العشرينات ، فإن « محاولات تطوير وسائل الاتصال الجماهيرية (....) ارتبطت بوضوح ببرنامج شامل يهدف الى تشكيل ثقافة لم تكن سوى رد هائل على الدعاية ، التى أصبحت هى نفسها النظام الأوحد للاتصال » .

وفى فترة مابين الحربين اجتاحت الرسائل الدعائية ، أكثر فأكثر ، الحياة اليومية لمواطنى المجتمعات الصناعية . وانبثقت الدعاية بشكلها الحديث من داخل حدود مجتمع يمر بأزمة ويبحث عن وسائل جديدة للسيطرة الاجتماعية على أنشطته

الانتاجية . وقد حالت أزمة ١٩٢٩ ــ التى امتدت آثارها قرابة عقد بأكمله ــ ثم الحرب العالمية الثانية ، دون تطور الدعاية الحديثة بالايقاع السريع الذى شهدته فيما بعد .

وفى نفس الوقت أتاحت الحرب ، فى أمريكا الشمالية على وجه الخصوص الفرصة أمام عدد من رجال الدعاية لتنظيم الحملات الوطنية الأولى للاقناع : حث الرجال على الانضمام الى الجيوش المحاربة ، دعوة النساء الى العمل فى الصناعات الحربية ، دعاية رامية الى جمع شمل الأمة حول أهداف الدولة ، دعاية مضادة للتنديد بخطب العدو ، الخ .

لقد كانت حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ إذن بمثابة حافز على اكتساب مهارات فى مجال تقنيات الاقناع التى اعتمدت على وسائل الاتصال الجماعية مثل الصحافة ، السينما والإذاعة . ومع نهاية الحرب شهدت الدعاية الحديثة انتشاراً هائلاً ، وأسهمت بالدرجة الأولى فى تنمية « المجتمع الاستهلاكى » ، بالتعاون مع وسائل الإعلام التى حققت قفزة هائلة .

أزمة السيطرة الاجتماعية ونشأة الدعاية الحديثة .

أجبرت الثورة الصناعية أصحاب المصانع الجديدة على جعل الحرفيين القدامى ــ العمال الجدد ــ يتخلون عن بعض القيم التقليدية التى يمكن أن تشكل عائقاً أمام ظروف الانتاج الجديدة . وتنازل هؤلاء بالفعل عن عاداتهم المعيشية التى كانت تحكمها أساساً الايقاعات الدورية والطبيعية لحركة الشمس والفصول ، ونبذوا جزئياً « حساسيتهم الريفية » من أجل التكيف مع الايقاعات الميكانيكية والمتكررة للانتاج فى المصانع ومع الأسلوب الجديد للنهج الصناعى . وساعدت المفاهيم الجديدة لتنظيم العمل ، ذلك التنظيم الذى وصف بأنه «علمى»، والتى صاغها فريدريك تايلور فى عام ١٨٨٠ ، على الفصل النهائى بين العمل الصناعى والعمل الحرفى التقليدى . ومن ثم وجد العمال الصناعيون أنفسهم مجردين من السيطرة على أعمالهم الخاصة .

وأدت هذه المفاهيم التى وضعها تايلور الى تشكيل وانتشار خطوط التجميع الأولى فى الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٤٠ وتجسد رمز هذه المرحلة الجديدة الصناعية ، بدون شك فى خط سيارات فورد . الذى أذن بظهور ما أطلق عليه فيما بعد « الفوردية » (نسبة لفورد) : وقد نجحت الرأسمالية — خلال بحثها عن شكل جديد للتنظيم الاجتماعى — فى إرساء هذا المنهج عن طريق وضع نظام جديد لرواتب العاملين . وقد سمح خط الانتاج الجديد برفع انتاجية مصانع فورد بوضوح . وتمثلت عبقرية الفلسفة الفوردية فى فهم أن رفع القدرة الشرائية للعاملين من شأنه وحده أن يزيد الى حد كبير من استهلاك المنتجات المصنعة ومن ثم المحافظة على المعدلات العالية للانتاج الصناعى وإتاحة الفرصة لتصريف الفوائض الاقتصادية . وفى الوقت الذى ظهرت فيه مطالب عمالية ضخمة بسبب الصراعات بين العمال الذين تكتلوا فى نقابات ، تساندها سياسات جديدة تهدف لتدخل الدولة من أجل استقرار الاقتصاد ، فإن مصانع فورد اتجهت لرفع رواتب العاملين فيها بمعدلات كبيرة ، مع تحديد ساعات العمل ومن ثم ارتفعت قدراتهم الشرائية وبدأت مرحلة الاستهلاك الكثيف .

وهنا تشكلت ملامح الدور الحاسم الذى سيلعبه الإعلان الحديث ووسائل الاعلام الجماهيرية فيما بعد . واذا كانت العملية البروليتارية قد انصبت أساساً — حتى ذلك الحين — على تنظيم وانضباط القوى العاملة فى مواقع الانتاج نفسها ، فقد أرغمت المرحلة الفوردية « أرباب الصناعة » على توسيع نطاق السيطرة الاجتماعية ليشمل كافة جوانب الحياة ، بما فى ذلك طبعاً الحياة اليومية للعمال خارج مصانعهم . وتم بذلك إرساء نوع من « الرأسمالية الاجتماعية » التى تفترض إضفاء المعقولية على جميع نواحى الحياة للعاملين : وهذا هو السياق الذى طرح فيه على العمال الأمريكيين — على سبيل المثال — تلقى دروس فى اللغة والوطنية ، وتم فيه تجهيز ملاعب لابناء العمال . وفى أوروبا تم فى ذلك الوقت انشاء المساكن الشعبية وأوليات المدن العمالية . وأصبح الرأسماليون « أرباب الضمير » كما اسماهم (ستيوارث ايوين) يسعون ، باستخدام تقنيات اعلانية

للاقناع ، الى ايجاد مستهلكين (جان بودريار) . وافترصت الأشكال الجديدة للسيطرة الاجتماعية أن يتم توجيه آليات التنظيم التى كانت مقصورة حتى ذلك الوقت على عالم الانتاج الى ساحة أكثر اتساعاً ألا وهى الاستهلاك . ومن ثم ستكون مهمة الاعلانات الحديثة هى تهيئة العمال ثقافياً وأيديولوجياً لاعتناق قيم النظام الجديد للاستهلاك الكثيف ، مما سيضمن تصريفا مستمرا للفوائض الاقتصادية التى يمكن أن تترتب على القدرة الكبيرة على الانتاج فى النظام الاقتصادى .

وعلاوة على هذا البعد الاقتصادى ، فقد لعب الإعلان فى الولايات المتحدة الأمريكية دوراً فى الانسجام الاجتماعى ، وساهم الى حد كبير فى التغير العميق الذى طرأ على المناخ الثقافى فى أمريكا مابين الحربين ، هذا التغير الذى استمرت آثاره فى المدى الطويل . والتحليل الذى يطرحه ستيوارت ايوين لبدايات الإعلان يبرز التحول الهام فى القيم الذى ترتب على ظهوره . فقد اختفت قيمة امتداح العمل والانتاج التى كانت عزيزة على نفوس المتزمتين من مؤسسى نيو ــ انجلند ، لتحل محلها قيمة الانفاق والاستهلاك . ولكن الثقافة الجديدة استندت أيضا ــ وبحميمية أكبر ــ الى بعض النظريات مثل نظرية آلبورت التى كانت تعلى الأنا الاجتماعية وقيمة الضمير على اعتبار انه « يعكس أساساً مايراه الآخرون فينا » . وكان أحد الموضوعات الشائعة فى الإعلان فى العشرينات هو « العيب الشخصى الذى يمكن أن يساعد الاستهلاك على اصلاحه » فى مجال الصحة على سبيل المثال .

ومن ثم ، كان يتم من خلال المنافذ الإعلانية طرح صورة على الناس عن ذواتهم حيث يرون جميعاً أنفسهم قادرين على حل مشاكلهم المعيشية بفضل المنتجات المطروحة عليهم . وكانت هذه الطريقة أيضا ــ وان لم تكن أقل نتائجها ــ أحد سبل تحقيق الوحدة الوطنية عن طريق طرح صورة اجتماعية على المهاجرين ، ذوى الجذور المختلفة والذين كانوا يفدون فى ذلك الوقت بأعداد كبيرة ، للفرد النموذجى ، وهو نموذج موحد على مستوى البلد بأكمله . ومن ثم

يكون الاعلان قد تأصل كنظام حقيقى للاتصال ، يوفر بشكل شامل الوسيلة والرسالة ، مما مهد الأرض للحركات الايديولوجية الكبرى التى سارت بعد ذلك على نهج الاستهلاك وأيضا الاتصال .

الأثر الثقافى للإعلان

لقد أصبح الإعلان اذن من الآليات الضرورية لسير وتطور مجتمعات اقتصاد السوق الرأسمالية . واليوم لم تعد المشكلة هى الانتاج وانما البيع لتحقيق دورة تصريف مستمرة للبضائع وتجنب أى ركود اقتصادى . وأصبح الاعلان ، بانضمامه الى اشكالية تسويق المؤسسات ، إحدى الآليات الأساسية فى تنظيم إنتاج الطلب و « الاحتياجات » التى ينبغى تلبيتها بواسطة الاستهلاك . وثمة جدل دائر حول فكرة « انتاج الاحتياجات » هذه عن طريق الإعلان سنعود إليه فيما بعد . ولكن يجب التذكير من الآن بأن الخطاب الاعلانى لايتألف فقط من معلومات موضوعية عن المنتجات التى يبيعها . فالمسألة لاتتعلق بخطاب اعلامى فى الأساس يتوجه الى المستهلكين لمساعدتهم على اتخاذ قرارات شرائية بكل وضوح وعقلانية ، وفقاً للاحتياجات التى ربما استشعروها مسبقاً . هذه الأسطورة القديمة فى التفكير الليبرالى فات أوانها منذ زمن بعيد ــ لقد اعتمد السلوك الاستهلاكى على المواءمة بين عملية الاتصال الاجتماعى المعقدة فى رجع صداها والقوى اللاواعية فى خيال الفرد ، بنفس الدرجة ، إن لم يكن أكثر من مواءمتها للعقلانية الظاهرة لدى هؤلاء الأفراد .

وإزاء تعدد المنتجات المتشابهة لتلبية نفس « الحاجة » ، يصبح الدور الرئيسى للإعلان هو التمييز بين هذه المنتجات . وكانت العادة قد جرت على وصف وظيفة الإعلان على اعتبار انها مرتبطة أساساً بتقديم « صورة » معينة لمنتج بذاته ، أو ماركة ، أو بعض خصائص المستهلك المتعلقة بهذا المنتج .. الخ .

إلا أن الأبحاث الحديثة التى أجراها « انطوان هينيون » و « سيسيل ميديل » واعتمدوا فيها على ملاحظات عرقية لممارسات اعلانية ، تثبت أن مصممى الإعلانات فى وقتنا هذا لا يميلون الى التفرقة بين « المنتج » و « صورته » . ويصبح من المستحيل التفرقة بين الخصائص التقنية للمنتج وسماته المميزة « لأن كل شىء من التسويق الى التجهيز مروراً بالاختبارات ، وقياس المنافسة والتعبئة الداخلية للمؤسسة ، يعمل وفقاً لازدواجية موضوعية : فهو شىء ، ولكن لمن » . فالشىء المراد بيعه لايعد اذن — بالنسبة لنقطة منشأه (مصنعه) — « منتجاً نهائياً » ولايبقى أمام مصمم اعلاناته إلا أن يرسم له هالة موحية وانما هو جنين يستطيع كل متخصص فى العملية الاعلانية تشكيله وفقاً لاستراتيجيات التسويق والاعلان الرائجة . ويمكن تعديل الاسم والشكل وخصائص المُنتج فى أى مرحلة من مراحل العملية التى يستخدمها رجال الاعلان لكى يجعلوا منه « شيئا مرغوباً » بالنسبة لفئات المستهلكين المحتملين .

وفى النهاية ، يصبح هذا التأثير على المستهلك ، المترتب على قرار تحديد جودة وكمية المنتج الذى اتخذته الشركة الأم ، أكثر من مجرد عملية اقتصادية لأنه أصبح يتعلق بقيم ومعتقدات الفرد . ومن أجل اعطاء صور عن الرفاهية ، تقترح الاعلانات أساليب معيشية على الأفراد ، يربط بينها التزامها بما اسماه « هنرى لوفيفر » ايديولوجية الاستهلاك . وتشجع الاعلانات قيماً ومعايير وموضوعات أساسية تنزع « للتجسد فى الحياة الواقعية » (ادجار مورين) . ويرى بعض النقاد أن هذه الدعوة الاعلانية الخيالية الى سعادة مؤقتة و« استهلاكية » قد تجعل الأفراد ينسون ظروفهم المعيشية الصعبة وهى طريقة ماهرة — فى رأى ماركوس — تجعل الأفراد يتقبلون عن طريق مبدأ الاستمتاع — فالخيال محصن ضد التقلبات الحضارية — الظروف القاسية لمعيشة ترك الواقع بصماته عليها .

وقد اقترح عدة كتاب (أمثال ماركوس ستيف وكاديه وكاتلاه) التمييز ، فى تاريخ تقنيات الاقناع ، بين ثلاثة أنواع من الاستراتيجيات التى استخدمها رجال الاعلان : النوع الأول يخاطب ذكاء العميل وعقله فيقدم له اعلانا اعلامياً .

والنوع الثانى يخاطب المناطق اللاارادية ويسعى للتأثير فى الخيال بدلا من الاقناع العقلانى (تقنية الشعار والتكرار) فيقدم اعلانا آليا . والنوع الثالث اكثر عمقا لأنه يخاطب العقل الباطن لدى المستهلك فيقدم له اعلانا ايحائياً .

من المؤكد أن هذه الأنواع الثلاث تستخدم معاً فى الاعلانات العصرية ، ولكن هذه الاعلانات تفضل الاستراتيجيات الايحائية الموجهة الى قطاعات محددة من العملاء (الانتقاء الضيق) من خلال الاستخدام المتزامن لعدة وسائل .

ان طبيعة التأثير الثقافى للخطاب الاعلانى تتغير تبعاً لنوع الاستراتيجية المستخدمة . ففى حالة الاعلان الإعلامى البحت ، وهو غير موجود تقريباً فى أيامنا هذه ، نجده لايشير الى مستوى معيشى أو قيم خارجة على المنتَج المعلن عنه . أما الاعلان الآلى ، فيضع فى اعتباره أن جزءاً من دوافع السلوك الاقتصادى ليس « عقلانيا » ومن ثم يمكن تكييفه سيكولوجياً ، حيث تستطيع التقنيات التكرارية خلق « الحاجة » الى سلوكيات جديدة . لكن استخدام أحدث اكتشافات علم النفس الاجتماعى فى مجال الاستهلاك ، والتحليل النفسى فى بناء الاستراتيجيات الايحائية ، هو الذى يجعل التأثير الثقافى للاعلان حاسماً.

ان دوافع الشراء تعتمد اذن على الأحاسيس والعقل الباطن . فالخطاب الاعلانى يربط ضمنياً بين الرغبات اللاواعية للمستهلكين المحتملين وبين خصائص المنتجات المراد بيعها . ومن خلال السلعة المعروضة ، يشترى المستهلك صورة معينة فى خياله ويعيش ، أيضا فى الخيال ، بالأسلوب الذى يتفق ورغباته، يقول «هينيون و ميدل» ماذا يحرك رغباتنا ؟ ليست رؤية شىء غريب ، وانما رؤية شىء يحتوينا لاننا كناقد امتزجنا به منذ انتاجه بواسطة آلاف التقنيات ، وأن نصبح نحن أنفسنا محصلة عدة أشياء وجدنا أنفسنا من خلالها » .

فالاعلان ليس اذن مجرد تقنية تجارية تهدف ، من خلال استثاراتها الآلية والايحائية ، الى جعل عملية شراء سلع وخدمات معينة ضرورية لبعض الأشخاص . وانما هو منتج ذو طبيعة اجتماعية وثقافية ، وجزء من فولكور الحداثة فى عصرنا ، وملمح من ملامح « الثقافة التجميعية » التى تعشش فى خيال

الانسان المعاصر ، وعنصر محرك ومؤسس « للثقافة الجماهيرية » . لذا يتعين إلقاء نظرة نقدية على هذا العالم الاعلانى الذى يعبر عن نفسه فى « لغة مألوفة لنا ولكننا لانعرفها » (ماكلوهان) . والعلاقات بين الاعلان والمجتمع جدلية ومركبة ، حيث يمكن تحليل محتويات الخطاب الاعلانى كانعكاس جزئى للمجتمع الذى يفرزه ، ولكنه أيضا مصدر تأثير محتمل على القوالب والصور المتداولة بين الأفراد . حيث أن القيم التى يطرحها الاعلان تكون فى معظمها قيم « ثقافة الجماعة » ، ويمكن أن نتوقع أن نجد فيها مواقف مقولبة فرضتها غالبية الجماعة ومن ثم تكون متطابقة .

وقد استنتج « لازار سفيلد » و « ميرتون » أن طبيعة الغاية الإعلانية نفسها تدفع الى « المحافظة » ومقاومة أى تغييرات يمكن أن تتعارض مع الأمر الواقع . فالإعلان يرتبط بصلات وثيقة مع المجتمع الذى يفرزه : وهو يمارس تأثيراً ثقافيا على المجتمع ، وفى الوقت ذاته يضع هذا المجتمع حدوداً ثقافية على التعبير فى الخطاب الإعلانى . ويمكن أن يعد الإعلان أيضا ـــ باعتباره انعكاسا للثقافة المحيطة به ـــ « عنصراً ديناميكياً من عناصر تطور هذه الثقافة عن طريق تأثيره الإيحائى » .

ومن ثم فان الرسائل الاعلانية التى تحتوى على شكل من اشكال التقليدية تطرح أيضا شيئاً جديداً على الأفراد . وكما يقول « كاديه » و « كاتولا » فان ديناميكية العلاقة بين الاعلان والمجتمع تكمن فى عدم تطابق الصورتين : الصورة التى يطرحها الاعلان على الأفراد ، وصورة هؤلاء الأفراد عن أنفسهم :

التجديد : إذا احتوت الرسالة الاعلانية على عناصر غير مطابقة للصورة التى يراها الأفراد فى أنفسهم ، فان تتبنى هذه الرسالة يمكن أن يحدث بعض التحول (مثال : فى الستينات فى مدينة كويبك أسهمت بعض الإعلانات التى كانت تحتوى على رموز للأيديولوجية الوطنية فى ظهور الحركة الاجتماعية القومية) .

التقليدية : إذا كانت الصورة الاعلانية مطابقة تماماً للصورة التى يراها الأفراد فى أنفسهم ، فان هذه الصورة الأخيرة تترسخ . (مثال: ان الإعلان الذى

يحتوى على قوالب جنسية يعزز الوضع الاجتماعى الراهن فى غير صالح المرأة) .

الحدث الإعلانى عند الحد الفاصل بين التجارة ووسائل الاعلام

يشكل الإعلان علاقة اتصالية عامة ومتميزة بين المؤسسات المنتجة للسلع أو الخدمات وبين جمهورها المستهلك . والوسائل الإعلانية لاتكف عن النمو فى العدد والنوع ، من « الاعلان التحريرى » — حيث يحتجب الخطاب الإعلانى بصورة أو بأخرى وراء نص مكتوب فى صورة تحقيق صحفى — الى الاستراتيجيات « اللاواعية » — حيث تنتقل بعض الرسائل الإعلانية بطريقة لاواعية ، أى من وراء عتبة الادراك الواعى للأشخاص المستقبلين . وترتبط الأهمية المتنامية للاعلان بنزع الصبغة الشخصية عن العلاقة التجارية بين المنتج والمستهلك .

ففى المجتمعات الحرفية التقليدية ، كان المنتج على اتصال مباشر بالمستهلك : وكانت العلاقات الشخصية تلعب دوراً أساسياً فى عملية البيع . لكن أسواق الانتاج الصناعى الأكثر اتساعا من الناحية الجغرافية غيرت هذه الظروف : فاختفت الاتصالات المباشرة ، وتلاشى التأثير الشخصى للمنتج وأدى انتاج سلعة موحدة بكميات كبيرة الى استهلاك جماهيرى نمطى وغير شخصى . لذا لجأت المؤسسات التجارية الى تقنيات الاقناع النفسى ووسائل النشر الحديثة فى محاولة لحث أكبر عدد ممكن من الجمهور المحتمل على شراء سلعها وخدماتها، ونشأ تعاون وثيق بين الإعلان ووسائل الإعلام الجماهيرية ، فمن ناحية أصبحت الاستثمارات الإعلانية تشكل الدعم الاقتصادى الرئيسى لنظام التوزيع ، وهى تلعب الآن دوراً حاسماً ومؤثراً فى تطور وسائل الإعلام نفسها ، وقد حدث هذا فى الولايات المتحدة منذ زمن بعيد ، ويتأكد الآن فى فرنسا مع بيع قنوات التليفزيون للقطاع الخاص . ومن ناحية أخرى — كما يؤكد جاك دوجيز — فإن الإعلان الحديث أضاف الى علاقة الاتصال البدائية (...) نظاماً آخر للعلاقات باع فيه المذيع الجمهور الى أحد المتضامنين معه ومن ثم أصبح الجمهور

والمضمون الذى تبثه وسائل الاعلام ، بمثابة بضائع : ويتم « استهلاك » الرسائل المذاعة بواسطة جمهور المتلقين بالطبع ، لكن العلاقة التجارية التى نشأت بين المرسل والمذيع أصبحت لها الأولوية والسيادة مقارنة بالعلاقة الاتصالية بين المرسلين والمستقبلين . وهنا يبدو المضمون الإعلامى كما لو كان حقيقة ذات وجهين : فهو بضاعة ودلالة بالنسبة لمستمع يُنظر اليه هو ذاته على اعتبار انه بضاعة فى سياق تجارى يشمل حقيقة الاتصال الإعلامى ويستحوز عليها .

ويعد الإعلان اليوم بمثابة مجموعة فرعية فى عملية تجارية أكثر اتساعا هى « التسويق » تستهدف فقط تصريف بضاعة منتجة أو قيد الانتاج . وقد أسهمت ثلاثة عناصر بشكل خاص فى تطور الدور التسويقى داخل المؤسسات الكبرى : أ) الارتفاع التدريجى لمستوى دخول المستهلكين فى فترة مابعد الحرب مما أدى الى زيادة الحجم الاجمالى لعمليات الشراء . ب) ساعدت وسائل الاعلام بأهميتها المتنامية على ظهور أذواق ورغبات جديدة لدى المستهلكين لم تكن معروفة أو لم تكن تجد سبيلاً للتعبير عنها حتى ذلك الحين . ج) اضطرت المؤسسات أمام الفوائض فى حجم الانتاج وتراكم الزيادات فى السلع المنتجة الى اعطاء الأولوية لعمليات الترويج . وانطلاقاً من دراسات السوق ، فان ادارة التسويق فى الشركات تكون مضطرة لوضع سياسة فورية « لتنشيط المبيعات » (تستهدف التأثير على ممثلى الشركة أنفسهم وبائعيها) وسياسة للعلاقات العامة (تسعى الى إعطاء صورة ايجابية عن الشركة لقطاع أكبر من الجمهور) وسياسة إعلانية موجهة للجمهور المستهدف من المستهلكين المحتملين . وقد أدت هذه الانشطة التسويقية التى لها الأولوية الى تعاظم رغبة المؤسسة فى السيطرة على الانتاج وتوجيهه . وقد أسهمت عمليات التسويق هذه ، بتوطيدها للعلاقات الاتصالية بين المؤسسة والبيئة المحيطة بها ، فى زيادة الهيمنة الاقتصادية للمعلنين داخل منظومة الانتاج فى النهاية .

مجادلات حول الظاهرة الإعلانية .

ظل الإعلان الحديث ، بصفة مستمرة ، موضوعاً لكثير من الجدل واتخاذ مواقف متباينة من جانب أولئك الذين ينفذونه ، أو يراقبونه أو ينتقدونه . ونود هنا أن نعرض الحجج الأساسية لهؤلاء وأولئك ، سواء مؤيدى الاعلان أو منتقديه .

على الصعيد الاقتصادى يرى مؤيدو الإعلان أنه مفيد وضرورى للتنمية . ومن ثم يقول أنصاره : ١) أنه على أى حال أفضل وسيلة لتصريف البضائع المنتجة . ٢) أن الإعلان باسهامه فى زيادة الاستهلاك ومن ثم الانتاج ، يسمح بتخفيض الأسعار . ٣) أن الإعلان يدعم وسائل الإعلام ماليا (على سبيل المثال كافة تكاليف الراديو والتليفزيون التجاريين فى الولايات المتحدة) . ٤) يشجع الديناميكية اللازمة لاقتصاد تنافسى . ٥) يساعد على توسيع الأسواق مما يؤدى الى مزيد من الإنتاج . ٦) يسهم من خلال زيادة الإنتاج فى خلق فرص عمل جديدة .

ويقول النقاد رداً على هذه المجموعة من المواقف على الصعيد الاقتصادى : أولا : يشجع الإعلان على الإسراف لأنه يخلق منافسة مصطنعة بين المؤسسات تقوم على مسائل ثانوية . ثانيا : تمثل تكاليف الإعلان جزءاً كبيراً جداً من سعر السلع التى يروجها . ثالثاً : يؤدى الاعلان الى استخدام غير ذى فاعلية أو فائدة لبعض مواردنا الاقتصادية على حساب احتياجات اجتماعية أكثر أهمية يمكن تلبيتها . رابعاً : يشكل الاعلان عبئاً على تكلفة السلعة . خامسا : يخلق الاعلان لدى الأفراد احتياجات مصطنعة : « فالاسترخاء والتسلية والتصرف والاستهلاك وفقاً للاعلانات ، والاقبال على مايحبه الآخرون والابتعاد عما يكرهونه ، ليست فى معظمها سوى احتياجات زائفة « ماركوس » .

ومن وجهة النظر الاجتماعية ، يؤكد رجال الإعلان أن الرسائل الإعلانية تدخل الحياة اليومية للعدد الأكبر من الناس ، متجاوزة بذلك ، عند مستوى وهمى ، الفروق الاجتماعية . ولكن النقاد يردون على هذا الرأى قائلين أن مظاهر

عدم المساواة ، فى الحياة الملموسة ، تتزايد على العكس : واذا كان الإعلان يلعب دوراً توحيدياً ، فهو على الأرجح دور خاص بتشجيع الانضمام الى تبعيةاجتماعية ، ويتهم النقاد المدافعون عن الحركة النسائية الاعلان بالتفرقة الجنسية لأنه يصور النساء فى معظم الأحيان وكأنهن أدوات مظهرية أو على العكس يقدمهن فى قوالب منزلية : ويشارك الإعلان بذلك فى النظام الاجتماعى الراهن الذى يميل الى التقليل من شأن المرأة .

وفيما يتعلق بالبعد الاتصالى فى الإعلان ، فان مؤيديه يؤكدون على بعض الأمور مثل : ١) إن الرسالة الإعلانية هى وسيلة اعلامية متميزة : فهى تسمح بتقديم المعلومة اللازمة للمشترى لكى يختار بحكمة بين المنتجات المختلفة . ٢) يساهم الإعلان فى تجميل الحياة اليومية وعدة أشياء نفعية . ٣) يساعد الإعلان على تنمية روح الدعابة فى الحياة اليومية : وهذا ما جعل ثلث مشاهدى التليفزيون الأمريكيين يقدرون الإعلان لأنه يرفه عنهم . ٤) بغض النظر عن عملية الاقناع الناتجة عنه فان قرار الشراء فى النهاية يرجع الى المشترى وحده : فهو كائن حر يتصرف كما يشاء إزاء عروض الإعلانات والسوق . ويرد النقاد على هذه الحجج قائلين : ١) فقد الإعلان الوظيفة الإعلامية التى إدعى فى البداية انه يضطلع بها ، لصالح وظيفة الحث والمناورة . ٢) الإعلان بعيد تماماً عن مسألة اقتصاره على نقل مضامين « رفيعة الذوق » (جمالية) أو مليئة بالدعابة . ٣) التقنيات الحديثة فى الاقناع ، التى تكون أحيانا شديدة المهارة ، تجعل الأفراد يتوهمون أنهم يتصرفون بتلقائية رغم انهم لايتمتعون إلا بحرية زائفة . ويقول الفيلسوف رافل فى هذا الصدد « يكمن جوهر الاقناع الخفى فى جعل الفرد يتخذ قراره فى نفس اللحظة التى يشعر فيها بتأكيد شخصيته الى أقصى حد ممكن » .

ويبدو الإعلان ، وسط هذه الخلافات والمجادلات ، بمثابة أداة استدلال فى النقاش الأيديولوجى بين مفاهيم متصارعة فى « مجتمع سليم » : وتكون الحقيقة الأساسية فى الظاهرة الإعلانية وامتدادها غير قابلة للاختراق فى مثل هذا النقاش . ويتعلق الأمر هنا بالتأكيد — كما يشير ليس — بوسيلة ملتوية وغير فعالة فى

مواصلة المناقشات الايديولوجية حول توجه المجتمع .

نظريات الاحتياجات وفاعلية الإعلان

من ثم فإن مؤيدى الإعلان ومعارضيه يشيرون ضمنياً الى كون الإعلان مقنعاً ، سواء باللجوء الى حجج منطقية تماما أو استخدام تقنيات المناورة . ولكن عدد كبير من الدراسات لم يؤيد ذلك جيث شكك فى المقدرة الحقيقية للرسائل الإعلانية على تعديل المواقف والسلوك . وقد قام ماركوس ستيف ، فى مقال نشر عام ١٩٦٩ ، وكثيرا ما يشار اليه ، بتجميع بعض الأعمال التى تعقد مقارنة بين الاستثمار الاعلانى وأثره على المبيعات ، وكيف أن هذه الابحاث لاتعترف بوجود صلة بين الاعلان وآثاره على « المعارف والمواقف والسلوك (أى عمليات الشراء) . وينبغى أن نستنتج من ذلك أن الإعلان ، فيما يبدو ، نادراً ما يكون فعالا بالقدر الذى يحاول المعلنون اقناع الجمهور به « فلنحاول اذن أن نحلل عن قرب التأكيدات والاستنتاجات المتعلقة بهذه المسألة » .

لقد رأينا أن الرؤية الاقتصادية التقليدية تضفى على الإعلان دوراً إعلامياً خالصا : تبصير المستهلك الذى يملك القدرة الكاملة على الاختيار العقلانى بين عدة منتجات معروضة عليه . وفى عام ١٩٢٠ ، ندد الفريد مارشال الذى كان يفرق بين الاعلان « البناء » ، والإعلان « المجاهد » — بالنوع الثانى على اعتبار انه وسيلة «للتلاعب» — وسيطرت هذه الطريقة فى الحديث عن الاعلان على كتابات معظم الاقتصاديين المحترفين حتى نهاية الستينات ، وكانت تشكل الخاصية الرئيسية فى « إقتصاد الرفاهية المزعوم » حسب تعبيرات « باران » و« سويزى » بل لقد استمرت بعض النظريات الحدية والحدية الجديدة فى الادعاء بأن كل مستهلك لديه منظومة قيم تسمح له بأن يحدد بعقلانية ووضوح أى السلعتين يمكن أن تحقق له أقصى قدر من الاشباع .

بيد أن مدخلاً اقتصاديا جديداً يحاول منذ بعض الوقت تجاوز هذه الرؤية الأولية المقيدة للغاية ، وذلك بدمج اكتشافات علم النفس الاجتماعى وعلم نفس

الاستهلاك ، وبالانفتاح على نتائج أبحاث عديدة فى علم الدلالات والتحليل النفسى تركز على أهمية خصائص المستهلك باعتباره « شخص راغب » ، وكما أدخلت الرؤى الاقتصادية الجديدة فى نماذجها عدة عناصر على التوالى مثل « الدوافع » و « القدرة على الاختيار » لدى الشخص ، و « قدرته على المقاومة و الإعراض » عن السلع المعروضة ، ورغبته فى الخضوع للاغراء ، و «بيئته الاجتماعية والثقافية » و « أسلوب حياته » الخ . كعناصر حاسمة فى قرار الشراء . وشيئا فشيء أصبح النظر بعين الاعتبار الى النماذج الاجتماعية والثقافية المكونة لاحتياجات المستهلكين التى أصبح يسهل اختراقها بواسطة عمليات الاقناع يشكل جزءاً لايتجزأ من الرؤى الاقتصادية : ولم تعد « الاحتياجات » تبدو كمعطيات ثابتة وانما « كتركيبات » اجتماعية وثقافية .

وقد أشارت كتابات النقاد بالتحديد الى فكرة تكييف الاحتياجات هذه : فالمستهلك لم يعد حراً فى الاختيار ، حيث فرض عليه الاعلان نظاماً للاختيار وفقاً لاحتياجات « تم خلقها بشكل اصطناعى » . وحققت هذه الفرضية بالذات انتشاراً واسع النطاق فى الستينات على يد الكاتب « فانس باكار » : الذى قال ان التجار ورجال الإعلان يمكن أن يصمموابطارية من التقنيات التجارية الدقيقة للتأثير على المستهلكين باستخدام الدوافع اللاشعورية ، والتعجيل بالاحساس النفسى بانقضاء زمن الأشياء عن طريق إضفاء قيمة على الاحتياجات الوقتية ، وتسهيل اعتيادات الشراء ، الخ . وقد تحدث ماركوس من جانبه عن موضوع الاستعمار الايديولوجى للأفراد بواسطة وسائل الاعلام والإعلان الى حد أن الجماهير فقدت وعيها بما يمكن أن يكون « احتياجات حقيقية » . كما تشكل كتابات عالم الاقتصاد ج ك . جالبريث عن انتاج الطلب بواسطة الإعلان الذى يخلق « احتياجات مصطنعة » أحد جوانب هذه الرؤية الانتقادية للاعلان .

وقد ندد « جان بودريار » بشدة بهذه المفاهيم الانتقادية القائمة على نظرية التأثير عن طريق تكييف الاحتياجات ليس بهدف ارساء فكرة « الاختيار الحر »

وسيادة المستهلك ، وانما بغرض التأكيد على دقة عملية التكييف . وتتفق التحليلات الاقتصادية التقليدية أو « المعدلة » والتحليلات الانتقادية فى أنها كلها مستوحاة من نظرية الاحتياجات نفسها . وتتفق هذه التحليلات المتناقضة على وصف عالم الاحتياجات بشكل احصائى : فكل حاجة يجب أن تشبع بنوع محدد من الأشياء . ويفضل بودريار ، من جانبه ، الحديث عن الميكانيزم الإعلانى « باعتباره منتج رموز مميِّزة » فى نظام يشعر أفراده بحاجة اجتماعية الى التميز لا يتمكنون من اشباعها .

المواقع الإعلانية الجديدة

أيا كانت النتيجة التى نتوصل اليها فيما يتعلق بفاعلية الاعلان ، يجب أن نسجل أنه أصبح يتأكد ويتدخل فى مجالات متزايدة ، من الحملات الانتخابية والسياسية الى التسويق الاجتماعى والترويج للقضايا الاجتماعية والانسانية ، ولاحاجة الى التعليق المطول على التحول الذى طرأ على الحياة السياسية بسبب اللجوء الى الوسائل الإعلانية ، لشدة ما أصبحت هذه التحولات فى الأخلاق السياسية معروفة وغالباً مذمومة . وفى المجتمعات الليبرالية أصبحت السلطة الآن تستمد شرعيتها من فصاحة وسائل الإعلام : وصارت القدرة على التواصل بواسطة وسائل الإعلام شرطاً لازماً للنجاح فى السياسة . وأدت الأهمية التى اكتسبتها استطلاعات الرأى والاعلان فى رسم صورة الشخصيات العامة ، الى إضفاء مزيد من القيمة على العلاقات الاتصالية وذلك على حساب المضامين التى يتم تداولها . الى حد أن ما يقوله المرشح فى حملة انتخابية لايهم ، والأهم أن يبدو فى نظر الآخرين راغبا فى الاتصال والأفضل أن يكون هذا الاتصال فى صورة حوارات شخصية وودية وتؤكد الدعاية السياسية هنا وبطريقة مذهلة مدى الانتشار الاجتماعى لايديولوجية الاتصال التى أصبحت لها السيادة .

ولنتوقف قليلا ، قبل أن نختتم حديثنا ، عند هذه الظاهرة الجديدة فى التسويق الاجتماعى التى تقوم على الدعاية لقضايا توصف بأنها اجتماعية أو

انسانية ، فضلاً عن وضع بعض الشركات الكبرى فى صورة متميزة ، وكذلك الدعاية لجماعات الضغط ، والأحزاب السياسية أو الوزارات الحكومية . ويمثل هذا النوع من الحملات ، الذى يزداد شعبية فى أمريكا الشمالية وأوروبا ، أحد الاتجاهات المستقبلية الواعدة للدعاية الحديثة . فاذا وضعنا فى الاعتبار أن رجال الدعاية والإعلان يساهموا ، أحياناً دون مقابل ، فى الترويج لقضايا اجتماعية أو انسانية ، مثل مكافحة الاجرام أو التفرقة بين الجنسين أو إدمان الخمور أو التدخين ، وأيضا الحث على تقديم المساعدات والهبات الخيرية للمحتاجين أو لدول العالم الثالث، نجدهم بذلك يفتحون لأنفسهم أسواقاً جديدة . فالخبرات التى يكتسبونها فى هذه المجالات « الانسانية » يمكن نقلها بسهولة الى مجالات مجزية للغاية فى الدعاية السياسية أو الحكومية .

وبينما ظلت النغمة السائدة لفترة طويلة أن مايميز الدعاية عن الإعلان هو أن هذا الأخير يروج لسلع تجارية ، فها قد جاء رجال الاعلان الآن ليؤكدوا قدرتهم على الترويج لرسائل ذات طبيعة أيديولوجية ... وسارت الأمور كما لو كان الإعلان قد نجح تماما فى احتواء وظيفة الدعاية ، وكما لو كان الترويج لقيم انسانية جديدة قد تم اكتشافه تماماً من جانب الخطاب الاعلانى الذى تفجر بقوة ، وذلك فى مجتمع يصفه البعض « بما بعد الحداثة » . وبرغم ادعاءات رجال الإعلان الضالعين فى الترويج لقضايا انسانية « بأنها غير مجزية » ، فيجب أن نستنتج أنهم لم يبتعدوا مع ذلك كثيراً عن المنطق الاستهلاكى : فهل هذا يعنى اننا فى طريقنا لأن نصبح تحت تأثير أيديولوجية الاتصال وفى ظل اللامبالاة العامة ، مجتمعاً يبالغ فى نعاطى القضايا الانسانية ؟ .

مراجع : J. Backman, 1968; P.A. Baran et P.B. Sweezy, 1968; J. Baudrillard, 1972; C. Bonnange et C. Thomas, 1987;

A. CADET et B. CATHELAT, 1968; J. DEGUISE, 1971; G. DURANDIN, 1982; S. EWEN, 1983; J.K. GALBRAITH, 1968; A. GRANOU, 1974; A. GRANOU, Y. BARON, B. BILLAUDOT, 1979; D.-L. HAINEAULT et J.-Y. ROY, 1984; A. HENNION et C. MEADEL, 1987; H. JOANNIS, 1981; J.-N. KAPFERER, 1984; A. KATCHOURINE, 1967; W.B. KEY, 1974; G. LAGNEAU, 1983; P. LAZARSFELD et R.K. MERTON, 1966; H. LEFEBVRE, 1968; W. LEISS, S. KLINE, S. JHALLY, 1986; D. LINDON, 1976; J. Marcus STEIFF, 1961, 1969; H. MARCUSE, 1968; A. MARSHALL, 1920; M. MCLUHAN, 1967; E. MORIN, 1962; V. PACKARD, 1963; S. PROULX, 1971, 1973; J.-F. REVEL, 1966; E. RICHARD, 1965; B.D. SINGER, 1986; D. VICTOROFF, 1978; R. WILLIAMS, 1980.

٨ ــ استخدام وسائل الإعلام

أصبح استخدام وسائل الاعلام يفرض نفسه ، تدريجياً ، على عاداتنا اليومية ، الى حد أن البعض أصبح يطابق ، فى اللغة الدارجة على الأقل ، بينها وبين معظم ظواهر الاتصال ، وإن كان صحيحاً أن عدداً كبيراً من ممارساتنا الاتصالية يعتمد الى حد كبير على وسائل حديثة فى النشر والاتصال (مثل الصحافة والاذاعة والتليفزيون والتليفون الخ) . سنتوقف قليلا هنا عند استخدام التليفزيون الذى يعد أكثر الوسائل الإعلامية شعبية : حيث أن ٩٨٪ من الأسر فى أمريكا الشمالية تمتلك جهاز تليفزيون واحد على الأقل ، يظل مداراً لمدة ست ساعات ونصف يومياً فى المتوسط . وسندرس ما تطلعنا عليه التحليلات الحديثة التى توصل اليها باحثون فى مجال الاتصال حول الاستخدامات الفعالة للتليفزيون من جانب النوعيات المختلفة للمستمعين . وسنولى اهتمامنا الأكبر للمجهودات التى قام بها باحثون من أمريكا الشمالية .

بنية الاستخدامات التليفزيونية فى الولايات المتحدة

تعتمد الطريقة التقليدية فى تحليل استخدام التليفزيون على العلاقة بين عدد ساعات المشاهدة والمتغيرات الاجتماعية والسكانية المعتادة التى تميز الفئات المختلفة للمستمعين مثل عنصر السن والجنس والمهنة ومستوى التعليم والموقع الجغرافى

والوضع الاجتماعى والاقتصادى وذلك بالنسبة للأنواع المختلفة من البرامج وفترات الاستماع المختلفة لشبكات البرامج . وقد أدت مراجعة دورية طموحة لأكثر من الفين وخمسمائة كتاب فى مجال علم الاجتماع الانجلو سكسونى حول استخدامات التليفزيون (تحقيقات ، استطلاعات رأى ، دراسة حالة ، تحليل مضمون ، بحوث ومقالات مختلفة) قامت بها هيئة « راند كوربوريشن » الى تشجيع « جورج كومستوك » وفريقه على نشر دراسة فى عام ١٩٧٨ تشتمل على حصر دقيق لنماذج الاستهلاك المختلفة للتليفزيون فى الولايات المتحدة ، سنتناول الخطوط العريضة لها فى الفقرات التالية .

يبث التليفزيون الأمريكى فى معظم الأحيان مضامين موجهة للترفيه (ألعاب ، منوعات ، رياضة) والخيال (مسلسلات سينما ، تمثيليات درامية ، مغامرات بوليسية ورعاة بقر تميل بشكل أو بآخر الى العنف ، الخ) . والشخصيات الخيالية التى تلقى اقبالاً أكبر فى المشاهدة هم الشباب البيض ذوى المستوى الاجتماعى والاقتصادى المرتفع، الذين يعيشون فى جو يتسم بالعنف ويغلب عليه استخدام وسائل غير مشروعة لتحقيق الأهداف ، وهى شخصيات لايعرف المشاهد غالباً مصادر دخلها وسبل معيشتها . أما النساء ، مع كثرتهن ، الا أنهن لا يلعبن غالباً الأدوار الرئيسية فى المسلسلات الدرامية . وبرغم التطور الأخير الذى طرأ على وجود شخصيات تنتمى لفئات مختلفة ، فان المسنين والأطفال ، السود وغيرهم من الأقليات الثقافية أقل تواجداً فى الأعمال الخيالية على الشاشة الصغيرة فى أمريكا .

وقد حققت معدلات مشاهدة التليفزيون ، منذ ظهوره فى المجتمع على نطاق واسع فى بداية الخمسينات ، زيادة مطردة . فى البداية ، كان الأشخاص الذى ينتمون للفئات الاجتماعية الأكثر فقراً هم الأكثر اقبالاً على التليفزيون ، بما لذلك من دلالات . وعندما قاربت ساعات مشاهداتهم على الوصول الى أعلى معدلاتها ، بدأت ساعات المشاهدة تزداد لدى الفئات الاجتماعية المتميزة ، ومع حلول الستينات كان التليفزيون قد نجح نهائياً فى التسلل الى كافة الأوساط

الاجتماعية ، بما فى ذلك ، الأوساط المتميزه الأقرب الى الثقافة المكتوبة والتى كانت فى البداية معترضة على غزو التليفزيون لأوقات فراغها . وهذا لايعنى على أى حال أن التجربة الفردية فى المشاهدة التليفزيونية متماثلة لدى الجميع : فالاحصائيات التى تجرى حول تشغيل أجهزة التليفزيون فى المنازل لاتنبئنا عن الخبرات الفعلية التى يكتسبها الناس من الشاشة الصغيرة . بيد أن ظهور القنوات الاضافية التى تبث عن طريق الكابل واستخدام أجهزة الفيديو ، وهما سمتان مميزتان لأعوام الثمانينات ، فتحت أسواقاً جديدة ، وآفاقاً جديدة أمام الاستهلاك التليفزيونى .

يختلف الوقت المخصص لمشاهدة التليفزيون تبعاً للمراحل العمرية المختلفة فى حياة الفرد : حيث ترتفع نسب الاستماع من الطفولة المبكرة وحتى المرحلة التى يدخل فيها الطفل المدرسة الابتدائية ، ثم تنخفض خلال فترة المراهقة وخلال السنوات الأولى من النضج ، ثم تعود للارتفاع حتى تصل الى مستوى يظل ثابتاً فى بقية مرحلة النضج ، حيث تشهد بعد ذلك ارتفاعاً طفيفاً ، ولذلك فان الأشخاص المسنين الذين يتجاوز عمرهم ٦٥ عاماً يشاهدون التليفزيون لفترات أكبر من الناضجين . ويبدو أن العلاقة بين الوقت المخصص لمشاهدة التليفزيون والوقت المطلوب لممارسة بقية الأنشطة الاجتماعية يخضع لنظرية الأوانى المستطرقة : حيث ينخفض الأول بسبب الواجبات الدراسية ، ثم تربية الأطفال ونمو الدرجات المهنية ، وعندما يحل المعاش ترتفع نسبة مشاهدة التليفزيون . أما الفئات التى تسجل أعلى نسب مشاهدة فهى : الأطفال والنساء والسود والمحالون الى التقاعد .

وبصفة عامة فان معدلات المشاهدة ترتفع خلال فصل الشتاء وتنخفض خلال فصل الصيف ، كما انها تختلف تبعاً لأوقات اليوم . فاذا أخذنا على سبيل المثال أحد أيام فصل الخريف : فى الصباح يجلس ٩٪ من الأمريكيين أمام الشاشة الصغيرة ، وفى بداية الليل تصبح نسبتهم ٣٠٪ ثم تصل معدلات المشاهدة الى أقصى درجاتها فى الفترة من الساعة الثامنة الى الحادية عشرة مساء حيث يكون ٤٥٪ من تعداد الشعب الأمريكى أمام شاشات التليفزيون ، وعند منتصف الليل تنخفض نسبة المشاهدين الى ١٧٪ . وتختلف دورات المشاهدة هذه تبعاً للسن

والجنس : فالسيدات اللاتى لايعملن لهن فترتا ذروة فى المشاهدة : الأولى بعد الظهر والثانية من الثامنة الى العاشرة مساء ، أما الرجال فلا يشاهدون التليفزيون بعد الظهر الا نادراً وتتركز مشاهدتهم خلال فترة الذروة التى أشرنا اليها من قبل ، كما أن نماذج المشاهدة لدى الرجال والنساء الذين تجاوزوا الخمسين تكون متشابهة الى حد كبير . ومشاهدة التليفزيون تحتل مكانة بالغة الأهمية فى حياة الأطفال الأمريكيين . وتكون ساعات الذروة فى المشاهدة لدى الأطفال الصغار (من عامين الى خمسة أعوام) فى الصباح (حوالى فى العاشرة) وبعد الظهر (فى الخامسة) وفى بداية السهرة (الثامنة مساء) . أما الأطفال الأكبر سنا (من ستة أعوام الى أحد عشر عاما) فلهم ساعة ذروة أولى فى الثامنة صباحاً ، قبل الذهاب الى المدرسة ، وفترة ذروة أخرى بعد عودتهم فى نهاية فترة مابعد الظهر ، كما أنهم يشاهدون التليفزيون كثيراً فى المساء . أما المراهقون ، خاصة الأولاد ، فتنخفض معدلات مشاهداتهم الى حد كبير عدا فترة المساء .

وإزاء ظاهرة اجتماعية بمثل هذا الحجم ، عكفت دراسات عديدة على دراسة « التأثيرات » التى يمكن أن تحدثها مشاهدة التليفزيون على سلوكيات الأفراد . وأولى بعض الباحثين اهتمامهم لدراسة طبيعة الأنشطة التى يقوم بها مشاهدو التليفزيون أثناء جلوسهم أمام الشاشات الصغيرة ، وتأثير هذه المشاهدة على توزيع أوقات الفراغ ، وتأثير التليفزيون على الأنشطة الأخرى ، وأثره على استخدام وسائل الاعلام الأخرى وأخيرا الاحتياجات المختلفة التى قد يبدو أن مشاهدة التليفزيون تلبيها بشكل موضوعى . وسنستعرض فيمايلى النتائج المختلفة لهذه الأبحاث .

أنشطة مشاهدى التليفزيون أمام الشاشة الصغيرة

على عكس مايمكن أن يحدث فى قاعة للسينما ، فإن مستوى انتباه المشاهدين عندما يجلسون أمام الشاشة الصغيرة يكون شديد التفاوت . وتتأثر تجربة المشاهدة التليفزيونية من الناحية المادية بالتنقل المتكرر داخل حيز المنزل :

ويمكن أن تصاحب المشاهدة أنشطة أخرى عديدة مثل الأكل والحياكة والتحادث والقراءة وممارسة بعض الألعاب الاجتماعية الخ . ومن ثم فان مشاهدة التليفزيون تبدو كتجربة مادية غير متصلة زمنياً بعمق ، وتتسم بلحظات انتباه ذات طبيعة شديدة التفاوت . وقد لوحظ أن مستوى الانتباه مرتبط بعدة أشياء من بينها طبيعة المضامين المذاعة : حيث تتطلب الإعلانات ونشرات الاخبار قدراً من الانتباه أقل من الأفلام والمسلسلات الدرامية .

إن ظاهرة تحويل القنوات المستمر التى استجدت مؤخراً باستخدام التوجيه عن بعد (الريموت كونترول) اكتسبت قيمة رمزية لأنها تصف التحولات الراهنة فى أنشطة مشاهدى التليفزيونى داخل نطاق المنزل . وأدى ظهور « الريموت كونترول » فى بداية الثمانينات ، فى ظل ازدياد القنوات المتاحة بفضل الكابل أو الأقمار الاصطناعية (أكثر من ثلاثين قناة متاحة فى بعض المراكز الحضرية الأمريكية) ، الى تحول عميق — فى العديد من الحالات — فى استخدام التليفزيون . وقد انتهى اثنان من الباحثين هما « شانتال دوجورنى » و « بيير آلان ميرسييه » مؤخراً من اعداد ملاحظاتهما الأولية فى إطار تحقيق أجرياه حول هذه الظاهرة فى فرنسا .

يرى الباحثان أن تغيير القنوات المستمر هو بالتأكيد سلوك جديد إزاء التليفزيون ، سلوك يكشف عن ثقافة ناشئة « تجعل من البعد الاجتماعى للغة ومن الكتابة نتاجاً لصلة ما ، صلة بين الأمس واليوم وبين الأنا والآخر » . ويصبح المشاهد الحائر بين القنوات مشاركاً فى المسئولية عن وضع برنامج خاص به واخراج جماليات جديدة تستعير منطق المشبك والباروك ، وتجد متعة فى التكرار والاعادة ، وتغذى عدم التواصل والقوالب بقيمة ابداعية ، وتعبر عن ذوق يميل الى الغرابة والتجميع . ويقوم التنقل بين المحطات على « علاقة فاسدة » يثبت من خلالها المشاهد الحائر أن « التليفزيون لايساوى شيئا ومع ذلك نشاهده » . إن المسافة التى يأخذها المشاهد من المضامين المذاعة بفضل استخدامه للريموت « تسمح له بمشاهدة البرامج مع تحقيرها » كما أن تغيير القنوات باستمرار يبرىء ساحة مدمني

التليفزيون الذى يقولون لأنفسهم أنهم يستطيعون بهذه الطريقة التعامل مع الجهاز بشكل انتقادى . حتى لو كانوا غير قادرين على استرجاع ماشاهدوه ، فانهم يستطيعون التحدث بشكل اجمالى عن هذه الوسيلة الاعلامية ... فهل تشجع هذه الأداة التقنية « التفاعلية » المزعومة على التواصل ؟ يميل المشاهدون الحائرون بين القنوات الى الابتعاد عن البحث عن أى مضمون (دلالة ، توجيه) فى الرسائل المتلقاة من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فإن البيئة المحيطة بالمشاهد الحائر هى بيئة الشخص الوحيد ، الذى يعد موجهاً سيئاً للاتصال .

يتضح تأثير مشاهدة التليفزيون فى تقسيم أوقات الفراغ بشكل ملحوظ : حيث أنه النشاط الترفيهى الذى يشغل الجزء الأكبر من حياة الغالبية العظمى من الأمريكيين . ولا يتفوق عليه فى المساحة الزمنية الا الوقت المخصص للعمل والنوم . ويأتى هذا النصيب الكبير من الوقت المخصص للتليفزيون على حساب أنشطة أخرى . لذا فقد لوحظ أن مشاهدة التليفزيون مرتبطة بانخفاض الوقت المخصص للنوم . ويبدو أيضا أنه كلما ازداد الوقت المخصص للتليفزيون ، قل الوقت المخصص للرحلات واللقاءات الاجتماعية خارج المنزل ، وانخفضت أيضا ساعات الاستماع الى الاذاعة ، والقراءة والمناقشات والتردد على دور العرض السينمائى وممارسة الانشطة الدينية والأعمال المنزلية ، الخ . ومن ناحية أخرى ، يمكن أن يشجع التليفزيون على المشاركة فى بعض الأحداث أو الأنشطة التى لم تكن معروفة بالقدر الكافى قبله (مثل الأحداث الثقافية الخاصة ، ورياضات الهواة غير المشهورة) .

ويؤدى الوقت المستغل فى مشاهدة التليفزيون الى تعديل نسب تعامل المشاهدين مع وسائل الاعلام الأخرى : انخفاض وقت الاستماع الى الاذاعة وارتياد دور السينما . وسنتوقف قليلاً عند التعامل مع الصحف اليومية ـــ ففى الستينات كانت الصحافة المكتوبة هى المصدر الإعلامى اليومى الأول لدى الجمهور الأمريكى ، الذى كان يعتبرها أكثر المصادر مصداقية ، لأنها كانت تقدم له أكثر التغطيات اكتمالا للأحداث . وابتداء من السبعينات انقلبت هذه الاتجاهات : وأصبح التليفزيون المصدر الإعلامى اليومى الأول وبرغم أن مايقرب من ٢٥٪ من

الأمريكيين يعتقدون أن المعلومة التليفزيونية منحازة ، الا أن الأغلبية يعتبرونها المصدر الاعلامى الأكثر مصداقية واكتمالاً . وفى الوقت ذاته ، تجدر الإشارة الى أن الصحافة المكتوبة ظلت وسيلة مهمة ، ومتميزة كمصدر معلومات لدى الصفوة والفئات الأكثر تعلماً بين أفراد الشعب .

وأخيراً ، فقد أجريت بعض الأبحاث الأمريكية التقليدية المهمة حول الإشباع الذى يبحث عنه المشاهدون من وراء استخدام التليفزيون ، وكان التركيز على التيار الذى تم تمييزه باسم «بحث الاستخدامات والاشباعات». ويمكن أن تمثل هذه الإشكالية تعميقاً لتحليل الاستخدامات اذا ضمت سؤالاً عما يجنيه الأفراد من وراء مشاهدتهم للتليفزيون. كما يمكن أن نتصور — كفرض جدلى — أن نفس المادة التليفزيونية تحدث لدى أفراد مختلفين اشباعات ذاتية شديدة التفاوت بل والتناقض . على سبيل المثال فان برنامجاً يحتوى على مشاهد عنف يمكن أن يكون بمثابة نموذج سلوكى لبعض الأفراد ، بينما الأغلبية العظمى من المشاهدين لن تجد فيه إلا مادة ترفيهية . ويبدو أن ثمة حقيقة ثابتة فيما ينتظره مشاهدو التليفزيون الأمريكيون من وراء مشاهدته : فهم يستخدمونه قبل أى شيء وبعده كوسيلة ترفيهية . واختيار المواد والبرامج نفسه لايعنيهم الى حد ما : فهم يرون أن التليفزيون يجب أن يشاهد لذاته ، فقط من أجل المتعة والاسترخاء اللذين يتحققان من وراء ذلك وبصرف النظر عن المضمون .

اهتمامات المشاهدين

حاول باحثان أمريكيان ، ينتميان الى أوساط التسويق الاعلامى ، اعادة توصيف استخدامات التليفزيون والجمع بين نتائج الأبحاث والإشباعات (استخدامات واشباعات) باللجوء الى طريقة تقسيم المشاهدين الى شرائح ، المستخدمة فى الأوساط الاعلانية . وتوصل « فرانك » و « م .جرينبرج » فى كتابهما الذى اسمياه «الاستخدام الجماهيرى للتليفزيون» والذى نشر فى عام ١٩٨٠ ، الى الكشف عن تركيبة اهتمامات الأفراد وأنشطهتم فى أوقات الفراغ ،

واستخداماتهم لوسائل الاعلام الأخرى ، فضلاً عن طبيعة الاحتياجات السيكولوجية التى يسعى هؤلاء الأفراد لاشباعها عن طريق مشاهدة التليفزيون ، وقام الباحثان بتجميع الأفراد الذين شملتهم الدراسة وفقاً لتركيبات المصالح المشتركة وليس وفقاً لاجاباتهم على سؤال معين ، كما يحدث عادة فى العلوم الاجتماعية . وبالتالى صنفوا جمهور المشاهدين الأمريكيين الى أربع عشرة شريحة : على سبيل المثال الشبان هواة عمليات الاصلاح الحرفية معاً ، والسيدات المهتمات بالأنشطة الفنية والثقافية ، والمراهقون المغرمون بالرياضات التنافسية ، والمستهلكون السلبيون للنشرات الاخبارية والاعلامية، والفوضويون الذين يبدون اهتماما ضئيلاً بجميع أنواع الترفيه ، والمبدعون الفضوليون الباحثون عن حافز عقلى قوى الخ . وكان غرض الباحثين اللذين لجآ الى هذا المدخل هو تفسير الاستهلاك الإعلامى انطلاقا من احتياجات وضرورات الحياة اليومية التى يسعى الاستخدام الفردى لوسائل الإعلام الى اشباعها . وهذه الاشكالية فى الاستخدامات لها نقاط قوة ، وأيضا لها نقاط ضعف : فطابعها العملى التصنيفى يشكل نقطة ضعف ادراكية مؤكدة . ولايمكن بهذه الطريقة بناء نظرية تستطيع أن تقدم شرحاً متماسكاً وشاملاً لسلوكيات المستهلكين ازاء وسائل الاعلام . وبرغم أهميتها الأكيدة فى مجال التسويق من أجل التحديد الدقيق لمواصفات الجماهير المستهدفة ، فان هذه المواصفات تصدم أحيانا بسبب لجوء كتابها الى لغة مقولبة ، وخاصة عند الحديث عن المرأة . ويدفعنا هذا الفراغ النظرى الى التساؤل عن مستوى آخر للتحليل : كيفية تناول الباحثين فى مجال الاتصال حتى الآن لمشكلة الوظائف التى تؤديها وسائل الاعلام حاليا فى المجتمع ؟

وظائف وسائل الإعلام

كان عالم السياسة « هـ . لاسويل » هو أول من وضع تصنيفاً للوظائف التى يؤديها الاتصال فى المجتمع ، وذلك فى مقاله الشهير الذى نشر عام ١٩٤٨ . وقام بتعريف ثلاث وظائف اجتماعية لعمليات الاتصال : مراقبة البيئة ، دمج

مكونات المجتمع المختلفة ، نقل التراث الثقافى . وأصبح هذا التصنيف مصدر الهام للعديد من الباحثين ، حتى تم التوصل فى النهاية الى النموذج الذى وضعه عالم الاجتماع « ر.ر. رايت » الذى شرح بدقة فى مقال نشره عام ١٩٦٠ ظروف إمكانية اجراء تحليل وظيفى للاتصال الجماهيرى . ويرى « رايت » أن الاتصال الجماهيرى يبدو كعملية اجتماعية مبنية ومتكررة بالقدر الذى يسمح لنا بأن نطبق عليها مبادىء التحليل الوظيفى . وقد حرص على التمييز بين الوظائف الكامنة (غير المتعمدة) والظاهرة للاتصالات الجماهيرية من ناحية ، وأثبت من ناحية أخرى أن أى عملية اتصال لايكون لها بالضرورة قيمة ايجابية فى تشغيل النظام أو أحد نظمه الفرعية : حيث تبدو بعض الأحداث الاتصالية وكأنها تؤدى وظائف معينة لبعض المكونات ، وفى الوقت ذاته يمكن النظر اليها وكأنها عديمة النفع لعناصر أخرى فى النظام . إنه التعبير فى اللغة الوظيفية عن حقيقة فك الرموز الخاص بتلقى رسالة معينة : فهذه الرسالة يمكن فك رموزها بطريقتين مختلفتين — بل قد تكونان متناقضتين — من جانب متلقيين اثنين فى سياقين مختلفين . ويمكن أن تكون الرسالة فى احدى الحالتين نافعة وفى الأخرى عديمة المنفعة .

لذا فقد صاغ رايت سؤاله النموذجى بطريقة تركيبية : ماهى الفوائد (أو انعدام الفائدة) الظاهرة والكامنة المترتبة على المراقبة عن طريق وسائل الاعلام (انشطة اخبارية) وعلى التفسير الاقتصادى (انشطة تحريرية) ونقل التراث الثقافى بواسطة هذه الوسائل والترفيه الإعلامى بالنسبة لمستويات النظم المختلفة (المجتمع ، الجماعات الصغيرة ، الأفراد والثقافات) ؟ « وقد قاده هذا السؤال الى عمل حصر منهجى للفوائد أو انعدام الفائدة) الظاهرة والكامنة لكل قسم كبير من الأنشطة الإعلامية ولكل مستوى من النظم . ولكن أقواله ظلت نوعاً من التخمينات ولم تؤد الى تطبيق عملى مرض حسب تعبير علم مناهج البحث . ولذا شهدت فى الأعوام التالية نشر مقالات ودراسات عديدة تحاول حصر الوظائف التى يمكن أن تؤديها الاتصالات الجماهيرية بطريقة أكثر شمولاً أو ربما تكون مختلفة .

وثمة دراسة مبدئية تندرج فى اطار الأبحاث التقليدية حول اشباع المشاهدين، استطاعت ــ فى رأينا ــ أن تسهم بشكل متميز فى التحديد المنهجى للوظائف النفسية والاجتماعية التى تتحقق من وراء استخدام وسائل الإعلام . هذه الدراسة أجراها « ا. كاتز » و « م .جورفيتش » و « هـ . هآس » فى اسرائيل ونشرت فى عام ١٩٧٣ فى مجلة « علم الاجتماع الأمريكى » تحت عنوان « حول استخدام وسائل الإعلام فى أشياء مهمة » . ونحن نرى أن هذه الدراسة لايمكن اغفالها لمن يريد التفكير بشكل منهجى فى وظائف وسائل الإعلام اليوم .

يضع هذا الاحتمال النظرى المتلقى فى موقع المسئولية (جزئياً) عن المضامين الإعلامية التى يختارها والتى يفسرها : فاستخدامه لوسائل الاعلام يكون محكوماً بأدواره الاجتماعية وميوله النفسية . وحول هذا المعنى ، فان هذه النظرية الدراسية التى تركز على اشباعات المشاهدين تنبع من رؤية آلية (دراسة تأثيرات الرسائل على المتلقين) لكى تندرج فى اطار المدخل النفعى الذى وضعه رايت (دراسة الفوائد الناتجة عن استخدام وسائل الإعلام) .

وينص المدخل الذى طرحه فريق كاتز على التساؤل عن الاحتياجات النفسية التى يلبيها استخدام إعلامى معين لدى فرد بذاته ، ليس ذلك فحسب وانما أيضا كيفية وسبب إدراج هذا الاستخدام بالتحديد وبشكل شامل فى سير النظام الاجتماعى . ويحاول هؤلاء الباحثون اذن الكشف عن الصلات التى تربط بين بعض الصفات الإعلامية والوظائف النفسية والاجتماعية التى تؤديها هذه الوسائل . وقد شملت الدراسة عينة معبرة عن السكان الناضجين فى اسرائيل ، وتم تقسيم الخطوات المنهجية الى ثلاث مراحل :أ) مرحلة شملت قائمة أولية مكونة من ٣٥ « حاجة » (تتعلق بالسياسة والأسرة والدين والتربية والهوية الشخصية) على أساس استعراض منظم للكتابات النفسية والاجتماعية حول هذا الموضوع ، حيث يقوم الباحثون بالتعرف على الاحتياجات التى يعتبرها المشاهدون مهمة ثم تجميعها . ب) باستطلاع آراء المشاهدين الذين ينتمون الى جماعات سكانية

مختلفة ، يمكن التعرف على إسهامات وسائل الإعلام المتفاوتة (الكتاب والسينما والصحافة المكتوبة والراديو والتليفزيون) والإشباع (الذاتى) لهذه الاحتياجات المختلفة . ج) عند توجيه أسئلة صريحة للمشاهدين ، يمكن لهؤلاء تقييم الأهمية النسبية لمساهمة وسائل الإعلام فى اشباع هذه الاحتياجات ، عن طريق مقارنتها بالاشباعات التى يمكن الحصول عليها من وسائل أخرى غير اعلامية ، كالمناقشات الشخصية بين الأصدقاء على سبيل المثال . وقد أدت هذه الخطوة الجديدة الى نتائج مذهلة ، خاصة فيما يتعلق بالأهمية النسبية لوسائل الاعلام فى اشباع الاحتياجات : ففى كل مجال أشار المستهلكون الى أنهم لجأوا أيضاً — لإشباع أكثر احتياجاتهم عمقاً — الى قنوات أخرى غير إعلامية ، تعد فى معظم الاحيان أكثر أهمية وفاعلية من وسائل الإعلام .

وحتى لو كانت النتائج التى تم الحصول عليها فى البداية غير قابلة للتعميم ، فإن بعضاً منها مؤثر للغاية ويستحق الذكر ، فبالنسبة للاحتياجات التى تم التعرف عليها (حتى الاحتياجات المرتبطة بالترفيه) ، تعد « القنوات » الأخرى غير الإعلامية (الصداقة ، الإجازات ، العلاقات الأسرية وعلاقات العمل) مصادر تحقق قدراً أكبر من الإشباع بالنسبة للمستهلكين . واذا تأملنا ، من ناحية أخرى الصلة بين خصائص وسائل الإعلام وطبيعة الاحتياجات التى تتطلب الإشباع ، نتبين — عند مستوى اجتماعى أكثر اتساعاً — أن الصحافة المكتوبة تظل المرجع الأهم لمن يرغب فى الحصول على معلومة سياسية واجتماعية كاملة وموثوق فيها أما فى المجالات التى تتعلق — على العكس — بالاحتياجات المرتبطة مباشرة بالفرد ، يبدو الكتاب ، وسيلة أكثر ملاءمة عندما يتعلق الأمر بمعرفة الذات (وهو المفضل لدى الفئات الأكثر تعلماً ، بينما يختار الآخرون التليفزيون) بينما تعد السينما والتليفزيون والكتاب أكبر مصادر للترفيه الفردى . وأخيراً ، يبدو التليفزيون أقل الوسائل « تخصصاً » : وهو الوسيلة التى ترتبط بسهولة بإشباع أكبر مجموعة من الاحتياجات ، أما السينما والصحافة المكتوبة فهى على العكس أكثر الوسائل « تخصصاً » حيث أنها ترتبط باشباع قدر أقل من الاحتياجات .

تتمثل إحدى الخصائص القيمة لهذا البحث ، علاوة على أنه يتيح امكانية استخدام نفس المنهج فى سياقات ثقافية أخرى ومن ثم إمكانية اجراء أبحاث مقارنة ، فى أنه يضع مسألة اشباع الاحتياجات النفسية والاجتماعية فى نطاق أكبر من النطاق المحدود لوسائل الإعلام . ولم يغب أبداً عن نظر هؤلاء الباحثين أن ممارساتنا الاتصالية فى مجملها تتجاوز بكثير الاطار الذى تفرضه وسائل الإعلام . بل لقد ذهبوا أبعد من ذلك عندما أكدوا أن الاحتياجات التى يرتبط اشباعها باستخدام وسائل الاعلام لاتتولد أصلا منها : فهذه الاحتياجات موجودة بشكل مستقل وآليات اشباعها تمر بقوة فى قنوات الاتصال غير الجماهيرى . ويقترح عالم الاجتماع رايت ، فى مقال حاول من خلاله أن يبين مبادىء التحليل الوظيفى مع محاولة التركيز على اشباع المستهلكين ، ان تكون الخطوة التالية لعملية البحث هى محاولة الاجابة على السؤال :«ماهى النتائج الاجتماعية التى يمكن أن تترتب على إشباع هذه الاحتياجات الفردية بهذه الطريقة وليس بطريقة أخرى؟» ؛ وعلى سبيل المثال ، اذا قالت فئة من المبحوثين إنها تلجأ بانتظام الى قادة الرأى أكثر من التليفزيون أو الصحافة المكتوبة للحصول على معلومة ذات صبغة سياسية ، يصبح من الملائم طرح هذا التحليل : هل يوجد نقص فى المصداقية المنهجية المرتبطة بوسائل الاعلام بالنسبة لهذه الفئة من الناس ؟ هل تخضع هذه الوسائل لرقابة شمولية من جانب الحكومة ؟ الخ .. ويمكن أيضا أن نطرح على أنفسنا سؤالاً حول النتائج الاجتماعية لهذا الوضع : هل سيحدث تأكيد للصورة العامة السلبية لوسائل الإعلام بالنسبة لهذه الفئة من الجمهور ؟ هل سيحظى قادة الرأى بمزيد من النفوذ فى قطاعات رأى أخرى بخلاف الإعلام السياسى ؟ الخ .

ينفع هذا النموذج فى نقل التحليل من المستوى النفسى الدقيق الى المستوى الاجتماعى الكبير . طالما ظل المدخل التجريبى لكاتز والتساؤلات النظرية لرايت مدرجة أساساً داخل اطار وظيفى : فهم يتساءلون عن ظاهرة استخدام وسائل الإعلام من وجهة نظر نتائجها على سير النظام الاجتماعى ، ولكن دون طرح

تساؤلات جوهرية مثل لماذا ولمن ، فالنظام يعمل هكذا . يندرج عمل منظومة وسائل الإعلام — وكذلك تداول ايديولوجية الاتصال — ضمن نظام من العلاقات الاجتماعية أكثر اتساعاً ، وهو يمثل ويعبر عن رهانات اجتماعية وسياسية ، حاول باحثون آخرون ، ينتمون بالأحرى الى نظم البحث النقدية ، القاء الضوء عليها . وسندرس فى الفصول التالية الصور المتعاقبة التى كونها الباحثون فى مجال وسائل الإعلام عن العلاقات بين السلطة والاتصال .

مراجع : L. Bogart, 1972; J.G. Blumler, E. Katz, 1974; G. Comstock et *alii*, 1978; G. Comstock, 1980; R.E. Frank, M.G. Greenberg, 1980; C. De Gournay, P.-A. Mercier, 1988; E. Katz et *alii*, 1973; H.D. Lasswell, 1960; D. McQuail, 1987; R.K. Merton, 1965; T.P. Meyer et *alii*, 1980; J.P. Murray, 1980; G.A. Steiner, 1963; C.R. Wright, 1964, 1974.

الباب الثالث

السلطة والاتصال



٩ ـــ الانتقادات الموجهة للثقافة الجماهيرية

حتى عام ١٩٤٠ ، كان الباحثون المهتمون بوسائل الاعلام ، أيا كانت توجهاتهم السياسية ، متفقين على فكرة مؤداها ان الصحافة والسينما يمكن أن تمارس تأثيراً كبيراً على الناس : وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الحين أن هذه الوسائل قادرة على إحداث تغيير كبير فى مواقف وسلوكيات الأفراد كناخبين ومستهلكين . وأثناء الحرب حينما كانت الاذاعة تتمتع فيما يبدو بأهمية كبرى ، تقرر إجراء أبحاث تجريبية وملموسة على وسائل الإعلام . وتولى كارل هوفلاند مدير بحوث الاتصالات فى الجيش الأمريكى ، الملاحظة المنتظمة لتشكل المواقف داخل جماعات الجنود الأمريكيين الموجودين فى مواقع تجريبية متفرقة حيث كان يتم تجريب وسائل اقناع مختلفة . ومن ناحية أخرى كان بول لازار سفيلد يتساءل عن دوافع الاستماع الى الاذاعة لدى جماهير جديدة : لماذا يتابع الناس مسلسلات الاذاعة بكل هذا الاهتمام ؟ ووضع أيضا ملاحظات تجريبية أولية تقارن بين تأثير الصحافة والاذاعة فى تشكيل آراء الناخبين .

وابتداء من الأربعينات وعلى مدى مايقرب من عشرين عاماً ، بدأت المعارف الاجتماعية المتعلقة بالظواهر الإعلامية تتبلور حول تيارين كبيرين . بدا التيار الأول ، الذى كان فى البداية نقدياً ومرتبطاً بتأملات فى « الثقافة الجماهيرية » ، أميل الى الفلسفة والتجريب ، ومستوحى من الاتجاهات الكبرى فى علم الاجتماع الأوروبى التى ظهرت فى نهاية القرن التاسع عشر والتى وصفت انتقال المجتمع التقليدى الى عصر

التحديث و « المجتمع الجماهيرى » . وركز التيار الثانى على الدراسة التجريبية للاتصالات الجماهيرية واتجه ــ باستخدام قواعد البحث الايجابى وتحليل نتائج البحوث المنهجية ــ الى كشف الوهم المتمثل فى الإيمان بفكرة « القدرة الشاملة » لوسائل الإعلام ــ وقد هيمنت هذه القراءة المزدوجة ــ الناقدة والتجريبية لحقيقة وسائل الإعلام على بنية حقل دراسات الاتصالات الجماهيرية حتى نهاية الخمسينات .

وقد جمعت هذه الخصومة ، على أى حال ، بين التوجهات المختلفة التى تم رصدها فى ذلك الحين ، بين علماء الاجتماع الأوروبيين (الناقدين) ونظرائهم فى أمريكا (التجريبين) ، مما جعل روبرت ك .ميرتون يقول ذات يوم أن شعار علماء الاجتماع الناقدين هو « نحن لانؤكد على أن مانطرحه هو الحقيقة ولكنه على الأقل ذو مغزى » أما شعار علماء الاجتماع التجريبيين فكان « نحن لانعلم اذا كان ما نطرحه ذا مغزى ، ولكنه على الأقل حقيقى » . ونحن نرى أن التركيز على هذا التعارض فى وجهات النظر مفيد لأن هذا الخلاف الفلسفى لايزال مستمراً فيما يبدو حتى الآن ويمكن قراءته بين السطور فى المناقشات الحديثة حول الآثار الاجتماعية « للوسائل التكنولوجية الجديدة » فى مجالى الإعلام والاتصال . وسنطرح فى هذا الفصل الأسس والعناصر الرئيسية للاشكاليات التى أسهمت فى بناء تصور لدنيا وسائل الاعلام وفقاً لمفردات « الثقافة الجماهيرية » . وسنبحث بعد ذلك ، فى الفصل التالى ، التيارات الرئيسية فى الأبحاث التجريبية التى أسهمت فى تأسيس الإشكاليات متسقة التعارض « للاتصال الجماهيرى » وهى الاشكاليات التى جعلت سلطة وسائل الاعلام نسبية .

النظريات الأوروبية حول المجتمع الجماهيرى

ترجع بدايات الخطب النقدية المتعلقة بـ « الثقافة الجماهيرية » الى النظريات الاجتماعية التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والتى وصفت التحولات الاجتماعية الخاصة باتجاه أوروبا الغربية الرأسمالية السريع نحو

التصنيع وفقا لمفردات « المجتمع الجماهيرى » . كان التقسيم المكثف للعمل ، والتحضر ، ومركزية آليات القرار السياسى ، وامتداد شبكات النقل والاتصال وتكثيفها ، وظهور حركات سياسية جماهيرية مرتبطة بامتداد حق التصويت الى الطبقات العاملة من الرجال على وجه الخصوص : كلها خصائص ميزت المجتمع الأوروبى فى الفترة من عام ١٨٥٠ الى ١٩٣٠ وهى الفترة التى ظهرت فيها فكرة « الجماهيرية » .

وقد طالبت النماذج العضوية والارتقائية التى وضعها عالما الاجتماع « كونت » و « سبنسر » بوجود عملية تؤدى الى تزايد التمييز الاجتماعى . وتوصل هذا الكاتبان الى أن تجزئة العلاقات الاجتماعية واضعاف الجماعات البدائية أدى الى عزلة ونفور الأفراد فى التجمعات الاجتماعية الأكثر اتساعاً . ثم جذبت عمليتا التحول الى التصنيع والتحضر ، انتباه بعض علماء الاجتماع أمثال « تونى » و « مين » و « سيمل » و « دوركهايم » و « ويبر » حيث أكدت نظرياتهم الاجتماعية كافة على الانتقال فى التطور من البسيط الى المركب ، ومن المتجانس الى المتغاير ، ومن اللامتميز الى المتميز . وتم التعبير عن هذا الانتقال من خلال سلسلة من التفريعات الثنائية : الانتقال من الوضعية الى العقد (مين) ومن الجماعة الى المجتمع (تونى) ومن التضامن الآلى الى التضامن العضوى (توركهايم) ومن السلطة التقليدية الى السلطة الشرعية المنهجية (ويبر) . وأصبحت تسمية « المجتمع الجماهيرى » لاتطلق على نظام اجتماعى بسبب اتساعه الكبير فقط : حيث يمكن أن توجد بعض البلاد ذات الكثافة السكانية العالية ولكنها ليست « مجتمعاً جماهيرياً » . لقد ارتبطت فكرة « المجتمع الجماهيرى » فى الأساس بخاصيتين اثنتين : تتعلق الأولى بشكل العلاقات الاجتماعية التى تربط الأفراد بعضهم ببعض ، وتتعلق الثانية بنوع النظام الاجتماعى القائم . ففى المجتمع الجماهيرى ، يحدث الانعزال الفردى وزوال الذاتية فى بنية تكون الرقابة الاجتماعية عليها ضعيفة (فوضوية) . وتسير الأمور كما لو كان هذا التجانس فى السلوكيات العامة النابعة من جماعة غير متميزة هو الرد المخالف

للأفراد المعزولين الذين فقدوا إحساسهم بالانتماء الى الجماعة داخل تركيبية اجتماعية تزداد تعقيداً وتغايراً .

فى هذا المجتمع الصناعى للغاية ، حيث نرى بذور الأيديولوجية الليبرالية تنبت ، ترمز « الجماهير » للمثاليات الليبرالية الجديدة من ديمقراطية ومساواة وعدالة للجميع . وستأتى أولى الانتقادات التى وجهت الى هذا المجتمع الجماهيرى من أشخاص يشغلون مناصب موالية للارستقراطية ومناهضة للرأسمالية ومعارضة لهذه الديمقراطية البورجوازية الصناعية الجديدة التى ستقوض فى رأيهم أسس النظام الاجتماعى الذى كان مبنياً حتى ذلك الحين على التقاليد والامتيازات المتوارثة . لذا فقد عبر الفيلسوف « فريدريش نيتشه » فى كتابه « أفول الأصنام » عن عدائه لجميع أشكال المساواة التى يمكن أن تنتقص من رقى الثقافة التقليدية للصفوة . ووفقا لهذا الانتقاد ، فإن أكثر التهديدات عنفاً وهى الخاصة بعدم المحافظة على « الثقافة العظمى » تنبع من هذه القيم البورجوازية فى الدمقرطة التى تحث « الرجل الجماهيرى » على التطلع لدخول عالم الثقافة العظمى . ومن ثم تصبح هذه الثقافة مهددة بالاكتساح من قبل هذا الجمهور الهمجى ذى المطالب التى لاترتوى والتى لايمكن السيطرة عليها . وثمة آراء مشابهة لهذا الانتقاد هى أقوال « خوزيه اورتيجا اى جاسيه » التى نشرها فى كتابه « ثورة الجماهير » وكانت قد ظهرت أصلاً فى الفترة من عام ١٩٢٦ الى ١٩٢٨ فى صورة يوميات فى إحدى صحف مدريد. ويرى هذا الكاتب أن القرن التاسع عشر وفر — للجمهور الاجتماعى الكبير فى القرن العشرين — ظروف معيشية جديدةتماماً ، أصبحت ممكنة بفضل الآثار المتضافرة لثلاثة مبادىء هى : الديمقراطية الليبرالية ، والعلم الحديث والتصنيع . واستطاع انسان القرن العشرين أن يتأقلم بسرعة مع هذه الظروف المعيشية الجديدة : وأصبح يعيش بانطباع أن كل شىء مسموح له به ، وانه غير مرتبط بأى التزام اخلاقى . ورأى « اورتيجا اى جاسيه » أن هذا كله أدى الى ظهور نوع من الأنانية لدى « الرجل —

الجماهيرى » الذى لم يعديهتم الابرفاهيته الشخصية . وبدت الثقافة الأوروبية حينئذ مهددة من جانب هذه الهمجية الجديدة للجماهير التى انفصلت عن تأثير الثقافة التقليدية لكى تخضع ــ دون وعى نقدى ــ للقيم العملية الجديدة فى التقنية والتحديث .

ثمة مجموعة أخرى من الانتقادات الموجهة للمجتمع الجماهيرى والثقافة الجماهيرية نبعت من فكر ينتمى سياسياً الى اليسار ، فى الاطار السياسى لتصاعد الفاشية الأوروبية ، وهو يتعارض تماماً مع الفكر المحافظ السابق : انه الفكر النقدى للفلاسفة الألمان الذى اجتمعوا اعتباراً من عام ١٩٢٣ فى معهد الدراسات الاجتماعية بفرانكفورت والذين عرفوا فيما بعد باسم فلاسفة مدرسة فرانكفورت . واذا كان هؤلاء قد انتقدوا الحضارة الجماهيرية ، فلم يكن ذلك باسم المحافظة على الماضى وانما سعيا وراء إمكانية قيام ثورة تعادل « تحقيق آمال الماضى » (هوركهايمر وادرونو) . و نستطيع أن نتبين من وراء ذلك التوجه الذى جعل فلاسفة فرانكفورت يعلقون بعض الأهمية على التقاليد . وبخلاف النقد المحافظ ، فلم يكن المظهر « الديمقراطى » للثقافة الجماهيرية هو الذى أجج خطبهم النقدية وانما العكس هو الصحيح : فلم تكن هذه الثقافة « أحادية البعد » (ماركوس) ملائمة على الاطلاق لعملية دمقرطة ثقافية أصيلة ، وكانت رسائلها المقولبة تحث على الامتثال والخضوع الشديد من جانب الانسان المعاصر (هوركهايمر) . ثم أسهمت الثقافة الجماهيرية ، بالتواطؤ مع الهيمنة السياسية فى التصفية التدريجية لاستقلالية المواطن الفرد الذى كان يستطيع ، حتى بزوغ التحديث ، أن يعبر عن « ميوله » فى مجال الذوق الجمالى . واذا كانت الوظيفة السياسية للفن هى تقديم صورة مسبقة « لمجتمع آخر » (تدحضه الظروف الراهنة) وأوهام « وعود السعادة » ، فإن صياغة هذا الخيال الثورى نفسها سيتم استبعادها تدريجيا من الثقافة المقننة والمتجانسة للحضارة الجماهيرية . وستساوى الوظيفة السياسية للثقافة الجماهيرية هنا الحصول عن ــ طريق المناورة ــ على ضمان بأن الجماهير ستساند الوضع الراهن . وكذلك ستتعين ادانة الثقافة

الجماهيرية بسبب مساهمتها فى ديمومة الظلم الاجتماعى (Horkheimer) .

وقد وصف « هوركهايمر » و « ادرونو » هذه الحقيقة باللجوء الى مفهوم « الصناعة الثقافية » فقد أصبحت عناصر هذه الثقافة الجماهيرية تشتمل على خصائص سلعية محضة . وأصبح انتاجها يتوقف على قيمتها التبادلية فى السوق ، وليس على قيمتها فى الاستخدام كجزء لايتجزأ من تجربة جمالية أصيلة ذات جذور ضاربة فى التقاليد . وقد تم فرض هذه السلع الثقافية — كأدوات للمناورة — « من أعلى » بواسطة نظام صناعى للنشر تحكمه الأخلاقيات الرأسمالية وسيطرة التقديس الأعمى ومنطق الاستهلاك والربح . وقد وفرت الصناعة سلعاً ثقافية تتميز محتوياتها بقيمة مذهلة وعظيمة ، عن طريق التكرار والفردية الكاذبة والتى اختفى بهاؤها تحت ضغط العقلية التقنية فى عصر الاستنساخ الآلى للأعمال الفنية .

ومن ثم فقد أصبحت الانتقادات — سواء جاءت من اليسار أو اليمين — الموجهة الى هذا المجتمع الأوروبى الذى تشهد بنيته تحولاً عميقاً ، تفكر فى نفس الاتجاه وهو أن هذا المجتمع أصبح جماهيرياً .

مجادلات أمريكية حول الثقافة الجماهيرية

فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد الحرب وبالتحديد فى بداية الستينات ، تركت المجادلات التى ثارت حول مفهوم الثقافة الجماهيرية ، والتى تأثرت بشكل مباشر بالمناقشات بين المنظرين الأوروبيين ، أثراً عميقاً على الفكر الاجتماعى المتعلق بوسائل الإعلام . ولتجميع هذه المناقشات يبدو من المفيد التمييز بين مستويين منطقيين فى المجادلات . فى المستوى الأول نضع النقد الخاص بالثقافة الجماهيرية (الذى يجعلها مناقضة للثقافة الانسانية التقليدية) ، وفى المستوى الثانى ، يمكن وضع النظرة الشمولية النقدية لأولئك الذين يرفضون مجرد وجود هذا النوع من المناقشات (يحدث الاعتراض النقدى هنا بالتحديد باسم التعددية الديمقراطية التى تتخذ من الثقافة الجماهيرية رمزاً لها) وسنستعرض فيمايلى مختلف المواقف المتنازعة .

الظواهر التى يمكن اعتبارها مكونة للثقافة الجماهيرية كثيرة للغاية : الترفيه عن الجماهير بجميع أشكاله ، العروض ، البث المكثف للمعلومات والاعلانات بواسطة وسائل متعددة .. الخ . وقد جرت العادة على أية حال أن يحدد النقاد الأمريكيون ملامح الثقافة الجماهيرية بناء على التركيبات البنيوية للمضامين التى تنقلها وسائل الإعلام كالسينما والصحافة والاذاعة والتليفزيون . وثمة ثلاث خصائص تبدو رئيسية هى .

هذه المضامين تذاع أساساً على جماهير تتألف فى معظمها من الطبقة العمالية التى دخلت دائرة الترفيه والاستهلاك فى إطار الإثراء التدريجى للطبقات العاملة فى أمريكا فى فترة ما بعد الحرب .

تفترض هذه الاذاعة الجماهيرية وجود صناعات من نوع جديد تضمن انتاجاً مكثفاً للسلع الثقافية .

ظهرت ضرورة التقريب بين المقاييس الجمالية التى تحكم هذا الانتاج الجماهيرى للسلع الثقافية نظراً لأن قطاعات كبيرة من الجماهير تكون مستهدفة ، مما يتطلب نوعاً من التوحيد القياسى للمضامين بغية ايجاد تقارب بين أكبر عدد من الناس .

وقد ثارت منازعات أيديولوجية حادة بين المثقفين الأمريكيين حول ظهور هذه الثقافة الجماهيرية وتغلغلها شيئا فشيئا فى الحياة اليومية للمواطنين . وفى البداية كان احساس الناس بالثقافة الجديدة أنها أقل شأنا من الثقافة التقليدية أو الانسانية ، وهى الثقافة التى كانت تعتنقها بالتحديد مجتمعات الصفوة التى كانت تقاوم بعنف أى تطور فى المجتمع . وبينما كانت هذه الثقافة الانسانية محصلةانتاج الصفوة الذين تندرج مقاييسهم الجمالية فى اطر التقاليد الفنية والأدبية المتعارف عليها منذ زمن بعيد ، وأصبحت الأعمال الفنية اعتباراً من القرن التاسع عشر نتاج حركات إبداع مستقلة عن المستهلكين المحتملين. فقد عمل النظام الجديد للثقافة الجماهيرية وفقاً لمعايير انتاجية مختلفة تماماً ومرتبطة بالتحديد بمقتضيات المنهج التجارى للأسواق الجماهيرية . وفى ظل هذا الضغط المتمثل فى

السعى المحموم الى الربح ، بدا ابداع الفنانين والمصممين مقيداً . وكما يتطلب الانتاج واسع النطاق من سعى لتخفيض النفقات الاقتصادية ، فقد تم توحيد المضامين الثقافية المنشورة و«قوليتها»: ووفقاً لأحكام نظرية شانون فى الإعلام وأحكام النقد الانسانى ، يصبح من المتوقع حدوث تراجع كبير فى أصالة الرسائل . لقد أدت الثقافة الجماهيرية ، كما ورد فى انتقاد دوايت ماكدونالد ، الى حدوث تجانس فى المضامين ترتب عليه تدمير فى القيم المستخدمة كمعايير للحكم على الذوق . وفقد الأفراد بالتالى قدرتهم على التقييم ، وأصبحوا عاجزين عن اصدار أحكام نقدية على العناصر الثقافية المحيطة بهم . وسمح هذا الوضع بظهور استراتيجيات ديماجوجية من جانب الناشرين إزاء جماهير مستهلكة غير ناقدة : وأصبحت هذه الجماهير غير قادرة على التمييز بين جودة بعض المنتجات الثقافية ذات المضمون الأصيل والإعلامى من ناحية وبين الهزال الثقافى لمنتجات أخرى تختفى ركاكتها وراء الغلاف الإعلامى والبريق المظهرى من ناحية أخرى .

وفى المدى المتوسط ، ساهمت هيمنة الصناعات الثقافية فى تخفيض مستوى المتطلبات الجمالية والتربوية : ورأى نقاد الثقافة الجماهيرية أن مستقبل الثقافة الانسانية سيكون مظلما — وأوشكت ثقافة الكتب وكل ماهو مكتوب أن تفقد تأثيرها لحساب حضارة الصورة ذات المضامين الثقافية المختزلة الى شعارات أو « أقراص » اعلامية سهلة الانتشار . ويعزى هذا التطور الى الأهمية التى اكتسبها الاستهلاك والترفيه لدى الطبقات العاملة ، المضطرة للعيش فى ظروف اجتماعية لاتستطيع الفكاك منها بسهولة . ووجدت هذه الجماهير ، الباحثة عن اللهو والترفيه السهل هرباً من العمل الشاق ، ملاذاً جميلاً فى الاستهلاك الذى اتاحته لها وسائل الاعلام والخطاب الإعلانى . وساعد التليفزيون الذى انتشر على نطاق واسع فى مجمل الأراضى الأمريكية فى بداية الخمسينات ، على تعزيز اتجاهات النفور الثقافى هذه ، حسب أقوال نقاد مثل « جانتر اندرز ».[1] وأدى التليفزيون الى تفكيك الأواصر الاجتماعية داخل الأسر وتحويل الأفراد الى مشاهدين سلبيين تابعين . فالفرد لن يذهب قط الى الأحداث طالما انها تنتقل اليه ، ولن يجد أى

ضرورة لخوض تجارب من الدرجة الأولى طالما أن عالم الشاشة الصغيرة ذا الألفة الزائفة يحل محل هذه التجارب . ويقول ماكدونالد : كان من الصعب توقع حدوث تحسن فى هذا الوضع نظراً لأن الثقافة الجماهيرية كانت تدور فيما يبدو فى دائرة مفرغة : فقد كان ضعف مستواها سبباً ونتيجة فى الوقت نفسه « لتواضع المستوى الثقافى للجماهير » .

الانتقادات الموجهة لنقد الثقافة الجماهيرية

يتمثل نقض النقد الموجه الى الثقافة الجماهيرية فى وضع أصحاب النظريات الجماهيرية ، سواء كانوا من اليمين أو من اليسار ، وجها لوجه . حيث سيركز هؤلاء النقاد سواء على الوضع المتميز للمثقفين المشاركين فى هذه المجادلات ، أو على رفضهم لتقبل حقيقة التعددية الثقافية الأمريكية المرتبطة بالأيديولوجية الليبرالية ، أو على تحليلاتهم المراوغة التى تضفى أهمية كبيرة على تأثير وسائل الإعلام فى المجتمع .

لذا فقد حرص ليون برامسون على شرح الرؤية الضمنية التى يعتنقها جميع أصحاب نظريات المجتمع الجماهيرى وانتقادات الثقافة الجماهيرية فقال : إن فكرة « الجماهير » نفسها تولد بالضرورة وعلى الفور فكرة معاكسة هى « الصفوة » . وستوجد فكرة « الصفوة » فى المواقف الأيديولوجية لنقاد الحضارة الجماهيرية بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية . وسواء جاء من اليسار أو من اليمين ، فإن الحديث عن الجماهير لن يأخذ أبداً شكل مقترحات علمية تحتاج الى طعن أو تأكيد ، وانما سيشتمل على أحكام قيمية ترفض الليبرالية المرتبطة بالتحديث . ومن ثم ينص الموقف النقدى الشمولى (لبيرامسون) على رفض الرؤى الضمنية للعالم فى أحاديث نقاد الثقافة الجماهيرية : وهى رؤية تنظم المجتمع فى شكل مدرج ، لحساب الصفوة ، وتعادى الليبرالية الثقافية ، وترفض الانفتاح على إمكانية تحرك الجماهير أو الأقليات الثقافية .

وقد اعتبر عالم الاجتماع « اد وارد شيلز » ، الذى عمل على تحديد

الجوانب الإيجابية لهذه الظواهر الجماهيرية ، انتقاد الثقافة الجماهير بمثابة هجوم أعمى من جانب واحد على المجتمع الأمريكى . والاعتقاد فى أن تطور وسائل الإعلام يمكن أن يكون وحده مسئولاً عن انهيار القيم الأخلاقية والثقافية فى أمريكا ، يعد فى رأيه خطأ تاريخيا واجتماعيا فظيعا كما رفض اعتقاد نقاد الثقافة الجماهيرية فى أنها حلت محل « ثقافة كبرى » كانت تحمل فى طياتها قيمة أبدية ، مما وضعها على طريق الاندثار الأكيد . واستنادا الى الظروف الاجتماعية والمعيشية الصعبة للطبقات العاملة فى الأزمنة السابقة ، تساءل shills عن الحق الذى يسمح لهؤلاء المثقفين الذى ينتمون الى الصفوة بافتراض أن هذا الانتشار المكثف للسلع الثقافية لايشكل تطوراً وتحسيناً للظروف الثقافية بالمقارنة مع الماضى . ألا يعد الاستماع الى مقطوعة موسيقية فى الاذاعة أو الاطلاع على عمل أدبى كلاسيكى فى صورة كتاب للجيب مؤشراً واضحاً على الديمقراطية الثقافية التى يتيحها الانتاج الجماهيرى للسلع الثقافية ؟ ولماذا الاعتقاد فى أن استهلاك هذه السلع فى ظل هذه الظروف يتطلب تجربة ثقافية سطحية ومتنوعة ؟ وماذا يقصد هؤلاء المثقفون الذين لايرون فى ذلك الا « ركاكة ثقافية »؟ .

وركز شكل آخر من أشكال رفض انتقاد الثقافة الجماهيرية على اثبات أن هذه التحليلات اشتملت على انحراف منهجى لأنها أضفت أهمية زائدة على تأثير وسائل الإعلام على الثقافة والعلاقات الاجتماعية . وقد حرص بعض علماء الاجتماع المتخصصين فى مجال الثقافة على اثبات أن ظواهر الهيمنة الاجتماعية الثقافية تنتج عن عناصر مختلفة ومركبة لايشكل المحيط الإعلامى إلا وزنا نسبيا فيها من ناحية . ومن ناحية أخرى ، سنعود اليها فى الفصل التالى ، حاولت البحوث التجريبية على الاتصالات الجماهيرية تحديد مقدار وتأثير وسائل الإعلام الحقيقى على الأفراد .

لذا فقد حاول عالم الاجتماع البريطانى ريموند ويليامز تجاوز المأزق الايديولوجى الذى وقع فيه المتجادلون حول الثقافة الجماهيرية ، عندما وجهوا تحليلاتهم صوب الهياكل الأساسية فى البناء الاجتماعى التى تدخل فى اطارها نظم النشر الثقافى . وتساءل عن فكرة « الجمهور » نفسها التى تشمل فى النهاية

البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسة للطبقات العاملة الناتجة عن عملية التصنيع . وندد ، على سبيل الحكم القيمى المستند الى أولويات ايديولوجية ، بالآراء التى تؤكد أن الثقافة التى تتداولها وسائل الاتصال الجديدة يجب أن تكون أقل وأكثر تواضعاً بسبب طبيعتها الجماهيرية . وكانت هذه الانتقادات تميل غالباً الى نسيان أن المؤسسة التعليمية عنصر حاسم فى استمرار أشكال عدم المساواة الاجتماعية والثقافية . حيث أن الأحكام على « الأشياء الثقافية الجديدة » تصدر بالتحديد عن أقلية ثقافية مسيطرة كفلت لها المؤسسة التعليمية التميز . وفى النهاية فان هذا النظام الثقافى المزدوج ليس سوى انعكاس لهيكل اجتماعى مهيمن تتحكم أقلية من داخله فى أجهزة النشر الثقافى ، مما يؤكد ويعزز نفوذها على الأغلبية .

وقد سعى عالم الاجتماع ريتشارد هوجارت ، من جانبه ، فى دراسة متعمقة حول « ثقافة الفقير » ، اعتمدت على ملاحظات عرقية لأسلوب بناء الأشكال الثقافية فى الأوساط الاجتماعية المعوزة ، الى التوصل للطريقة التى يتسلل بها الخطاب الاعلامى الى الطبقات الشعبية بحيث يمكن على الفور تفسيره من جديد ووضعه فى سياقه المناسب . وأسهمت هذه الدراسة فى جعل فكرة القدرة المطلقة لوسائل الإعلام نسبية ، وأكدت على المخاطر الحقيقية التى يمكن أن يؤدى اليها استخدام مفهوم « الثقافة الجماهيرية » . واستنتج هوجارت أن مساحات ثقافية ضخمة من الحياة اليومية لم يتسلل اليها تأثير وسائل الإعلام . وأكد أيضا على امكانية تحديد الآثار المنتظرة لهذه الوسائل بفضل خصائص هذا النوع من النشر الثقافى نفسها وهو الموضوع الذى سيتناوله جان بودرياد J. فيما بعد بمزيد من الاسهاب . من المؤكد أنه يمكن ابداء بعض التحفظات على استنتاجات ريتشارد هوجارد : واذا كان أسلوبه العرقى يبدو ملائماً تماماً للتسلل الى الأعماق الداخلية لبعض الميكانيزمات الثقافية فى الحياة اليومية المعيشية ، فانه لايسمح على أى حال بتعميمات احصائية هامة . كما أن استنتاجاته المتعلقة بعدم الفعالية النسبية لوسائل الاعلام فى المدى القصير على السلوكيات الفورية للأفراد لاتستبعد بالضرورة فعاليتها الثقافية فى المدى الأطول التى تؤثر على مفهوم «الثقافة ــ

الرمز»، باعتباره القالب الأولى الذى يستخدمه كل فرد لبناء صلاته الاجتماعية . وهو المستوى الذى سيلتصق به عالم الاجتماع « ادجار مورين » كما سنرى فيما بعد . وأخيراً فإن ملاحظات هوجارت العرقية تم جمعها فى سياق تاريخى لم يكن التليفزيون قد وجد فيه بعد . وهذا يدفع الى النظر الى نتائجها بشكل نسبى ، حيث أن فعالية كل وسيلة من وسائل النشر على حدة ليست بالضرورة مشابهة للأخرى .

الثقافة الجماهيرية كأداة اجتماعية

حاول ادجار مورين ، الذى أراد لنفسه أن يكون على هامش النزاعات الأيديولوجية، من خلال دراسة متميزة اجراها عام ١٩٦٢ حول «روح العصر» ، أن ينظر الى الثقافة الجماهيرية باعتبارها أداة اجتماعية، وتبنى من ثم تعريفاً للثقافة يندرج في اطار التقاليد الأنثروبولوجية فهى (جسم مركب من ضوابط ورموز وأساطير وصور تخترق حميمية الانسان ، وتشكل غرائزه وتوجه انفعالاته) وتحدد المسافات بينه وبين كافة المفاهيم المعيارية للثقافة الجماهيرية، وتشكل هذه الثقافة نظاماً خاصاً بها لأنها منتجة وفقاً لمعايير الانتاج الصناعى وتنشرها وسائل الإعلام بين تجمعات بشرية ضخمة وهى تأتى لتضاف الى ثقافات موجودة بالفعل مثل الثقافة الانسانية والثقافة الدينيه أو الثقافة الوطنية. وتحدث فى الواقع تفاعلات مركبة وتنافسية بين هذه الأنظمة المختلفة من التقمص والاسقاط لدى نفس الشخص الذى ينبش على التوالى وبدرجات مختلفة فى هذه الأرصدة العديدة من الصور والرموز والأساطير .

ولم يكتف مورين بتعريف الثقافة الجماهيرية كنظام خاص ولكنه غير شامل ، وإنما سعى الى معرفة التطور والتحول اللذين طرآ على هذه المضامين فى علاقتها بالنظام الاجتماعى والتاريخ . وحرص أيضا على فهم العلاقات الجديدة التى تحكم الظرف الاقتصادى (الانتاج ، الابتكار والاستهلاك) والظرف النفسى

(الاسقاط ، التقمص ، النقل). وخص بالتمييز ثلاث مراحل من التاريخ المعاصر للثقافة الجماهيرية .

ـــ ١٩٠٠ الى ١٩٣٠ . مرحلة شعبية حضرية شهدت انتصار السينما الصامتة كوريث للروايات المسلسلة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر . لقد كانت مرحلة الترفيه بالهروب الى الحلم ، وكان الناس ينظرون الى نجوم السينما الصامتة كما لو كانوا من «جنس اسطورى علوى » .

ـــ ١٩٣٠ الى ١٩٥٥ (خاصة الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٥٥) أوج ازدهار السينما الناطقة التى أدت الى ظهور ميثولوجيا جديدة ، هى ميثولوجيا السعادة الشخصية ، فمع الارتفاع العام لمستوى المعيشة فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا ، بدأت الطبقات الشعبية تعرف طريقها الى الترفيه وأصبح فى إمكان أفرادها أن يطوروا « حياتهم الخاصة » ، وعلى غرار السينما تم غرس ميثولوجيا « النهاية السعيدة » فى الحياة أيضا : حيث تستطيع السعادة الشخصية أن تتغلب على جميع العقبات .

ـــ ١٩٥٥ وما بعدها : من أزمة السعادة وزعزعة ميثولوجيا الفرح ، برزت « إشكاليات » الحياة الخاصة (مشاكل الأزواج والحب والوحدة) ، ولم تعد السينما هى حجر الزاوية فى الثقافة الجماهيرية ، وأصبحت السيادة للتليفزيون فى نفس الوقت الذى تعددت وتنوعت فيه النماذج التى تطرحها وسائل الإعلام .

ومن ناحية أخرى ، فإن ابراهام مولز الذى اهتم بتحليل ديناميكية الثقافة الجماهيرية ، مستلهما نظريتى الاعلام والتوجيه معاً ، اقترح فى عام ١٩٦٧ تحت عنوان «الديناميكية الاجتماعية للثقافة » نوعاً من التنظيم المفيد ينص على مسئولية المدخل التوجيهى عن توحيد الحقل الثقافى (المتميز لدى التيار النقدى) وحقل الاتصالات (المتميز لدى التيار التجريبى) . وتم حينئذ تصوير نظام نشر مضامين الثقافة الجماهيرية كدورة حركة ذات مردود ارتجاعى متصل ومحوِّل . فالمبدعون يضعون الأعمال والنواتج الثقافية الجديدة ويعرضونها على محيط صغير كرقابة أولية ، هذه العملية تفضى الى تشكيل « جدول اجتماعى ثقافى » ، .

يستمد ثراءه هو نفسه من الأحداث . ويتم اختيار هذه النواتج وتداولها بواسطة وسائل الاعلام ــ طائفة من القنوات المختلفة تؤدى الى أساليب ادراك خاصة ــ ثم يتم استيعابها فى محيط متسع من المستهلكين لتشكيل الثقافة الجماهيرية « التى تنشأ منها التوجهات ، والاستقطابات والتغذية الاسترجاعية » التى تأتى لتحدد أنشطة المبدعين . ومن خلال استطلاعات الرأى والتحقيقات التى تطلع المبدع على الشروط المادية لاستقبال الرسائل من جانب المستهلكين ، فانه يجد نفسه « مرتبطا » بناتج أنشطته . ولذا تبدو الدورة الاجتماعية الثقافية بمثابة نظام مقفل ذى رقابة توجيهية . وكان مدخل مولز ، على الأرجح ، هو أعمق التحليلات التى حاولت ادراك هذه الظواهر الثقافية اعتماداً على مفردات الاتصال.

لكن ، أفلا يؤدى نموذج مولز أيضا الى رؤية متميزة للابداع الثقافى ؟ أفلا يؤكد الأثر الحاسم للمبدعين ،المنعزلين بشكل أو آخر ، والمتأثرين بردود الأفعال الارتجاعية الأولى للمحيط الصغير المتميز ، على المضامين الثقافية ؟ ومن ناحية أخرى فان هذا النموذج لايركز البتة على النزاعات الموجودة داخل وسط المبدعين ــ التى أولاها نموذج مودين مزيداً من الاهتمام ــ والتى تعد من الخصائص المهمة لصناعة الثقافة . ويشير انتقاد آخر لنموذج مولز الى « طابعه الثقافى » : فهذه الدورة لن تؤدى الى نتيجة فى مسألة الصلة بين نظام النشر الثقافى والهيكل الاجتماعى . ويبدو أن هذا النموذج ــ المقفل على نفسه ــ يحاول شرح الثقافة بالثقافة . ويتم طرح الأفكار على أساس انها موجودة بشكل مسبق . ولا يطرح مولز قضية أصل هذه الأفكار : كيف ظهرت ؟ وكيف تطورت ؟ ويتعلق العامل الوحيد الخارج عن الدورة بالقرارات التى تؤثر على هيكل وسائل الاعلام . ويكمن العنصر الموضح لطبيعة القرارات حسب كلام مولز فى « القيم » : ولكن هنا أيضا يبرز نفس السؤال ، من أين تأتى هذه القيم ؟ فنظرية السياسة الثقافية الناتجة عن هذا النموذج تفترض ــ بشكل ملموس ــ استقلالية الممارسات الثقافية فى المجتمع ، وتفترض أيضا أن تكون لدى العمل الثقافى القدرة على إحداث تحولات اجتماعية واسعة النطاق . وان كان يتعين أن نستنتج أن الأعمال

الثقافية تدخل فى تفاعل ديناميكى مع مجموعة علاقات القوى الاقتصادية والسياسية الخاصة بمجتمع بعينه . وكان مايو ١٩٦٨ البرهان الأكيد على ذلك .

مراجع : W. BENJAMIN, 1971; L. BRAMSON, 1961; R. HOGGART, 1970; M. HORKHEIMER, T.W. ADORNO, 1974; N. JACOBS, 1964; M. JAY, 1977; D. MCQUAIL, 1969; R.K. MERTON, 1965; J.-L. MISSIKA, D. WOLTON, 1983; A. MOLES, 1967; E. MORIN, 1962, 1971, 1972; J. ORTEGA Y GASSET, 1961; B. ROSENBERG, D.M. WHITE, 1957; R. WILLIAMS, 1961.

١٠ ـــ البحوث التجريبية على فعالية وسائل الإعلام

إستطاع عالم الاجتماع « بول لازارسفيلد » ، بدعم من مؤسسة روكفلر ، وبالتعاون مع « فرانك ستانتون » و « هادلى كانتريك » أن ينشىء فى عام ١٩٣٧ فى مدينة نيوآرك أول مؤسسة أمريكية تضطلع بمهمة دراسة « ماتمثله الاذاعة فى حياة المستمعين » . وهكذا ولد «مكتب البحوث الاذاعية». وانتقل المكتب بعد ذلك الى برينستون ثم استقر نهائياً فى عام ١٩٤٠ فى جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك تحت اسم « مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية » . وقد سعى علماء الاجتماع هؤلاء ، الذين استعانوا كثيراً بتقنيات المقابلات المتكررة ، الى معرفة دور الاتصالات الجماهيرية فى تشكيل الآراء والقرارات الفردية . وركزت مجالات دراساتهم المتميزة على السلوكيات الانتخابية وسلوكيات الشراء ، فضلاً عن استخدامات وسائل الاعلام المختلفة .

ووفقاً لما ذكره الكثير من مؤرخى البحوث الأمريكية فى الاتصالات ، فان ظهور هذه الدراسات التجريبية الأولى خلال الأربعينات والخمسينات التى قام بها علماء الاجتماع حول فعالية وسائل الإعلام ، جاء كرد فعل للمناقشات الأيديولوجية المتعددة حول الثقافة الجماهيرية . وقد وجه علماء الاجتماع اللوم الى نقاد الثقافة الجماهيرية لانهم لم يبنوا قط تأكيداتهم على مجموعة معطيات محققة

وفقاً لمقاييس البحث العلمى المعمول بها حينذاك فى مجال العلوم الاجتماعية . وبدا هذا التيار الجديد فى البحوث التجريبية اذن بمثابة انتقاد لنموذج « المجتمع الجماهيرى » ، واقترح توليف مجموعة من الحقائق العلمية المتعلقة بحقل الاتصالات الجماهيرية .

على أى حال فقد شهد العالم لأول مرة منذ بضعة أعوام إعادة قراءة تاريخية لسياق هذه البرامج الأولية فى البحوث التجريبية وغايتها. ورفض اليهو كاتز ـــ على وجه الخصوص ـــ أن تكون نقطة انطلاق هذه البحوث الأولية هى معارضة النظريات الجماهيرية . ويبدو أن تركيز هذه البحوث الأولية على وظيفة الاقناع فى وسائل الإعلام ، على حساب وظيفتى الاعلام والترفيه ، بدأ بالتحديد فى سياق الحرب « ١٩٣٩ ـــ ١٩٤٥ » الذى كان يدفع الى البحث عن وسائل دعاية تشجع التربية الشعبية وتعبئة المواطنين لصالح المجهود الحربى فى الولايات الأمريكية . فضلاً عن توعية الجماهير بمخاطر الدعاية المعادية . على أى حال فقد تلاقت إشكاليات الاقناع هذه مع الأبحاث التى كان يرأسها كارل هو فلاند فى جامعة « ييل » والتى تتعلق بالتقنيات التى يجب استخدامها لرفع القدرات القتالية لدى الجنود الأمريكيين . وأخيراً فقد شكل الطلب على إجراء تحقيقات اجتماعية من جانب منظمات البث الاذاعى ووكالات الاعلان الحريصة على التعرف بشكل أفضل على مستمعيها ، آخر عنصر متمم يشجع على الإكثار من هذه البحوث التجريبية على فاعلية وسائل الاعلام ، ومضامين الرسائل المذاعة ، والمقارنة بين الوسائل المختلفة ، والخصائص الاجتماعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمستمعين .

إكتشافات التجريبين

كانت أعمال هؤلاء الباحثين مستوحاة من النموذج الوصفى للمعرفة العلمية . أو بعبارة أخرى ، كانوا يطالبون بأن تكون الحقائق العلمية الموضوعة محايدة وموضوعية وأن يكون المنهج المستخدم مستلهماً من قواعد التيقن والدقة

المطبقة فى العلوم الطبيعية . فقد كانوا مقتنعين بأن المعطيات التى جمعوها تسمح بالقاء الضوء على تلك المناقشات الدائرة حول تأثير وسائل الاعلام على الأفراد . وحتى بداية الستينات كانت موضوعاتهم التحليلية تدور أساساً حول نقطتين هما : الوصف الكيفى والكمى للمستمعين ، وقياس الفعالية قصيرة المدى لوسائل الاعلام على الأفراد ، وبالتحديد الآثار المحسوسة بشكل مباشر وفورى للرسائل على الأفراد المحسوبين كمتلقين . ومن ناحية أخرى ، كانت الدراسات العديدة المبنية على تقنيات تحليل مضمون الرسائل بمثابة طريقة أخرى لقياس فعالية وسائل الإعلام .

وفيما يتعلق بالمستمعين ، كانت النتائج الرئيسية لهذا الجيل الأول من البحوث كما يلى : (١) يقضى الأفراد وقتا طويلاً نسبياً فى استخدام وسائل الإعلام (٢) انتشر استخدام هذه الوسائل الحديثة فى البث بين كافة الطبقات الاجتماعية للسكان (٣) يحدث تأثير متآزر نتيجة الاستخدام المتوازى لعدة وسائل اعلامية : فالاستخدام المكثف لإحدى وسائل الإعلام من جانب شخص ما يولد لديه ميلاً الى الاستخدام الفورى لوسائل أخرى (٤) أصبحت سلوكيات ومواقف الأفراد ازاء وسائل الاعلام أميل الى العادية ، حيث صار استخدام وسائل الإعلام جزءاً لا يتجزأ من « أسلوب معيشتهم » (٥) نظراً لبعض التكرارية فى استخدام وسائل الاعلام من جانب الجمهور والتأكيد على بعض الأذواق لديه ، بدأ نموذج ثابت ومتجانس نسبياً لأولويات واهتمامات المستمعين فى الظهور . (٦) توجد علاقات ارتباطية بين الخصائص النوعية لبعض الجماهير واستخدامات معينة لوسائل الإعلام : فقد تبين أن الشباب يفضلون الذهاب الى السينما ، وأن الرجال يفضلون قراءة الصحف ، وأن النساء يفضلن مشاهدة التليفزيون . الخ (٧) يحقق الأفراد الكثير من الإشباعات الذاتية نتيجة لاستخدام وسائل الإعلام (٨) وأخيراً بدا أن طبيعة العلاقات الشخصية التى يتحرك فى إطارها الأفراد تؤثر على طريقة استخدامهم لوسائل الإعلام .

دفعت مجموعة من البحوث ــ التى أجريت حول تأثير وسائل الإعلام فى

المدى القصير ــ ج . كابر فى عام ١٩٦٠ الى التعميم التالى : لايتمتع الاتصال الجماهيرى بالفعالية اللازمة والكافية لإحداث تغيير فى المواقف لدى المتلقين ، فالاتصال الجماهيرى لايكون مؤثراً الا من داخل شبكة مركبة من قنوات التأثير الممكنة . واستند هذا الطرح العام الى سلسلة من الاستنتاجات التى تولدت من تراكم المعطيات التجريبية على مدى أكثر من عقدين : (١) تكون الرسالة فعالة بقدر تعزيزها للمواقف والآراء الموجودة بالفعل (٢) تؤثر أهمية المرسل ــ وتقييم المتلقى الذاتى له ــ بصورة حاسمة على فعالية الاتصال (٣) اذا احتكر مرسل بعينه مصادر الاذاعة ، فان ذلك يؤدى الى زيادة فعالية الاتصال (٤) عدم تعود الجمهور على المضمون المذاع يزيد من فعالية الاتصال (٥) يتم انتقاء وتفسير المتلقين لمضمون الرسائل المذاعة وفقاً لآرائهم واهتماماتهم (٦) تؤثر شبكة العلاقات الشخصية للمتلقى على فعالية الاتصال .

وبذلك تتعارض نتائج البحث هذه مع تأكيدات وأصحاب نظريات المجتمع الجماهيرى . فقد أكد واضعو هذه النظريات ، بوصفهم للمستمعين الخاضعين لالحاح وسائل الإعلام ، أن المجتمع الجماهيرى يضعف الجماعات البدائية ، وأن الاتصالات اللاسلكية مهددة بالانقراض أمام الانتشار الغزير والشمولى للرسائل الاعلامية . ثم وصفوا المستمعين بأنهم كالذرات : حيث لايتبقى منهم عند انتشار الوسائل الإعلامية ، الا مجموعة من الأفراد المعزولين والمجهولين . وأما عن تأثير وسائل الإعلام ، يرى أصحاب نظريات المجتمع الجماهيرى أنه جد شديد : فوسائل الانتشار الحديثة تؤثر بصورة حاسمة ، فى رأيهم ، على مواقف وآراء هذه المجموعة من الأفراد المعزولين والمحكومين من قبل الصفوة المسيطرة على وسائل الاعلام .

ومن ثم نرى أن النتائج التى توصل اليها الباحثون التجريبيون كانت متناقضة تماماً . فلن يتحول الجمهور الى ذرات طالما أن بحوثاً حاسمة تثبت الأهمية الكبرى لقادة الرأى والمجموعة المرجعية فى عملية الاتصال ذات المستويين مع

المتلقين . ولن يحدث كذلك ربط فورى بين الاتصال الجماهيرى والتلاعب ، فقد أثبتت البحوث التى أجريت على المجموعات المرجعية والتأثير الشخصى مدى تعقيد العملية الناتجة عن وسائل الإعلام : فتأثيرها ليس مؤكدا ولابديهياً كما ثبت من فشل بعض الحملات السياسية والإعلانية التى أحدثت تأثيراً عكسياً لذلك الذى كان مرجواً (تأثير بومرانج) فما هو تفسير ذلك ؟ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أكد عرض « كلابر » أن فعالية وسائل الإعلام ضعيفة نسبياً . وفى هذه الظروف ، فإن محاولة وصف عمليات الاتصال على انها نوع من التلاعب ، تنبع من رؤي تفرط الى حد ما فى تبسيط الدور الذى تلعبه وسائل الإعلام فى ظواهر التأثير الاجتماعى .

نقد التجريبيين

أسهمت هذه السنوات العشرون من البحوث التجريبية فى وضع حد للخلاف الأيديولوجى حول تأثير وسائل النشر الحديثة على المجتمعات الصناعية المعاصرة ، ولكن لاينبغى أن نتناسى أن هذا المدخل الوضعى فى بناء الحقائق العلمية هو نفسه ايديولوجى . ألم يقف فى جهة أنصار الأيديولوجية — وهم فى هذه الحالة نقاد المجتمع والثقافة الجماهيرية — وفى الجهة الأخرى أنصار الحقيقة — وهم فى هذه الحالة الباحثون التجريبيون . لقد كانت الحقيقة أكثر تعقيداً : فالتيار التجريبى كان هو نفسه ايديولوجياً ، وكان الباحثون النفعيون الأمريكيون ، الذين اهتموا بدراسة ما يفعله الناس باستخدامهم لوسائل الإعلام أكثر من اهتمامهم بدراسة ما يمكن أن تفعله وسائل الإعلام بالأفراد فى المدى القصير ، هم أول من أكد هذه النقطة .

وكان حرص التجريبيين على دراسة الأثر الفورى وقصير المدى للاتصال الجماهيرى على التحولات شبه التلقائية فى آراء وسلوكيات الأفراد ، قد حجب نموذجاً ضمنياً للاتصال شديد الآلية والتبسيط . كان التجريبيون ، بعدم بلورتهم لنماذجهم النظرية بالقدر الكافى ، يعودون دائما الى طرح نفس التساؤلات

البسيطة، تلك التى يتقبلها الاطار السلوكى الضمنى، وإليها تتطابق — عن غير عمد — مع أسئلة الشركاء الذين يبحثون عن حلول فورية للمشاكل قصيرة المدى. لقد ارتبطت هذه الدراسات بالأفراد اكثر من ارتباطها بالمؤسسات أو الهيئات الاجتماعية ، وعلى مستوى اختيار المتغيرات والنماذج الايضاحية ، تم تكوين تصور ضيق غير نقدى . من ثم ، وعلى حسب كلام علماء الاجتماع النفعيين الأمريكيين مثل « ر .رايت » فان النموذج السلوكى للتجريبيين لايسمح بدراسة الاحتياجات الاجتماعية (أى « الوظائف الظاهرة والكامنة ») التى تحاول الاتصالات الجماهيرية تلبيتها .

وأشار بعض علماء الاجتماع الأوروبيين المتخصصين فى مجال الثقافة — مثل ادجار مورين — الى أن هاجس « الكم » و« الملموس » فى الاتجاه التجريبى الأمريكى جعلهم يحتقرون الاستناد الأساسى الى الكلية الاجتماعية الثقافية : لقد تجاهل التجريبيون أى منظور تاريخى . ولاحظ ادجار مورين أن الدراسة التجريبية للاتصالات الجماهيرية انفصلت تماماً عن أى شكل من أشكال علم الاجتماع الثقافى . ولم تسفر هذه الدراسات التجريبية ، التى تم جمعها تحت النموذج التصنيفى الذى وضعه لاسويل ، (« من ؟ يقول ماذا ؟ لمن ؟ بأى وسيلة ؟ وما هو أثر ذلك ؟) إلا عن اكتشافات سطحية نسبياً ، وقابلة للمناقشة فى آخر الأمر . واقترح مورين دراسة وسائل الاعلام من خلال الثقافات المختلفة التى تعبر عن نفسها فيها والتى تستخدمها بأشكال مختلفة : « الثقافة الجماهيرية » ، و «ثقافة المثقفين» و « الثقافة المدرسية » و « الثقافة أو الثقافات السياسية » الخ .

وبدت الإشكالية المجزأة للتجريبيين مرتبطة ارتباطاً مباشراً بالسياق الاجتماعى الذى تجرى فيه هذه الأبحاث . وكانت هذه التحقيقات تتم عموماً بتوجيهات من المسئولين عن النشر (صحافة — سينما — اذاعة ثم تليفزيون) ومن الوكالات الإعلانية الراغبة فى التعرف على مدى فعالية رسائلها والخصائص الاجتماعية الاقتصادية لجمهورها . لقد طرح الشركاء أسئلة محددة على أنفسهم تتعلق

بالضرورة بالمدى القصير : فلم يكن لهم ـــ بداية ـــ أى مصلحة فى تمويل بحوث نظرية .

وقد دفعت هذه « البحوث الادارية » ، حسب تعبير بول لازارسفيلد الاتجاه التجريبى الى تفريغ اشكالياته من أى منظور نقدى فى الأساس يمكن أن يسىء الى نظام النشر نفسه . بيد أن هذا الغياب للمنظور النقدى يمكن أن يختفى وراءه مغزى سياسى . وظل الباحثون التجريبيون ، الذين اهتموا أساساً بتلبية الاحتياجات التجارية والنفعية قصيرة المدى للشركاء ، غير مبالين بعدة أبعاد للآثار الاجتماعية للاتصال الجماهيرى برغم أهمية هذه الأبعاد . وقد عملت وسائل الإعلام الجماهيرية ، التى كانت بمثابة آليات متميزة لانتقاء المعلومة التى يتم تداولها فى المجتمع كنظام سياسى ، على مستوى أبعد من المستوى الفردى (مستوى المنظمات) : فمارست دوراً ايديولوجيا وساهمت فى أغلب الأحيان فى تدعيم الوضع الراهن والصلات الاجتماعية القائمة بالفعل . وأصبحت الفترة التى بدأت مع قدوم الستينات مسرحاً لادانة نموذج الآثار قصيرة المدى للاتصال الجماهيرى . وحدث ذلك سواء من جانب الباحثين الذين اعتنقوا منظوراً نقدياً فى الأساس أو أولئك الذين أيدوا على الدوام الإشكاليات التى طرحها بول لازارسفيلد قبل عشرين عاماً .

حدود نموذج الآثار قصيرة المدى

رد التجريبيون على اسطورة القدرة الشمولية لوسائل الإعلام والتى أيدها وروج لها نقاد المجتمع الجماهيرى ، بطرح استنتاج قاس : فوسائل الإعلام اما أن تكون غير فعالة على الاطلاق أو تكون قليلة الفعالية نسبياً . بيد أن هذا الطرح شكل فى حد ذاته اسطورة جديدة : أو كما قال عالم الاجتماع البريطانى جيمس هالوران فقد قلص مفهوم « النفوذ » الى مفهوم «الفعالية » مما يعنى الانتقال من أسطورة القدرة الشمولية لوسائل الإعلام ، عبر تعريف مقيد لآثار تلك الوسائل ، الى اسطورة عدم قدرتها .

وقد استمرت هاتان الرؤيتان المتعارضتان تغذيان بقوة المجادلات الأيديولوجية المتعلقة بدور وسائل الاعلام فى المجتمع حتى بداية الستينات . وليس ثمة مايؤكد أن معرفتنا بآليات النفوذ الاجتماعى الحقيقى حققت أى قدر من الدقة والعمق خلال هذه الفترة . وحتى الستينات كان الباحث المهتم بالاتصال الجماهيرى يجد نفسه أمام المعضلة التالية : اما أن يؤيد الروح الجدلية لنقاد المجتمع والثقافة الجماهيرية وتصبح أقواله النظرية معروفة بأنها تفتقر الى الدقة العلمية ، أو يقف الى جانب البحوث التجريبية وتصبح استنتاجاته المجزأة غير قادرة على تشكيل الاطار النظرى اللازم لفهم عميق لآليات التأثير الاجتماعى لوسائل الإعلام . وتتبدى يوما بعد يوم ضرورة المقاطعة العلمية لكلا التيارين ولمفهومى « التلاعب » و « الفعالية » الأوليين اللذين يطرحهما هذا التيار أو ذاك لبناء اشكالية مناسبة ، وهذا ما حاولت أن تفعله عدة تيارات بحثية خلال عقدى الستينات والسبعينات .

نبع مفهوم التلاعب من نموذج سببى مبسط يربط بشكل آلى بين خصائص ومضامين الرسائل المذاعة من ناحية والتغير الذى يطرأ على الظروف الاجتماعية والثقافية من ناحية أخرى . بيدأن هذه الصلة السببية لم يتم التثبت منها قط : هل توجد بالفعل ؟ اذا كانت الاجابة نعم ففى أى اتجاه ؟ اذا كانت هذه الصلة موجودة ، يمكن أن نفكر فى كون وسائل النشر الحديثة نتيجة وسبب فى نفس الوقت للتغير الاجتماعى والثقافى . وهنا يبدو تعريف عملية التأثير الاجتماعى لوسائل الإعلام على اعتبار أنها آلية تلاعب محضة غير مُرضٍ ، فاذا كان الخطاب الإعلامى يؤثر على البيئة الاجتماعية فهو أيضا يتأثر بها فى الوقت نفسه .

وقد اختصر التجريبيون — من جانبهم — مفهوم « التأثير » الى مفهوم أولى « للفعالية » قصيرة المدى للرسائل المنشورة . ويرجع هذا الاختصار المعنوى — كما رأينا — الى الظروف الموضوعية لسوق البحوث الادارية : فالشركاء لايهتمون إلا بالآثار قصيرة المدى لوسائل النشر . غير أن تأثير وسائل النشر يتحقق أيضا فى المدى الطويل وفى قطاعات غير متوقعة .

أشار جيمس هالوران الى أن التجريبين أخطأوا عندما اختصروا إشكالية فعالية الرسائل الى مسألة مواقف وتغير فى المواقف . فتغيير السلوك لايكون دائما مسبوقاً بتغير فى المواقف : حينما يكون الاهتمام الفردى بمشكلة ما (ربما تكون مهمة اجتماعياً) ضعيفاً ، يمكن أن يحدث تغير فورى فى السلوك ــ ربما يأتى على سبيل المثال من تأثير وسائل النشر ــ ومن ثم يسهم فى تحول تدريجى فى المواقف . ولذا فان التعديل الذى قد يطرأ على الاختيار الفردى لمرشح ، مابين الجولة الأولى والجولة الثانية للتصويت ، لايعنى بالضرورة تغييراً فى الموقف السياسى للناخب . ومن ناحية أخرى ، كما يقول هالوران ، يكون من المهم وضع التساؤلات التى لم تطرح والبحوث التى لم تُجّر فى الحسبان . لقد كان الأمر يقتصر غالباً ــ حتى ذلك الحين ــ على وصف « نقطة الوصول » فقط فى عمل وسائل الإعلام : هل تم استقبال الرسالة بشكل جيد أم لم يتم ؟ وكان دور رجال الإعلام ومتطلبات انتاج الرسائل ، وعمليات اتخاذ القرار فى مؤسسات النشر ، والعناصر ذات الطبيعة الاقتصادية والسياسية ، تلقى تناسيا منتظما من جانب البحوث التجريبية . ولم يكن من الممكن عند تحليل تأثير وسائل النشر اختصار البعد السياسى فى العملية ، كما أن هذا التحليل كان يجب أن يكشف فى لحظة أو أخرى عن دور وسائل النشر فى المحافظة على الصلات الاجتماعية كما هى أو تغييرها .

ومن ثم فإن الأثر الاجتماعى للرسائل لايمكن أن يتقلص ليقتصر على آلية تلاعب محضة بالرأى العام ، أو تأثير قصير المدى على تغيير الآراء والمواقف الفردية . إن تأثير وسائل الاعلام جد حقيقى ، ويمارس بأشكال مختلفة ، مباشرة وغير مباشرة ، فهو يطرح بعض النماذج والأدوار الاجتماعية ويرفع من قيمتها ، بالتأكيد على بعض القوالب ، وباقتراح بعض التصرفات التى يقرها المجتمع . الخ . فإشكالية النشر لايمكن أن تتقلص الى الاتصال المتعمد : فكل ما ينشر لايصل بالضرورة ، وكل ما نقصد توصيله لا يكون بالضرورة منشوراً .

ولأن الرؤى النقدية للمجتمع الجماهيرى تطلبت اللجوء الى نموذج ضمنى

فى الاتصال وفقاً لمفردات التلاعب ، ظل نموذج لاسويل (من ؟ يقول ماذا ؟ ...) هو نموذج الاتصال لفترة طويلة بالنسبة للبحوث التجريبية الأولى . وبرغم أن لاسويل صمم نموذجه فى الأصل ليحقق غايات تصنيفية تعتمد على تجميع أنواع مختلفة من الأعمال التجريبية ، فإن استخدام هذا النموذج تجاوز بكثير غايته الأساسية : لقد أصبح النموذج التصنيفى هو النموذج الحقيقى للاتصال بالنسبة للتجريبين .

البحوث التجريبية الجديدة

لم يكن فى استطاعة بعض الباحثين الأمريكيين ، الذين أعلنوا عن انتمائهم للمدرسة التجريبية ، أن يظلوا غير مبالين بالانتقادات المتعلقة بالحدود النظرية لنماذجهم ، لاسيما وأن لازارسفيلد نفسه لم يشأ أبداً أن يحصر البحث حول وسائل الاعلام فى الاشكالية « الادارية » المتمثلة فى الاقناع والآثار قصيرة المدى . وأثبت اليهوكاتز فى مقال حديث نشره أن لازارسفيلد وضع منذ عام ١٩٤٨ تصنيفا لآثار وسائل الاعلام ، تلاقى فيه بعد الزمن (آثار فورية ، قصيرة المدى ، طويلة المدى ، مؤسسية) مع بعد الأسباب المحتملة لهذه الآثار (برنامج أوحد ، نوع البرمجة ، البنية الاجتماعية والاقتصادية للوسيلة ، الخصائص التكنولوجية للوسيلة) . وقد سمح له هذا التصنيف بتحديد ستة عشر نوعاً من الأبحاث الممكنة حول تأثير وسائل الإعلام ، بدءاً بحالة الآثار الفورية لبرنامج معين من برامج الاذاعة على آراء المستمعين ، ووصولاً الى الآثار العميقة لسرعة نقل المعلومات عن طريق الاذاعة على الحضارة الغربية . واستنتج لازارسفيلد ، الذى ندد بالصعوبات المنهجية والمالية المرتبطة بهذا النوع من الأبحاث فى المدى الطويل ، أن تطبيق هذه الدراسات على الآثار قصيرة المدى لايمكن أن يؤدى الى الإحاطة بالآثار العميقة لهذه الوسائل على الأفراد ، فهى وسائل تعزز بعض مظاهر الواقع الاجتماعى وتخفى مظاهر أخرى . ويقول كاتز إن استخدام أسلوب المواجهة المتكررة (حيث يتم استجواب نفس الأفراد فى لحظات مختلفة متعاقبة) يشكل

بالنسبة (للازارسفيلد) ، منذ بداية دراساته على وسائل الإعلام ، وسيلة منظمة لوضع البعد الزمنى فى الحسبان .

ثمة تياران رئيسيان ميزا البحوث التجريبية التى جعلت تقاليد مكتب البحوث الاجتماعية التطبيقية تستمر حتى الستينات والسبعينات . فمن ناحية ، وانطلاقا من استنتاج يقول إن بعض المستمعين يميلون الى اختيار بعض أنواع الرسائل وتفضيل بعض الوسائل على أخرى ، حاول بعض الباحثين تحديد دور بعض المتغيرات النفسية أو الاجتماعية فى هذه الاختيارات . وكلما حققت هذه البحوث تقدماً ، يزداد اقتناع القائمين عليها بأن المستمعين يحققون إشباعات خاصة من المضامين الإعلامية التى يستقبلونها ، وأن هذه الاشباعات يمكن التعرف عليها عملياً وقياسها كمياً . وهكذا ولد تيار الدراسات المتعلقة بإشباعات مستخدمى وسائل الاعلام (« بحوث الاستخدامات والإشباعات ») . وخلال السبعينات ، تعقدت هذه النماذج : وبذلت محاولات لايجاد صلات بين توقعات المستمعين ودوافعهم من جهة وبين آثار وسائل الإعلام من جهة أخرى . وأخيراً ، أدى هذا النوع من البحوث الى الإشكالية النفسية للاحتياجات التى يمكن تلبيتها باستخدام وسائل الإعلام ، والاشكالية الاجتماعية الخاصة بوظائف وسائل الإعلام فى المجتمع .

واليوم ، فإن الباحثين الذين يعدون امتداداً لهذه النزعات يهتمون بالمشاركة النشطة للمستمعين فى عملية بناء المدلولات الخاصة بالرسائل التى يتلقونها . ويولون اهتماماً لظاهرة فك رموز الرسائل الإعلامية من جانب المتلقين الذين يعتبرون فعالين فى عمليات انتاج المعانى ، وتم تعريف عملية فك الرموز هذه اما باعتبارها عملية نفسية اجتماعية يدخل بواسطتها المستخدم فى « حوار دلالى » مع المضامين المذاعة ، أو كعملية تفاعلية وشخصية يندرج خلالها الانتاج الشخصى للدلالات ضمن الديناميكية الثقافية للمجتمع، ككل الذى ينتمى اليه المستخدم وقد اختار « كاتز » و « ليبز » ، اللذان مارسا هذا النوع من التحليل ، أن يدرسا على سبيل المثال ـــ الكيفية التى تم بها فك رموز المسلسل الأمريكى

« دالاس » فى الأوساط الثقافية المختلفة وكيف تداخلت بعض محتويات هذا المسلسل بمهارة فى نسيج الحوارات اليومية . لقد وصفا على سبيل المثال كيف يمكن أن تؤدى المناقشات بين المشاهدين أمام الشاشة الصغيرة سواء الى فهم أفضل للحبكة الدرامية ، أو على العكس تنمى تفسيراً « خاطئاً » لمضمون البرنامج ، وهو تفسير يكون مرتبطاً بشفرة خاصة بالجماعة الثقافية التى ينتمى اليها المشاهدون (لذا فان أفراد بعض المجتمعات يفضلون تخيل وجود علاقة زوجية بدلاً من العلاقات غير الشرعية اذا كان هذا الوضع الأخير يصدم معاييرهم الأخلاقية فى الحياة) . ولاحظ « كاتز » و « ليبز » أن غير الأمريكيين يميلون الى اضفاء « صبغة حقيقية » على حكايات دالاس أكثر من الأمريكيين أنفسهم . وحسبما يرى اليهوكاتز ــ الذى يشترك أيضا مع دانيال دايان فى ملاحظة عملية فك الرموز من جانب المشاهدين « للأحداث الإعلامية الكبرى » ــ فإن عملية الملاحظة المنتظمة لفك الرموز الذى يختلف تبعاً للجماعات الثقافية المختلفة إزاء برنامج مثل دالاس يشكل وسيلة تجريبية جديدة لدراسة آثار التغلغل الثقافى (التليفزيونى) الأمريكى فى دول العالم المختلفة . أو بعبارة أخرى ، يمكن أن يحدث هنا تقارب محتمل بين التيار النقدى والتيار التجريبى .

ثمة تيار آخر فى الدراسات التجريبية المعاصرة يعد امتداداً للدراسات الأولى المتعلقة بأهمية العلاقات الشخصية فى نشر المعلومة الإعلامية . ومما يذكر أن لازارسفيلد وبيرلسون وجوديه أكدوا منذ عام ١٩٤٨ ، فى الدراسة التى أجروها بعنوان « اختيار الشعب » والمتعلقة بتأثير الصحافة والاذاعة على الآراء السياسية فى فترة الحملة الانتخابية ، على الأهمية الحاسمة لتأثير شبكات العلاقات الشخصية على تشكيل الآراء . وأرسوا حينذاك مفهوم « قادة الرأى » ، الذى أشرنا اليه فيما سبق ، لتحديد الأشخاص الذين يمكن أن يلعبوا دور وساطة كبير فى التغلغل الفعال للمعلومة التى تبثها وسائل الإعلام . ثم طرح لازارسفيلد فرضية « الاتصال على مرحلتين » لوصف ظاهرة انتشار المعلومة الصادرة من

وسيلة اتصال جماهيرى عبر شبكات العلاقات الشخصية . وقد أدى هذا النوع من الإشكاليات الى إجراء أبحاث تتعلق بالإنتشار الاجتماعى لبعض الابتكارات التقنية الحديثة مثل الدراسة الخاصة باستخدام بعض الأطباء الأمريكيين لأدوية جديدة . وتبين حينذاك الدور الحاسم للتأثير الشخصى فى عمليات الانتشار هذه ، بينما لم تقم وسائل الإعلام الابتدعيم الميول والقرارات المتخذة بالفعل

وفى عام ١٩٦٢ ، توصل عالم الاجتماع ايفريت روجرز الى نموذج لدراسة الانتشار الاجتماعى للابتكارات التقنية ، وبعد أن ركز روجرز على الانتشار التدريجى للابتكارات والمعرفة التجريبية بالعوامل التى تشجع اختيار أفراد من أصحاب الشخصيات والفئات الاجتماعية المتميزة للابتكارات التقنية ، استطاع أن يحدد الأهمية الحاسمة للهياكل الاجتماعية الخاصة بالاتصال فى عمليات اختيار الابتكارات . لذا يكون التأثير الشخصى المباشر لمندوب مبيعات خلال مناقشة مع عميل محتمل أكثر فعالية بكثير من حملة اعلامية . وقد اكتسب هذا النوع من الأبحاث أهمية متزايدة بمرور الوقت وأدى الى الدراسة المنتظمة لشبكات الاتصال الاجتماعية فى عمليات التأثير .

تحديات واجهت النماذج السائدة فى البحث

بينما كان معتنقو التيار التجريبى يعملون على تطوير نماذجهم البحثية ، حاول باحثون آخرون التفكير فى وسائل الإعلام بصورة أخرى . فهم يرون أن تحليل التأثير الاجتماعى لوسائل الإعلام يجب أن يضع فى الحسبان ما يتم توصيله بشكل لا ارادى ، أو بالاحرى ما ينتشر بشكل اضافى ــ فتأثير الرسالة المذاعة لايقتصر على مايصدر عن « الإعلاميين » الذين ربما يملكون خطة سيطرة ميكيافيلية . فمضامين الرسالة المذاعة تتجاوز بكثير القصد الأول للمرسل . وهذا المرسل لايستطيع السيطرة تماماً على الكلام الذى يصدر عنه ــ ولا يوجد « مفتاح سحرى » يضمن بطريقة مؤكدة الاقتناع المحتمل للمستمعين المعرضين لوسائل الإعلام .

كان التيار التجريبى ، بتقليصه للتأثير الاجتماعى لوسائل الإعلام لتصبح مجرد فعاليةقصيرة المدى للرسائل المذاعة ، قد شبه هذا التأثير بقياس موضوعى خادع لتأثير المعالجة المفترضة من جانب التيار النقدى . وهنا تلاقى التياران المتعارضان . فكلاهما يدافع عن نفس التصور المبسط : كل مايذاع « يمكن أن يصل ويمكن ألا يصل » . اذن فالمسائل الجوهرية لها مكان آخر : فى عملية تحريف معنى الرسائل طوال رحلة بثها . وستحاول عدة تيارات فى البحث النقدى ظهرت خلال الستينات والسبعينات أن تضع فى حسابها مسألة تأثير وسائل الاعلام مع محاولة غض النظر عن اشكالية الآثار التلاعبية قصيرة المدى . ومن ثم حاولت هذه التيارات المختلفة تضمين نماذجها الايضاحية أبعاداً « فوق اتصالية » تأخذ فى الاعتبار هذه المعانى الزائدة ، الخاصة بالحقيقة المركبة للانتشار . وبصورة اجمالية ، يمكن أن نقول ، أن الباحثين النقديين الأمريكيين والأوروبيين ركزوا خلال هذه الفترة على ثلاثة أبعاد أساسية هى بالترتيب : الأبعاد التقنية والرمزية والاجتماعية السياسة . وسنحاول فى الفصل التالى أن نعرض أبرز ما فى هذه الموضوعات المطروحة كبدائل لتناول وسائل الإعلام بعيداً عن النماذج التى ظلت سائدة حتى ذلك الحين .

مراجع : B. BERELSON, G.A. STEINER, 1964; J.G. BLUMLER, E. KATZ, 1974; L. BRAMSON, 1961; D. DAYAN, E. KATZ, 1987; M.L. DEFLEUR, S.J. BALL-ROKEACH, 1982; J. HALLORAN, 1970a, 1970b; C.I. HOVLAND et *alii*, 1953; M. JANOWITZ, R. SCHULZE, 1961; E. KATZ, 1987; E. KATZ, P. LAZARSFELD, 1955; E. KATZ, T. LIEBES, 1985; J.T. KLAPPER, 1960; H.D. LASSWELL, 1960; P. LAZARSFELD, 1941, 1948; P. LAZARSFELD et *alii*, 1948; D. MCQUAIL, 1983; E. MORIN, 1971; E.M. ROGERS, 1962; E.M. ROGERS, D.L. KINCAID, 1981; B. STERNBERG, E. SULLEROT, 1966; D.M. WHITE, 1964; C.R. WRIGHT, 1964.

١١ ـــ بدائل للتفكير فى وسائل الإعلام

خلال الستينات والسبعينات ، ظهرت فى أمريكا الشمالية وأوروبا تيارات بحثية جديدة أسهمت فى تجديد اشكاليات دراسة وسائل الإعلام بصورة جذرية ، مما جعل عالم الاجتماع البريطانى روبرت وايت يقول أن هذه المرحلة كانت نقطة تحول نحو نموذج جديد .

ولنتوقف هنا برهة لايضاح نموذج الاتصال الذى كان موجوداً ضمنيا فى الغالبية العظمى من الأعمال المتعلقة بالاتصال الجماهيرى التى أنتجت حتى ذلك الحين . لقد رأينا ، فى الفصل السابق ، كيف تلاقى التياران البحثيان المتناقضان : النقدى والتجريبى ، فى النهاية عند اقتناع مشترك بامكانية حدوث تلاعب فى الرسائل خلال عملية الانتشار الجماهيرى . وتم الاستعانة فى هذه الفرضية بنموذج للاتصال بسيط نسبياً يجد أسس توصيف عملية الاتصال فى الأعمال الكلاسيكية لـ «ويفر» و «شانون» الخاصة بنظرية الإعلام وفى اللغويات البنيوية لجاكوبسون وفى المسألة النموذجية للاسويل ، انه نموذج نقل الرسالة أحادى الاتجاه أى من نقطة الارسال الى نقطة الاستقبال . وهذا النموذج يتطلب التعمد (الرغبة فى البث) من جانب المرسل ليس ذلك فحسب وإنما مهارة المرسل فى التواصل لأن نجاح الاتصال (« الفهم » المتبادل بين المرسل

والمستقبل) يتوقف على تطابق الرسالة المرسلة والرسالة المتلقاة .

وهذا التعريف هو الذى سيستخدم كأساس ضمنى لقياس نجاح الفعالية قصيرة المدى للرسالة فى تشكيل الآراء أو تبنى سلوكيات مطلوبة لدى المستقبلين . إذن فنجاح الاتصال يعتمد أساساً ، فى هذا النموذج ، على مهارة المرسل فى أن يجعل المتلقى منتبهاً بالقدر الكافى ويتلقى الرسالة كما أرادها له المرسل . ويكون دور المتلقى هنا سلبيا تماماً فى عملية بناء دلالات الرسالة ، ومن ناحية أخرى لايتم وضع طبيعة أداة النقل (الوسيلة الإعلامية ، التقنية) ولا السياق الاجتماعى الأوسع الذى تتم فيه عملية الاتصال فى الاعتبار بشكل منظم فى هذا النموذج . وسنجد أن هذه الحدود الدلالية « لنموذج النقل » هى التى سيتم تناولها ونقدها بالتحديد من جانب اتجاهات البحث الجديدة حول وسائل الإعلام .

وقد سعت هذه التيارات المختلفة لأن تضمن نماذجها الإيضاحية أبعاداً يمكن وصفها بأنها « فوق اتصالية » ، لأنها حاولت كما رأينا أن تضع فى حسبانها « المعانى الاضافية » المرتبطة بالطبيعة المركبة للانتشار ، وهى اضافات ترجع الى سياقات لفك الرموز أكثر اتساعاً من مجرد التفاعل بين المرسل والمستقبل . ويصر بعض الباحثين على أن عملية الاتصال لاتتركز بالضرورة أو تقتصر على الرغبة فى توصيل معلومات محددة : فبعض الحركات الاتصالية ليس لها من وظيفة سوى المحافظة على استمرارية « الصلة » ، فى سياق تكون فيه طبيعة المضامين المنقولة بلا أهمية . وكما ذكرنا فى ختام الفصل السابق ، سنصف هنا الأبعاد الثلاثة الرئيسية التى ركزت عليها الأجيال الجديدة من الباحثين الأمريكيين أو الأوروبين فى تناول وسائل الإعلام بطريقة مختلفة وهى الأبعاد التقنية والرمزية والاجتماعية السياسية .

البعد التقني

بعيداً عن محاولة امتداح فكر مارشال مكلوهان ، الذى ينتمى الى التنبؤ

اكثر مما ينتمى للنظرية العلمية ، لايمكن أن ننفى أن تصوراته التى تم الترويج لها بشدة داخل الثقافة الإعلامية خلال الستينات ، زعزعت وجهات النظر الأكاديمية حول الاتصال الجماهيرى . يرى ماكلوهان أن الباحثين الذين خلطوا بين وسائل الإعلام والمضامين التى تنشرها أغفلوا خصوصية الوسيلة نفسها باعتبارها وسيطاثقافيا : ويتمثل تأثير وسيلة جديدة تظهر داخل ثقافة معينة فى تغيير ظروف الادراك الحسى الخاصة بهذه الثقافة . وتصبح وسائل الإعلام مجازية وامتداداً لأنشطتنا الجسمانية العقلية ويمكن أن تترجم وتعيد ترجمة خبراتنا اليومية بطريقة أو أخرى وتؤثر على وعينا بها .

ولوصف الأثر الثقافى لوسيلة ما فى حد ذاتها ، أكد ماكلوهان على فكرة أن كل وسيلة تقنية يمكن أن تجتذب حواسنا المختلفة (البصر ، السمع واللمس) بطريقة معينة عن طريق فرض نظام خاص بها فى استخدام هذه الحواس ، يختلف من وسيلة لأخرى . ومن ثم توجد علاقة بين رسوخ وسيلة فى ثقافة معينة والصلات بين الحواس المختلفة فى هذه الثقافة نفسها . كذلك فإن الاستخدام المكثف لوسيلة ما يمكن فى المدى الطويل أن يؤدى الى إرغام الأفراد على استخدام حاسة معينة ــ فحضارة الطباعة على سبيل المثال أخضعت جميع قوانا الادراكية لحاسة الرؤية وأضعفت حاستى السمع واللمس ــ مما أوجد نوعاً من عدم التوازن بين الحواس فى هذه الثقافة وهو ما أسماه ما كلوهان « تناسب الحواس » . وكان ظهور أى وسيلة جديدة يؤدى الى شكل جديد وتعقيد محتمل لنسب الحواس التى ظلت تميز ثقافة معينة حتى ذلك الحين . ويترتب على ذلك قيام علاقة بين هذا الشكل الحسى والحياة النفسية للأفراد الذى يعيشون فى هذه الثقافة ، ويرى ماكلوهان أن حاسة البصر تؤدى الى اكتساب خبرات ذات طابع تحليلى وعقلى ، أما السمع واللمس فيشجعان الخبرات العاطفية والبديهية .

ويلاحظ أن تفكير ماكلوهان فى وسائل الإعلام ، على عكس أسلافه ، يتغاضى عن تحليل المضامين المتداولة ليركز على الخصائص المادية للوسائل والأثر المنتظر من هذه الخصائص على نفسية المستخدمين . وفى محاولة لوضع ما يمكن

أن نسميه « قواعد الوسائل » (كمقابل « لقواعد الرموز » التى اقترحها المتخصصون فى تحليل المضمون) ، أدخل ماكلوهان التمييز بين الوسائل الساخنه Hot والوسائل الباردة cool . حيث لايتطلب النوع الأول من المستخدم مشاركة كبيرة : وهو يجتذب حاسة واحدة ولكنه يرسخ المعلومة فى ذهنه بدرجة عالية . أما وسائل الإعلام الباردة فتؤثر — بعمق وفى وقت واحد — على عدة حواس ، ولكنها لاتوصل الا قدراً محدوداً من المعلومة : لذا فانها تفترض مشاركة كبيرة من جانب المستخدم . وقد أسهم هذا التمييز الحاد بالتأكيد فى الانتقاص من قدر ماكلوهان فى أعين عدد كبير من المتخصصين: فقد أثبت كينيث بولدينج — على سبيل المثال —الضعف الإدراكى لتعريفات ماكلوهان ، حيث يرى بولدينج أن خطأ ماكلوهان تمثل فى محاولة النظر الى خصائص وسائل الإعلام من بعد واحد فقط بينما كان يجب تناولها على الأقل من ثلاثة أبعاد : أ) درجة الحاح الوسيلة ، أى مستوى المشاركة النفسية المطلوب من متلقى المعلومة . ب) تأثير الوسيلة ، بمعنى قدرة الوسيلة على إحداث رد فعل لدى المتلقين . ج) وأخيرا كثافة المعلومات التى تنقلها الوسيلة . وقد ربط ماكلوهان — الذى تبنى وجهة نظر تاريخية — بين التقدم التقنى لأساليب الاتصال وتطور الهياكل الاجتماعية ، بما فيها هياكل السلطة . وحرص الكاتب — الذى وصف بايجاز الفترة الأولى من تاريخ البشرية كتاريخ قبيلة تتميزبالتعبير الشفهى ، والشمولية الحسية ، والانغماس فى الجماعية — على وصف عملية « نزع الروح القبلية » التى ترتبت على التعليم وخصوصا الطباعة . فقد أدت الطباعة الى « انفجار » أسفر عن تفتيت نظام قديم وصلب الى ذرات بشرية متفرقة ، متميزة وآلية أدت بدورها لظهور الاقتصاد التقليدى والبروتستانتية وخطوط التجميع . لكن عصرنا الحالى — الألكترونى — يشهد على العكس « عودة الى القبلية » : فقد أحدثت الكهرباء حالة « انبجاس » وحدت الجهاز العصبى للإنسانية جمعاء فى كل متزامن ، وجعلت من العالم تدريجياً قرية شاملة قبلية وعالمية . وكان الانتقال من عصر جوتنبرج الى عصر ماركونى يعنى بالنسبة للغرب تحولاً عميقاً فى الوعى الانسانى : الذى كان

من قبل فردياً وتحليلياً ثم أصبح شمولياً وبديهياً . وظل النموذج المثالى لماكلوهان هو رجل النهضة الذى يتطلع الى التوازن بين العقل والعاطفة ويظل منفتحاً على الامكانات المتعددة للابداع البشرى .

وكان أحد أوجه تفرد ماكلوهان هو بالتأكيد أسلوبه غير الأكاديمى : حيث كان يستخدم بانتظام القياس لتقريب الظواهر التى يحللها ، وكان يستمتع بترديد انه يستخدم « مجسات » للكشف « صوتياً » على معداته واحداث رنين فيها . وعندما أعلن ، على سبيل المثال أن « الوسيلة هى الرسالة » أو أن « محتوى وسيلة جديدة هو نفس الوسيلة التى سبقتها »، انما كان يسعىَ فى الأساس لتشغيل عقل القارىء اكثر من التساؤل عن طبيعة ظاهرة وسائل الإعلام . وكان عقل ماكلوهان يعبر عن فكره بأسلوب الاستفزاز . وكانت جميع مؤلفاته عبارة عن مجاز ضخم مطبوع بالسخرية ومبنى **على « دوائر قصيرة » اختيارية فى العقل** . فايجازاته الإدراكية المتعددة وأخطاؤه التاريخية لايمكن أن ترضى بالتأكيد عقلية متشددة . لذا من العجيب أن نتبين أن مجلة Journal of communiation الأكاديمية والجادة والتى تلقى تقدير الباحثين الأمريكيين فى هذا المجال ، خصصت فى عام ١٩٨١ ملفاً كاملاً لأعمال مارشال ماكلوهان الذى توفى فى نهاية عام ١٩٨٠ . كما لو كان بعض المفكرين الأكاديميين قرروا بعد عشرين عاماً أن يبدوا استعداداً للاعتراف بماكلوهان كواحد منهم . وبقى أن نقول أن ماكلوهان ، الذى أخذ يحثنا منذ الستينات على النظر الى تأثير وسائل الإعلام على مستوى الثقافة التى يندرج فى إطارها ككل ، أسهم فى طرح سؤال جذرى حول فرضية حياد التقنية وإعادة الطرح العميق لإشكالية آثار وسائل الإعلام التى لم يكن قد تم تعريفها حتى ذلك الحين الا بشكل مختصر جداً . وربط عدد كبير من النقاد بين فكر ماكلوهان واشكالية الحتمية التقنية . وإن كان روبرت وايت قد أشار فى الواقع الى أن المجادلات النظرية الحادة جداً التى اثارتها آراء ماكلوهان ربما تكون هى التى جعلت الباحثين فى مجال الاتصال يأخذون فى

الاعتبار أكثر وأكثر الآثار الثقافية بعيدة المدى للابتكارات التقنية فى مجال الاتصال ويرون أن التغيرات التقنية والثقافية لم تكن لتتفسر دون الرجوع الى صلاتها الحميمة بالسياق الاجتماعى الذى تندرج فيه .

البعد الرمزى

فى الستينات تم افتتاح مركزين للأبحاث فى أوروبا تركا بصمات واضحة على دراسات الاتصال الجماهيرى بتركيزهما على البعد الرمزى للثقافة المعاصرة . ففى فرنسا شارك رولان بارت فى انشاء مركز دراسة الاتصالات الجماهيرية بباريس وأسس تياراً جديداً للدراسات الدلالية للمضامين الثقافية التى تتداولها وسائل الإعلام . وفى بريطانيا أسس ستيورات هوك « مركز الدراسات الثقافية المعاصرة » بجامعة بيرمينجهام الذى كان يهدف الى دراسة « الثقافات الحية » (الثقافة العمالية ، ثقافة الشباب ، الصحافة الشعبية .. الخ) ومايترتب عليها من حرص على استيعاب ديناميكية تداخل ظاهرة وسائل الاعلام فى النسيج الثقافى المعاصر .

وقد استخدمت الأبحاث التجريبية الأمريكية المتعلقة بالاتصال الجماهيرى ، لفترة طويلة التقنيات المسماة « تحليل المضمون » . وأجريت أول عمليات لتحليل المضمون فى العشرينات ، فى معهد الصحافة بجامعة كولومبيا بنيويورك . وكانت المسألة تتعلق فى ذلك الوقت بتحديد الأهمية — حسب «المساحة المستخدمة» — التى توليها الجرائد لبعض الموضوعات العامة (سياسة داخلية ، سياسة دولية ، رياضة .. الخ) . واتسعت هذه الدراسات الكمية والوصفية البحتة تدريجياً لتشمل وسائل إعلامية أخرى (اذاعة ، سينما ، تليفزيون) . إلا أنها لم تتوصل الى أى إطار تفسيرى ملائم : ولم تشتمل الا على «أبحاث ادارية بحتة» لتعود مرة أخرى الى تعبير لازارسفيلد. وقرب نهاية الأربعينات حاول هـ .لاسويل فى دراسة أجراها حول « الأسطورة السياسية » أن يتجاوز الحدود التى فرضتها المبادىء الأسلوبية لتحليل المضمون . وأعاد النظر فى

عدة مسائل على التوالى هى : اختيار العينات المنتظم ، صلاحية فئات التحليل وقدرتها على الفهم . وركز دراسته على الاستخدام الخاص ــ بكل جماعة سياسية ــ لطائفة معينة من الرموز فى خطبهم السياسية وأعطى لكل موقف مسمى (مؤيد ، معارض ، محايد) ازاء هذه الرموز .. وابتداء من هذا التحول المنهجى ، أصبحت تقنيات تحليل المضمون تعد بمثابة وسيلة متميزة للبحث الاجتماعى . ثم بدأ الباحثون الأمريكيون يطرحون بعد ذلك نماذج أكثر تعقيداً ، فى محاولة للوصول الى ماوصفه البعض بأنه كمال منهجي حقيقي. وفى عام ١٩٥٥، بمبادرة من «اتييل دو سولابول » حاول الباحثون الأمريكيون تحديد هذا النوع من المناهج . وهنا ظهر ملمحان غير مرضيين : (أ) فمن ناحية تم التنديد بتكرار ظهور الرموز كمؤشر على رأى المرسل (ب) ، ومن ناحية أخرى تبين أن تقنيات تحليل المضمون لاتضع فى اعتبارها العلاقات القائمة بين رموز الخطاب الواحد باعتبارها ركناً أساسيا فى مغزى الخطاب . على سبيل المثال ، لو ارتبطت بعض رموز الشهرة فى أحد الإعلانات ــ بفئات معينة من الأشخاص دون غيرهم بشكل منتظم ــ فإن دلالات خطابين يشتملان على نفس العدد من الرموز يمكن أن تكون على طرفى النقيض . ولم تتمكن الأبحاث التى ترتبت على هذا الاستنتاج من القضاء على أوجه التناقض الجذرى نهائياً ، برغم كل الدقة فى تقنيات البحث وبرغم بعض الأعمال الرائعة فى « التحليل الآلى للنصوص » . وأصبح تجاوز الحدود التى فرضتها مبادىء تحليل المضمون إحدى سمات التيارات الأوروبية الجديدة فى مجال علم الدلالات و « الدراسات الثقافية » . والتى دعتنا الى « انفصال نموذجى » حقيقى .

ومنذ عام ١٩٥٧ ، أوضح لنا رولان بارت فى ميثولوجياته كيف يكون الخطاب الإعلامى نتاجاً لنظام رمزى لاواعى ويشكل فى الوقت ذاته بنيته . ونجح بارت فى وصف الخطاب الاعلامى باعتباره وعاء للأساطير الجديدة ، ومكان العرض المتميز للميثولوجيا المعاصرة . ثم حاول بارت فى مؤلفاته اللاحقة ــ التى

استلهمها بالتحديد من اللغويات البنيوية والتحليل النفسى ــ وضع أسس علمية للثقافة باعتبارها نظام للرموز : علم الدلالات . وأصبح الغرض النظرى من استقراء لدلالات ، فى ظل هذه الظروف ، هو « دفع » العمل فى النواتج الثقافية . وهى مهمة دقيقة تسعى الى اكتشاف الأساطير المحدثة المختفية فى طيات الخطاب الإعلامى على وجه الخصوص . وحاول بارت الكشف بانتظام عن مبادئه فى التحليل وذلك بتطبيق نموذج مشتق من اللغويات البنيوية على النواتج الثقافية المعاصرة . وبشكل مواز ، حدد كغاية نهائية لعلم الدلالات، تحليل عمل الأيديولوجية : فقد أراد أن يكون نقده الثقافى نوعاً من كشف الخداع عن العلاقات الاجتماعية السائدة والتى تعتمل ضمنياً فى هذه الخطب .

وإذا كان « فرديناند دوسوسور » يرى أن اللغويات (علم دراسة اللغة) تبدو مجرد جزء من علم الدلالة (علم الرموز بشكل عام) فان بارت يرى أن علم الدلالة هو جزء من اللغويات « وبالتحديد هو ذلك الجزء الذى يهتم بالوحدات الموحية الكبرى ، الخطاب » . والأمر بالنسبة له اذن يتعلق باستخلاص المعانى التحليلية العامة بالقدر الكافى من اللغويات والتى يمكن أن تسمح بتكوين مبادىء منهجية للقراءة الدلالية . ويمكن تعريف هذه بأنها عملية البحث عن نظام للمعانى فى مجموعة معينة من الرسائل ، عن طريق الدراسة البنيوية للاختلافات بين الدال والمدلول فى هذه المجموعة .

ومن ثم يبدو علم الدلالة فى إشكاليته ومنهجه كاعتراض جذرى على تيار « تحليل المضمون » الأمريكى . وهو يرتبط من ناحية باشكالية لنقد الثقافة موصولة بنقد اجتماعى وسياسى .ومن ناحية أخرى وعلى مستوى المنهج فإن علم الدلالة لم يعترف بتكرار ظهور رموز كمؤشرات على الرأى المعلن : بل لقد ركز على العكس على دراسة العلاقات البنيوية بين الرموز ككاشفات للمعنى (« المعنى هو الفيصل ») ، وفى النهاية فقد عاود الاقتراب من المحتوى الكامن فى الرسالة ، ليس عن طريق المطالبة باقامة صلة ضرورية مع المحتوى الذى تم التعبير عنه بصراحة ، وانما بدراسة المفهوم . وفى علم الدلالة ، تم الانتقال من

دراسة المضامين الى تحليل الخطاب ، والنص والصورة : وفى النهاية الى دراسة الأسطورة وعمل الأيديولوجية .

لقى استخدام بارت للنموذج اللغوى معارضة من بعض اللغويين . لذا وانطلاقا من الفصل الذى اقترحه بين « علم دلالة الاتصال » و « علم دلالة المغزى » (حيث « لم يكن موضوع الدراسة مثبتاً فى البداية كنوع من الاتصال وانما كمجرد مجموعة من الحقائق الموحية ») ، أكد جورج مونان أن بارت أساء استخدام علم الدلالة حيث أن الموضوعات الاجتماعية التى قام بتحليلها لم تكن بالضرورة جزءاً من النظام الحقيقى للاتصال . وعلى سبيل المثال إذا كان تحليل إشارات الطريق ينبع فعلاً من علم لدلالة الاتصال ، فإن تحليل بارت للخطاب الاعلامى حول الملابس لاينبع، فى رأى مونان، إلا من علم دلالة المغزى . ولكن هل كان النموذج التحليلى الذى وضعه بارت يسعى حقاً الى التقيد داخل حدود تفسير وفقاً لمفردات الاتصال ؟ لقد ارتبط علم الدلالة عند بارت — فى رأينا — أكثر باشكالية انتشار النواتج الثقافية التى تجاوزت الى حد كبير مسألة اتصالها فحسب ، انطلاقاً من مصدر مرسل ووصولاً الى جمهور مُتَلَقٍّ . ويفتح هذا النوع الجديد من القراءة الدلالية الباب أمام مشكلة أساسية تتعلق بالأشكال المؤسسية لبعض أنواع الاتصال الاجتماعى على حساب أنواع أخرى ممكنة ، وكتحليل أخير ، فإن الصلات الاجتماعية المهيمنة على الانتاج والانتشار الثقافى هى موضوع الخلاف . وتتجاوز هذه القراءة الدلالية والنقدية أطر اشكالية تقتصر على الاتصال وتدافع عن كون مغزى الظواهر الثقافية لايكمن الا فى عمل وسيلتها الاتصالية .

يلتقى هذا المنظور النقدى مع اشكاليات التحليل التى طرحها باحثون بريطانيون من مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام . فمنذ انشاء هذا المركز ، وضع ستيوارت هول وزملاؤه تعريفاً موسعاً للاتصال يشمل مجموعة كبيرة من الأشكال والتعبيرات الثقافية ، يضم « الطقوس » المختلفة للحياة اليومية (من مناقشات الى ممارسات دينية وتربوية ورياضية .. الخ) التى تتجسد فى

« الثقافات الحية » والإنتاج الثقافى الذى تتداوله وسائل الإعلام . وهى طريقة لتجنب مأزق تقليص التحليل الثقافى الى دراسة المضامين الاعلامية الجماهيرية . وعلاوة على ذلك فقد اعترف المركز ، الذى تبنى منهجية من نوع عرق خاصة بالتيار الذى كان لايزال كلاسيكيا للدراسات الثقافية الأنجلوسكسونية ، منذ البداية بالدور النشط للمتلقين فى بناء الدلالات الثقافية المتعلقة بحياتهم اليومية . وقد تخلص هذا الوضع النظرى الأساسى تماماً من المدخل الدلالى ، الذى كان يكتفى فى أحيان كثيرة بتحليل داخلى للمضامين المتداولة فى وسائل الإعلام بحجة أن قراءة عالم الدلالات تتوافق مع القراءة (اللاواعية حتى) « للمتلقى العادى » ، وعلى العكس فقد كان الباحثون الأنجلوسكسونيون يعترفون بالدور النشط والأساسى للأفراد فى طريقة تكوين تصوراتهم عن السياق الثقافى وإضفاء معان خاصة على الرسائل الثقافية التى يتعرضون لها .

وقد تأثرت أعمال هؤلاء الباحثين البريطانين بالتحاليل النقدية للانتاج الثقافى التى وضعها عالم الاجتماع ريمون ويليامز وتصورات الماركسى الايطالى انطونيو جرامسى لمفهوم الهيمنة ، وتصورات الفيلسوف الفرنسى لويس التوسر عن الأجهزة الايديولوجية للدولة ــ التى سنعود اليها فيما بعد ــ مما قادهم الى استنتاج أن التصورات الثقافية للأفراد ليست مستقلة تماماً . فقد تأثرت أيضا بأيديولوجية الصفوة ، التى تنشرها بوجه خاص وسائل الاعلام الجماهيرية . ومن ثم توصل ستيوارت هول الى نموذج للتحليل حاول وضع العلاقات المكملة فى مكان محورى بين هيكل السلطة السياسية والاقتصادية ، والوظائف الأيديولوجية لوسائل الإعلام والأشكال الإعلامية للثقافة الشعبية . ودافع نموذج ستيورات عن كون وسائل الإعلام فى رأسمالية القرن العشرين تشغل إحدى الآليات الأيديولوجية الاكثر قوة لخدمة صفوة الحكام ، طالما انها تفرض اطارا إدراكيا عاماً يقوم الأفراد ببناء واقعهم اليومى فى داخله . ووصل هول الى اشكالية تركز على عمليات الترميز عند المصدر المرسل ، التى تتأثر ــ بوعى أو بدون وعى ــ بالأيديولوجية السائدة ،

وعمليات فك الرموز التى يفسر من خلالها المستمعون المستقبلون الرسائل الإعلامية التى يتلقونها .

ومن ثم فقد اعترف هول باحتمالات أن يقوم الفرد الذى يتعين عليه فك رموز رسالة بهذا العمل بنفس المفردات التى أرادها المرسل ، أو أن يبنى لنفسه رموزا خاصة تتلاقى مع رموز المرسل ، أو يستخدم فى النهاية شفرة تتعارض تماماً مع شفرة المرسل . وفى هذه الحالة نجد أنفسنا أمام رسالة ذات أثر « مرتد » توصل عكس ما أراده المرسل . على سبيل المثال فان الرسالة التى تتسم بقوالب جنسية ضمنية تنطوى على تفرقة جنسية يمكن أن تولد لدى المستقبل المناصر للحركة النسائية ادانة للتفرقة الجنسية ، ومن ثم رفض لمحتوى الرسالة بأكمله . لذا فإن هذه الإشكالية المتعلقة بالتأثير الثقافى لوسائل الإعلام تسعى للانفصال عن وجهات النظر التلاعبية « التبسيطية » التى تركز بشكل خاص على دور وسائل الاعلام فى الرقابة الأيديولوجية وكانت مصدر إلهام للأعمال الحديثة لباحثين أمريكيين فى مجال الاتصال مثل جيمس كارى ومايكل ريال .

البعد الاجتماعى السياسى

دفع هذا المدخل النقدى الباحثين البريطانين الى وضع بُعد القدرة الاقتصادية والسياسية فى الاعتبار بانتظام عند اجراء تحليلاتهم للظواهر الثقافية والإعلامية . حيث أن وضع هذا البعد الاجتماعى والسياسى بالتحديد فى الاعتبار كان السمة الرئيسية لجيل بأكمله من الأبحاث خصوصا ، منذ نهاية الستينات حتى الآن ، التى تعلقت بالعمل الأيديولوجى والسياسى لوسائل البث الحديثة . وكم من طريق سلكه منذ عام ١٩٥٩ عالما الاجتماع « ريلى وريلى » — اللذان ألقيا الضوء على أبحاث الاتصال الجماهيرى بمناسبة نشر كتاب « علم الاجتماع اليوم » الذى وضعه ر . ميرتون وشركاؤه — للمطالبة بوضع المستوى الاجتماعى فى الاعتبار بوضوح وانتظام عند تناول إشكاليات دراسة وسائل الإعلام ، وشكل نموذجهما النظرى نقيضاً هاما للنماذج النفسية الاجتماعية التى

كانت سائدة : فقد اقترحا ادراج مؤثرات « الانتماء الى الجماعة » و« النظام الاجتماعى » و « التركيبة الاجتماعية الثقافية » ضمن الأدوار المتبادلة للمرسل والمتلقى ، كمتغيرات إيضاحية لظواهر الاتصال الاجتماعى . وبرغم أن هذا النموذج شكل خطوة الى الأمام فى عملية وضع البعد الاجتماعى فى الاعتبار الا أن المدخل الوظيفى للمؤلفين منعهم من إدراك الأثر الأيديولوجى لوسائل الإعلام بشكل جيد (وهو ما سنشرحه فى الفصل الثانى عشر) .

بفضل جهود الباحثين الذين ينتمون الى الفكر الماركسى ، ظهرت فى بداية السبعينات المداخل الاجتماعية السياسية الأولى لظاهرة وسائل الإعلام . فمن ناحية تبنى بعض الباحثين فى مجال الاتصال موقفاً أميل الى النقد ازاء مؤسسات الاعلام الجماهيرى . ومن ناحية أخرى اعترف بعض الباحثين اليساريين بشرعية التفكير فى وجود وتأثير وسائل الإعلام فى المجتمع ، أو النقد المنظم لظهور « مجتمع استهلاكى » . كانت تلك المسائل تبدو حتى ذلك الحين ثانوية بالنسبة للباحثين الماركسيين الذين كانوا يولون اهتماماً أكبر لاخضاع الأوساط العمالية أو للصراع بين الطبقات وهو ما كان يتجسد من خلال الممارسات النقابية والسياسية . ومنذ عام ١٩٦٩ ، استطاع ميشيل بوراج ــ فى مقال قلما يشار اليه نشر فى «السجلات الأوروبية لعلم الاجتماع» ــ أن يحدد خطوتين تحليليتين محتملتين لدراسة وسائل الاعلام : فقد استخلص هذا الكاتب ، الذى وضع المدخل « الماركسى » قبالة مدخل « توكفيل » ، بعض الملامح التى ستميز المداخل الاجتماعية السياسية فى العقد التالى . فالتصور الماركسى يصف وسائل الإعلام باعتبارها جزءاً لايتجزأ من المجتمع الرأسمالى ، الذى تحدد قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية بنيته وتطوره : ويتم تحليل ملكية منظمات الإنتاج والنشر ومضامين وسائل الإعلام داخل هذا المجتمع وفقاً لمصالح وصراعات الطبقات . أما التصور التوكفيلى فسيجعل مدخله الى وسائل الإعلام منصباً على تحليل عمليات الدمقرطة المعمول بها داخل منظمات الانتاج والنشر ، وعلى مستوى المضامين الإعلامية . وسيكون التركيز فى بعض الحالات على ملكية وسائل الاعلام

(العرض ، المصادر المرسلة) ثم يتجه فى حالات أخرى الى طبيعة البيئة الثقافية (الطلب ، توقعات جمهور المتلقين) لتحديد تطور هذه الوسائل .

وقد اقترح عالم الاجتماع الألمانى هانز ماجنوس انزنسبرجر ، فى مقال نشر فى مجلة اليسار الجديد New left Review فى خريف عام ١٩٧٠ ، أن يتم وضع نظرية اشتراكية لوسائل الإعلام تعتمد على تحليل المتناقضات الحديثة للرأسمالية . واقترح انزنسبرجر اعتبار « صناعة الضمير » جزءاً لا يتجزأ من القوى الانتاجية . وتحتم على الاشتراكيين أن يضعوا استراتيجية هجومية للاستيلاء على وسائل الإعلام . لكن عالم الاجتماع الماركسى ظل أسيراً لإشكالية ملكية وسائل الإعلام التى كانت تدافع عن حيادها الضمنى : فيكفى السيطرة عليها لكى تسهل اعادة توجيهها نحو غاية ثورية . وأثبت جون بودريار ، فى مقال اتسم بقدر كبير من الوضوح كتبه عام ١٩٧٢ ، أن البديل الثورى كان غير هذا كله . فوسائل الإعلام ، بشكلها هذا ، لم تكن محايدة : « وكانت الأحاديث والأفعال فى داخلها تتم صياغتها بحيث لايمكن الرد عليها . لذا فان الثورة الوحيدة فى هذا المجال تتمثل فى استعادة هذه القدرة على الرد . وتتطلب هذه القدرة المجردة انقلاباً فى الهيكل الحالى لوسائل الإعلام بأكمله . وتتمثل صعوبة أفكار بودريار فى أن تحليلها ، باتجاهه صوب الفكرة الجذابة الخاصة بضرورة كسر جميع الرموز والأشكال السائدة فى مجال الاتصال ، يدعو الى ممارسات تعد من الناحية الاجتماعية سافرة وهامشية (تحويل المسار الإعلامى باستخدام النقوش الجدارية ، وتغيير مسار الحديث تجاوزاً باستخدام كلمات ساخرة) فكيف يمكن ، فى ظل هذه الظروف وهذه الممارسات الهامشية ، التفكير فى تغيير الجهاز الإعلامى بشكل جذرى ؟ .

وقد تأثر عدد كبير من الأبحاث الاجتماعية السياسية حول الاتصال الجماهيرى فى السبعينات بمفهوم التوس عن الجهاز الأيديولوجى للدولة لتوصيف الواقع المؤسسى لأجهزة الإعلام ووظيفتها الأيديولوجية . وتم تعريف « الجهاز

الأيديولوجى للنشر » أو « الجهاز الاجتماعى لوسائل الإعلام » على أنه منظومة العلاقات المتصارعة والمتكاملة بين المجموعات المختلفة من العوامل الاجتماعية المؤثرة فى ممارسات النشر الجماهيرى للمعلومات . ويمارس هذا الجهاز دوراً فى إضفاء الشرعية على النظام الاجتماعى القائم وانتشاره . لذا فقد كان الهدف من تحليل الوظائف الأيديولوجية وهيكل جهاز وسائل الإعلام هو كشف النقاب عن منظومة العلاقات الاجتماعية السائدة القائمة فى مجمل التكوين الاجتماعى ، وهى منظومة تحدد طبيعة المضامين التى تتداولها وسائل الإعلام وتتأثر فى الوقت نفسه بها . ونلاحظ أن الرؤية هنا تكون رأسية للسلطة : فوسائل الإعلام تسيطر عليها مجموعات الصفوة السلطوية وتنقل مضامين يحددونها هم فى الأساس ، وتكون غايتها القصوى هى الترويج للنظام الاجتماعى القائم .وقد تداعت هذه الرؤية المحكمة والمبسطة لنفوذ وسائل الإعلام تدريجيا ، كلما تم رصد الأدوار المتناقضة لوسائل الإعلام فى المجتمعات الغربية . وقد قال هنرى لوفيفر فى نقده لنموذج التوسر أن هذا المدخل ربما كان أكثر ملاءمة وايضاحاً فى وصف حقيقة وسائل الإعلام فى « الديمقراطيات الشعبية » . وفى كتاب ظهر مؤخراً بعنوان « التفكير فى وسائل الإعلام » وصف ارمان و ميشيل ماتلان هذا التحول التدريجى فى مفهوم التأثير لدى الباحثين فى مجال الاتصال قائلا : من صورة تأثير رأسى ومتركز فى مكان واحد ، انتقلنا الى رؤية للسلطة يمكن تعريفها بأنها « شبكات معقدة من الأماكن ، يؤدى تداخلها نفسه الى تعقيد عملية صنع القرار » . ومن ناحية أخرى فقد سعت جهود ارمان وميشيل ماتلاند الى فصل ميكانيزمات الأثر الأيديولوجى لوسائل الإعلام فى فرض هيمنة سياسية وثقافية على المستوى الدولى : وسوف نعود الى هذه الجهود فى الفصل التالى .

نموذج جديد ؟

إتسم مجال بحوث الاتصال ابتداء من الستينات بمجموعة من الفواصل العلمية . وتم رصد جميع الحدود النظرية للأفكار السلوكية والنفسية الاجتماعية

للاتصال الجماهيرى : (أ) فمن ماكلوهان الى بودريار تم استخلاص خصوصية التأثير الثقافى والسياسى للوسيلة الإعلامية على مستوى شكلها نفسه بمعزل عن المضامين التى تتداولها (ب) من بارت الى هول احتلت الوظيفة الاجتماعية اللاواعية والرمزية والأيديولوجية لوسائل الإعلام مكان الصدارة (ج) من انزنسبرج الى ماتلان أصبح الاهتمام بالسياق الاجتماعى السياسى بعداً أساسياً فى فهم كيفية تأثير وسائل الإعلام (د) وأخيرا ، تحقق اجماع ـــ تعد بحوث كاتز و ليبز خير أمثلة عليه ـــ فيما يتعلق بإشكالية التلقى : وتم الاعتراف بالدور الأساسى والنشط « للمتلقين » فى عملية فك رموز الرسائل التى يفسرونها وفقا للسياق الاجتماعى الثقافى الخاص بهم . ومن ثم تزعزع بشدة النموذج الذى يعرف الاتصال الجماهيرى بأنه عملية نقل أحادية الاتجاه من نقطة إرسال الى نقطة تلقٍّ .

مراجع : L. Althusser, 1970; R. Barthes, 1957, 1964, 1967; J. Baudrillard, 1972; B. Berelson, 1952; K.E. Boulding, 1969; O. Burgelin, 1968; M. Burrage, 1969; J. Carey, 1979; Collectif, 1981; H.M. Enzensberger, 1970; S. Hall, 1979, 1980; E. Katz, 1987; H.D. Lasswell et *alii*, 1949, 1952; H. Lefebvre, 1976; A. et M. Mattelart, 1986; M. McLuhan, 1967a, 1968, 1977; E. Morin, 1971; G. Mounin, 1970; M.R. Real, 1977; J.W. et M.W. Riley, 1959; F. de Saussure, 1971; H.I. Schiller, 1971; I. de Sola Pool, 1959; R.A. White, 1983; R. Williams, 1974.

١٢ رهانات الاتصال الاجتماعية والسياسية

قررت العديد من حركات الفكر النقدى حول وسائل الاعلام أن تأخذ على عاتقها ادراج السياق الاجتماعى والسياسى ضمن نموذجها الاتصالى ، ونذكر منها :

ـــ دراسة الأثر الأيديولوجى لوسائل الاعلام كميكانيزم للنشر فى المجتمع لحساب مصالح الطبقات المسيطرة : فقد استند بعض الباحثين اعتباراً من نهاية الستينات الى المفاهيم الأيديولوجية الماركسية والماركسية الجديدة (كتب التوسر و جرامسى على وجه الخصوص) وجسدوا هذه الرؤى النظرية فى نماذج تدور حول الوظائف الأيديولوجية للاتصال فى المجتمع .

ـــ وركز باحثون آخرون على تعريف أنظمة الاتصال ووسائل الاعلام من حيث كونها نظاما اقتصاديا للانتاج الصناعى للثقافة : وساروا على الطريق الذى فتحه مفهوم « الصناعة الثقافية » وكان أول من اكتشفه هو هوركيمر و ادورنو (ولنتذكر على سبيل المثال الأبحاث الفرنسية المعاصرة التى أجراها برنار مييج أو باتريس فليشى) .

ـــ أدى استخدام الحاسوب فى مجال الاتصالات اللاسلكية فى فرنسا فى بداية الثمانينات ، الى إجراء العديد من الأبحاث التقييمية للتجارب الاجتماعية : واستطاع بعضهم أن يكشف عن لعبة التناقض والتكامل فى العلاقات الاجتماعية

المستترة فى هذه التجارب التى شاركت فيها الحكومة والصفوة السياسية والاقتصادية ووسائل الإعلام التقليدية .. الخ (انظر مؤلفات اندريه فيتاليس و جان مارى شارون ومارى مارشان) .

ــ طور باحثون بريطانيون تأثروا بعلم الاجتماع الماركسى فى الثقافة ويعتبرون امتداداً لعلماء « التحليل الثقافى » اعتباراً من السبعينات ، مداخل جديدة تحاول أن تدرج العمل الأيديولوجى لوسائل الاعلام ضمن بنية النسيج الثقافى نفسه ، بالرجوع الى جذور الثقافات الحية المتمثلة فى الثقافة العمالية والثقافات الشعبية (من ريمون ويليامز الى ستيوارت هول) .

ــ أكد باحثون آخرون على الطابع الدولى لنظم الاتصال وعلى آثارها فى التهيئة الثقافية للامبريالية الأمريكية : وقد أجرى ارمان ماتلار والمجموعات التى عملت معه بحوثاً رائدة فى هذا المجال، فضلاً عن بحوث الأمريكى هـ . شيللر والاسكندنافى ك . نوردسترنج .

ــ وعلى صعيد نظرى أكثر ، فيما يتعلق بالدور السياسى للمثقفين إزاء وسائل الإعلام ، يكون من المفيد محاولة استخلاص دروس من الجدل الأيديولوجى بين اليساريين ، والذى بدأ مع ظهور مقال انزنسبرجر فى عام ١٩٧٠ الذى كان يحمل عنوان « مكونات نظرية وسائل الإعلام ، ثم استتبعه مقال نقدى للكاتب جان بودريار فى مؤلفه « صلاة من أجل وسائل الإعلام » (١٩٧٢) ثم أقوال أكثر حداثة (١٩٨٦) للكاتبين ارمان و ميشيل ماتلار فى مؤلفهما « التفكير فى وسائل الإعلام » .

ــ وأخيرا فإن حركة الأفكار النقدية بأكملها، التى بدأت مع نشر التقرير الذى أعده ماكبرايد لليونسكو فى عام (١٩٨٠) والذى كان يهدف الى إرساء نظام عالمى جديد للاتصال والإعلام، شاركت فى هذه الرؤية المتعلقة بتهيئة ثقافية لدول العالم الثالث بواسطة المنظمومة العالمية لوسائل الاعلام ، وأحادية اتجاه تدفق المعلومات على مستوى الاتصال فى العالم أجمع .

وسنخص بالذكر نتائج بعض الأعمال المتميزة من بين هذه الآثار المتعددة

والمتاحة ، ثم نحاول أن نواصل حديثنا بشأن نماذج تحليل الاتصال مع التركيز على البعد الاجتماعى والسياسى .

الهيمنة الأيديولوجية التى تمارسها وسائل الإعلام .

من بين الطرق الأولى فى النظر الى الاتصال على اعتبار انه رهان اجتماعى وسياسى يأتى التأكيد على الهيمنة الأيديولوجية التى يمارسها النظام الإعلامى فى المجتمعات الغربية الرأسمالية . على مدار السبعينات ، كان أحد النماذج السائدة فى علم الاجتماع المسمى « التقدمى » ، والذى تأثر كثيراً بأفكار الفيلسوف الماركسى لويس التوسر ، ينص على تعريف البنية الاجتماعية كمنظومة من العلاقات الاجتماعية المتصارعة على الأصعدة الثلاثة : الاقتصادى ، السياسى والأيديولوجى . وعلى كل مستوى من هذه المستويات يمارس الصراع الطبقى بين سادة ومسودين . إنها ساحة صراع يجب من حيث المبدأ أن يتناولها نظام « إعلامى واضح » بالعرض والتحليل . بيدأن هذا النظام لايعمل « بحرية » : فهو يخضع لرقابة جماعات الصفوة الاقتصادية والسياسية المهيمنة ثم يعمل هو نفسه « كأداة أيديولوجية للدولة » . ولنر عن قرب كيف وأين ستقودنا هذه القراءة الاجتماعية ـــ السياسية الأولية .

فى المجتمعات الصناعية الرأسمالية الغربية تكثر وتتعقد أشكال الهيمنة : فالى جانب الاستغلال الاقتصادى والاستعباد السياسى ، ثمة أشكال جديدة من الهيمنة الأيديولوجية والرمزية تمارس ، الى جانب المدرسة والعائلة ، عبر النظام الاعلامى . وتصبح السيطرة الاقتصادية على هذا « الجهاز الإعلامى » رهاناً اجتماعياً وسياسيا هاماً : حيث ستسعى مجموعات مرتبطة بمصالح فى اليمين واليسار الى السيطرة على ملكية وسائل الإعلام . ويهدف هذا التصور الاجتماعى والسياسى الأولى لأثر وسائل الإعلام الى وصفها على أنها جهاز اجتماعى « للتلاعب الايديولوجى » ، تسهل السيطر عليه نظرياً .

إن المضامين التى يبثها النظام الإعلامى لاتبدو على أى حال موحدة :

فهى غير متجانسة ومبهمة . ونجد فيها رسائل ذات توجهات أيديولوجية مختلفة ومتناقضة ، مما يعد علامة ــ حسبما يقول بعض الإعلاميين ــ على « موضوعية » هذه الوسائل . إن منطق المصلحة القائم على تقييم « قابلية المعلومة للعرض» هو الذى يدفع الإعلاميين الى نشر حديث المعارضين اذا كان يستحق : على سبيل المثال ، فان فعالية الارهاب المعاصر تعتمد الى حد كبير على هذا المنطق التضخيمى الإعلامى . لكن هل يتعلق الأمر هنا بعملية دمقرطة سياسية حقيقية : وهل يصبح المجال الاجتماعى لوسائل الإعلام هو « ميدان الخطابة الجديد » فى القرن العشرين ؟ وهنا يدعونا الباحثون الذى يدعون انتماءهم للتيار النقدى التقليدى الى توخى مزيد من الحذر . ويمكن أن نقول ــ على المستوى الأولى ــ إن كثرة الرسائل المختلفة والمتناقضة نفسها تهدد بالحد من فعاليتها الاتصالية : حيث أن الرسائل يلغى بعضها البعض ، وتكرارها اليومى يوقف تأثيرها المدمر . ويمكن أن نتساءل أيضا عن مسألة احتواء الخطاب الإعلامى على رسائل الصفوة أكثر من رسائل معارضيهم . بيد أن هذا التميز الواضح يكون بالتأكيد أقل فعالية مع بعض الآليات الأيديولوجية الأكثر براعة .

لذا ، فإن وسائل الإعلام تقول فيما يبدو « كل شىء » . وهى لم تكن تستطيع ذلك إلا بفضل المتطلبات التقنية : حيث توجد على سبيل المثال صور تليفزيونية أفضل من غيرها ، وهذه هى بالتحديد التى يقع عليها الاختيار لبثها كما تحدث عملية انتقاء للمعلومات التى يتم بثها . ولنستعرض ببساطة كل مالايتم حجبه بسبب معيار الكفاءة « الحرفية » للتحقيق : فقد أصبحت أيديولوجية الحرفيةتحدد الآن شكل ومضامين الرسائل المذاعة بالفعل . لذا ، أصبحت الأولوية تعطى لعنصرقابلية الحدث للعرض (والذى غالبا ما يكون طريفا) . وربما تكون مسألة قابلية المعلومة للعرض بمثابة ميكاينزم لنزع الصفة السياسية عن الخطاب الذى يعمل لحساب الأيديولوجية القائمة : فقابلية العرض و « الأسلوب » الشخصى للساسة يحتلان مكانة متقدمة بالنسبة للمضامين وفلسفة البرامج ذات الطابع السياسى . ومن ناحية أخرى ، تؤثر بعض الالتزامات ذات الطابع

التنظيمى على انتقاء المواد المذاعة : فالبحث عن السرعة واحداث أقصى تأثير ممكن عند نقل الأخبار ، والرغبة فى جعل المعلومات ميسورة الفهم من جانب ما يصوره الإعلاميون « الجمهور العريض » ، تجعل الصحفيين « يروون » الأحداث دون محاولة وضعها فى سياق أكبر من الاحاطة والنقد ، نظراً لضيق الوقت وقلة الموارد المالية . وبشكل أساسى . فان ما تقوله وسائل الإعلام هو كذلك « بطريقة ما » : والنظام الإعلامى يميل الى وضع خطاب المعارضين داخل اشكالية أكثر تساعاً يكونها الإعلاميون أنفسهم ، مما يجعل من السهل تراجعهم أيديولوجياً .

وتحليل دلالات الألفاظ المستخدمة من جانب وسائل الإعلام لوصف المواقف التى يتخذها المعارضون من النظام القائم ، يمكن أن يكشف ميكانيزماً أيديولوجياً آخر على جانب لابأس به من البراعة . ويقول « ستيوارت هول » فى هذا الصدد ، ليس من النادر أن نجد وسائل الإعلام تصف معارضاً بأنه « متطرف » أو تشبه مجموعة من المعارضين بعصابة من « المجرمين » . أما الأكثر شيوعاً ، فهو التعبير ببساطة عن المعارضة ، باستخدام مفردات مثل « شغب » ، « تآمر » ، « متمردين » ، « عنف » ، « أقلية » ، « اثارة » .. الخ . ومن ثم نلاحظ أن الأمر وصل الى حد ربط المعارضة — بشكل لا واع — « باللاشرعية » و « القلق » ، أما النظام الحاكم فيتم وصفه « بالشرعية » و « الأمان » . وعندما يبنى النظام الإعلامى المعلومة على أساس التقسيم الثنائى الى « شرعى أو لاشرعى » ، فانه بذلك لايشجع على اتخاذ مواقف متدرجة بين الاثنين . ومن ثم فإن الجهاز الإعلامى غالبا ما يضفى إشكالية مختصرة ومقولبة ، ليس لها تاريخ ومصنفة وفقا للتقسيم الثنائى ، ويتعين على متلقى الرسائل أن يحددوا مواقعهم فى اطارها وأن يكونوا لأ نفسهم صورة عن ميكانيزمات القرار السياسى فى مجتمعهم من خلالها . لذا فان النظام الإعلامى يفرض شفرة معينة لاستقراء العلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تعمل لخدمة النظام القائم .

وقد ركز جان بودريار ـــ فى نقده « للمجتمع الاستهلاكى » الذى كتبه عام ١٩٧٠ ـــ على الطريقة التى يتعامل بها الخطاب الإعلامى مع عمل ذى طبيعة سياسية لخدمة أيديولوجية معينة : بسبب قدرة الأخبار التافهة على الانتشار يمكن عرض المعلومة السياسية والتاريخية والثقافية بطريقة استعراضية ومنفصلة فى الوقت نفسه عن الوسيلة الإعلامية ، حيث تختزل الى اشارات مجردة . ويصبح «الاتصال الجماهيرى » سمة من سمات الانتماء الى العالم المحيط بنا . ويدفعنا الاستمتاع بالعروض الإعلامية البارعة الى التقبل السلبى لنظام الهيمنة الضمنى الذى يميز المجتمع الاستهلاكى .

وهكذا يصبح النظام الإعلامى أداة أيديولوجية تكتسب أهمية أكبر من النظام المدرسى فى إعادة بناء المجتمع : وتكفى هنا مقارنة عدد الساعات التى يقضيها الأطفال أمام التليفزيون بالأوقات التى يقضونها فى المدرسة . تتمثل الفعالية الأيديولوجية لوسائل الإعلام فى إضفاء الشرعية على النظام الاجتماعى ومن ثم تحقيق التنمية الاجتماعية للعلاقات الاجتماعية القائمة على المستوى الرمزى . وكما أكدنا من قبل ، كتب هنرى لوفيفر فيما بعد يقول ، إن هذا الاستقراء الثابت للميكانيزمات الايديولوجية فى اعادة البناء كان بالتأكيد ملائما لتحليل وظيفة وسائل الإعلام فى الديمقراطيات الشعبية لأوروبا الشرقية أكثر من الديمقراطيات الرأسمالية الغربية . فوسائل الإعلام تخضع فى الديمقراطيات الشعبية لرقابة شديدة من جانب أجهزة الدولة ، أما فى الدول الغربيه فإن معلومة سرية وهامشية يمكن أن تحظى فى بعض الأحيان باهتمام مبالغ فيه من جانب وسائل الإعلام الكبرى ومن ثم تترتب عليها نتائج أكثر أهمية مما كان متوقعاً : ولنتذكر قضية ووترجيت الشهيرة التى تفجرت من نبأ نشرته إحدى الصحف المحلية فى واشنطن أو « إيران جيت » التى أثارها خبر ظهر فى البداية فى احدى صحف بيروت .

الاقتصاد السياسى للصناعات الثقافية

برغم أن الطريقة الأولى فى التناول السياسى للاتصال ركزت على بعده الأيديولوجى ، فان الطريقة الثانية أعطت أهمية أكبر للبعد الاقتصادى ووصفت النظام الإعلامى بأنه نظام للانتاج الصناعى . واعتبارا من نهاية الستينيات على وجه الخصوص بدأ عدد كبير من الباحثين من جنسيات مختلفة إعادة النظر فى الأفكار النقدية التى وضعها أصلاً فى عام ١٩٤٧ هوركيمر و وادورنو حول الانتاج الصناعى للسلع الثقافية ، ثم تعميقها بواسطة التحاليل المنهجية . وأكد هؤلاء المفكرون الذين ينتمون الى مدرسة فرانكفورت أن الثقافة (الجماهيرية) فى القرن العشرين تنتج فى ظروف مشابهة لظروف مصانع سيارات فورد . والانتاج الثقافى الذى يتم توزيعه بكميات كبيرة ، وبمواصفات قياسية ويكون متجانسا لايتأثر وحده بهذه الظروف الصناعية فى الانتاج والتسويق ، وإنما عملية الإبداع الثقافى نفسها يطرأ عليها تغيير عميق وتتأثر بمنطق الربح . وعندما حلل الباحثون المعاصرون العلاقات بين الظروف الاقتصادية وانتاج الأشكال الثقافية ، أكدوا على الثقل الحاسم للمنطق الرأسمالى والعقلية التقنية فى نظام تصنيع وانتشار المنتجات الثقافية التى يتم تداولها بواسطة وسائل الإعلام التقليدية وبواسطة المخترعات التكنولوجية الجديدة فى مجال الإعلام والاتصال ، أو بواسطة بعض الصناعات المرتبطة بها مثل الإعلان والسياحة .

وبينما كانت البحوث الأولى منصبة على تحليل العلاقات المتصارعة بين المنطقين الاقتصادى والثقافى داخل الأنظمة الوطنية لنشر السلع الثقافية نفسها ، وبالتحديد دور الدولة ازاء الصناعات الثقافية ، فإن اكتساب انظمة الاتصال لصبغة دولية جعل الباحثين المعاصرين يركزون اهتمامهم على أشكال التدفق التجارى للمنتجات الثقافية بين بلدان العالم المختلفة . ومنذ ما يقرب من عشرين عاماً لم تكف هذه التحليلات عن اظهار مدى أهمية تأثير الصناعات الإعلامية الأمريكية وكذلك ، لكن بصورة أقل ، تأثير الصناعات الإعلامية البريطانية

واليابانية ، على بقية العالم ، فى السوق الدولية للسلع الثقافية . وتبرهن الاتجاهات الحديثة كذلك على أن الدول ذات البنى الأساسية الثقافية الأكثر فقراً ليست وحدها التى تستورد المنتجات الأمريكية بكثافة عالية . والدول الأوروبية القديمة التى كانت مهداً للحضارة الغربية ، ليست بمعزل عن حركة التأثر هذه بالصناعات الثقافية الأجنبية : ويشير جيوسبى ريشرى على سبيل المثال ، الى أن محطات التليفزيون الايطالية الخاصة اشترت فى عام ١٩٨١ من الخارج وبخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٨٧٪ من برامجها . ويعتقد البعض أن الغزو المستمر لتقنيات مثل التوزيع بالكابل ، وبالأقمار الاصطناعية والفيديو المنزلى ، سيجعل التليفزيونات الأوروبية أكثر خضوعاً لضغوط السوق الدولية الذى تسيطر عليه بوجه خاص المصالح الأمريكية . .

الدفاع عن نظام جديد للاتصال

لايمكن أن نتجاهل هنا الأعمال الهامة التى بدأتها فى ديسمبر ١٩٧٧ اللجنة الدولية لدراسة مشاكل الاتصال التابعة لليونسكو برئاسة شين ماكبرايد . وقد نشأت هذه اللجنة فى مناخ من المصادمات الدولية : بينما كانت دول العالم الثالث تعترض على التدفق الغزير للمعلومات القادمة من الدول الصناعية ، كانت هذه الأخيرة ترفع مبدأ « حرية تداول المعلومات » لتبرير الوضع القائم . كما كانت رؤيتان سياسيتان متعارضتان للاتصال الدولى تتصارعان : من ناحية ، كان هناك اعتراف بالثقل السياسى للاتصال فى المحافظة على علاقات القوى بل وتدعيمها ، ومن ناحية أخرى كان مبدأ التدفق الحر ينفى ضمنيا وجود علاقات قوى فى التنظيم السياسى للعالم .

وإزاء المهمة الطموحة المتمثلة فى دراسة جميع مشاكل الاتصال فى المجتمعات الحديثة ، اختار الأعضاء الستة عشر باللجنة « الذين يمثلون الى حد كبير مختلف الاتجاهات الأيديولوجية والسياسية والاقتصادية والجغرافية فى العالم » لأنفسهم منظوراً تاريخياً وسياسياً واجتماعياً شديد الاتساع . وأدى تشخيصهم

الموحد للنظام الإعلامى الحالى بأنه غير مقبول الى صياغة مبادىء ارشادية كبرى من أجل ارساء نظام عالمى جديد للإعلام والاتصال « أكثر عدلاً وفعالية » .
ودعا أعضاء اللجنة مختلف الأطراف الاجتماعية المشاركة فى عمليات الاتصال (وكالات الأنباء ، أجهزة البث الاذاعى ، الصحف الكبرى ، معاهد البحث والتدريب ، الحكومات ، التجمعات المهنية ، المنظمات الدولية ..الخ) الى بذل جهود مضنية من أجل تطبيق أساليب جديدة وايجاد طريقة تفكير جديدة بهدف اجراء اصلاحات فى الهياكل والاجراءات الملموسة اللازمة لاقامة هذا النظام الجديد ، كعملية ديناميكية حقيقية مدعوة الى التطور باستمرار سعياً وراء إحداث تغيير عميق فى التوازن الحالى للاتصالات بين الدول بعضها وبعض : « مزيد من التعادلية فى المبادلات الإعلامية ، قدر أقل من التبعية ازاء التيارات (السائدة) فى مجال الاتصال ، التقليل من تدفق الرسائل من أعلى الى أسفل ، مزيد من الاكتفاء الذاتى للمحافظة على الهوية الثقافية (بالنسبة للحكومات الوطنية المحلية) ، مزيد من المزايا للانسانية جمعاء» . وكان المراد أن تصبح هذه المبادىء السياسية خطاً دفاعياً ضد الاتجاهات الاقتصادية السائدة التى تميزت باختراق الصناعات الثقافية الدولية (من ترفيه واعلام وتربية) ، التى تسيطر على معظمها الشركات الأمريكية العالمية ، للأسواق المحلية المختلفة .

وقد أثار هذا التقرير انتقادات عنيفة ، فى اليمين وفى اليسار ، بسبب عباراته الهجومية والطابع شديد العمومية لمعظم تحليلاته . وسنذكر هنا النقد الذى صاغه هربرت شيللر والذى يلقى الضوء على كلام نقدى يمكن أن نجده فى هذا التقرير ، وكذلك فى الكثير من الأحاديث الراهنة المتعلقة بالتقنية . فقد تبنى شيللر العديد من المواقف النقدية التى وردت فى تقرير ماكبرايد والمتعلقة بعدم حيادية التقنية واستخداماتها ، خاصة وأن توجهات برامج البحث والتنمية التقنية تحددها فى الغالب مصالح الفئات الاجتماعية الأقوى . وهو يرى أن اقتراح اللجنة ــ فى حالات معينة ــ بتأجيل أو الغاء ادخال بعض التقنيات الجديدة لتجنب تبعية محتملة للدول الصناعية التى ستسعى فى هذه الحالات للاحتفاظ بالخبرات

والسيطرة على البرامج اللازمة لتشغيل المعدات الجديدة ، لهو اقتراح شجاع .. ففى الغالب ، لاتأتى التقنيات الغربية ، التى يتم ادخالها بصورة متعجلة فى دول الجنوب ، تحت ضغط الشركات العالمية ، بحلول حقيقية للمشاكل المعلومة ، بل على العكس تترتب عليها تبعيات جديدة للشمال ، تبعيات تقنية ومعرفية تتجاهل تطورات محلية للقرار السياسى قادرة على التشكيك فى ضرورة الأخذ بمثل هذا « التقدم التقنى »

كشف شيللر النقاب عن « لبس مزدوج » فى كلام لجنة ماكبرايد فهى تدعو الى الحذر المتناهى ازاء دخول تقنيات وتمتدح فى الوقت نفسه سرعة الأخذ بهذه الوسائل الجديدة لاقامة البنية الأساسية اللازمة للنظام الاتصالى الجديد ، مما يضع القارىء فى موقف لايحسد عليه . ويرى شيللر أن هذا العيب فى كلام أعضاء اللجنة يرجع الى قصور فى الأعمال التى قاموا بها : فتحليلاتهم ، بسبب أفتقارها الى الدقة ، لن تكون قادرة على تصوير ديناميكية التطور الدولى فى تقنيات الإعلام والاتصال . وهو تطور يحدده تماما النظام التجارى الرأسمالى الدولى ، الذى سيوجهه وفقاً للمصالح والأهداف الربحية للشركات العالمية . ومن ناحية أخرى فإن هذه الشركات ـــ حسب كلام شيللر ـــ ستوفق تطورها مع الاحتياجات الخاصة للمؤسسات العسكرية والسياسية للقوى الرأسمالية الكبرى فى العالم .

نحو نماذج تحليلية جديدة

رأينا فى الفصل السابق أن الانتقال الى نموذج جديد فى دراسة الاتصال ـــ الذى بدأ تطبيقة منذ الستينات ـــ كان يهدف الى التخلص من نموذج الآثار قصيرة المدة لوسائل الإعلام . وتمثل أحد السبل التى تم اتباعها فى التركيز على السياق الاجتماعى السياسى الذى يتفاعل مع عمليات الاتصال . ومن اشكالية ضيقة منصبة أساساً على التغيرات النفسية الفردية الناتجة عن تأثير وسائل الإعلام ، اتجه الباحثون الى اشكالية أكثر اتساعاً تركز على نشر المعلومة فى

سياقها . بيدأن هذا النموذج الموسع الجديد استمر فى الحديث عن اتصال أحادى الاتجاه : فالمرسل (الذى يكون فى ترتيب تسلسلى أعلى) يسيطر على مذيع من المفروض أن يكون محايداً) يقوم بنقل الرسالة (التى تعبر عن الاتجاهات الأيديولوجية للمرسل) ليقنع متلقيا (سلبى) فيرسخ بذلك الأيديولوجية المهيمنة .

حتى بداية الثمانينيات ، ظل هذا النموذج الرأسى يلقى اجماعاً ، من اليسار ومن اليمن ثم بدأت تظهر بعض الثغرات : ما لاحظه بعض الرواد أمثال ريشارد هوجارت بخصوص قدرة التباعد النقدى لدى بعض الأفراد فى الثقافات الفقيرة ، كما توصل عدد كبير من الباحثين المهتمين بهيمنة النموذج الأمريكى على عملية الانتشار الدولى للمنتجات الثقافية الى اكتشاف نفس النموذج فى عملية فك الرموز التى تتم عند نقاط التلقى . وتم التركيز على أهمية أن يكون الشخص المتلقى ايجابيا فى عملية البناء الاجتماعى لدلالات الرسالة . وهذا البناء الدلالى لايكون منفصلاً عن قوانين الحياة اليومية التى تخترق النسيج الثقافى .

أما التحول الثانى فى النماذج ، الذى ظهر خلال الثمانينيات فى أوساط البحث حول الأثر الأيديولوجى للاتصال ، فقد تمثل فى الانتقال من نموذج يصف أثر وسائل الإعلام انطلاقاً من المصادر والمذيعين ، الى نموذج يكتشف أهمية المتلقين فى البناء الاجتماعى للمدلولات الأيديولوجية . ومن ثم تم هجر النموذج الأول (أحادى الاتجاه والرأسى) الى نموذج « جدلى » « ومرن » لأثر الاتصال .

وتيارات البحث التى يمكن أن تكون قد ساهمت فى أكتشاف أهمية العمل الدلالى للمتلقين جد كثيرة :

ــ كل ما أوقفته التيارات التفاعلية والمهنية العرقية (من سيمل و ج .ميد الى جوفمان و جارفينكل وسيكوريل) لدراسة الحوار والاستراتيجيات السلوكية فى الحياة اليومية : حاول لويس كيرى و ميشيل دوفورنال تطوير هذه النزعات فى قطاع الاتصالات .

ــ ركزت أنشطة مركز الثقافة المعاصرة التابع لجامعة برمنجهام برئاسة

سيتوارت هول بشكل متزايد على الاشكاليات التركيبية للترميز / وفك الرموز ، حيث حاولت هذه الأخيرة فصل السياق الأكبر عن السياق الأصغر .

ــ تأثير علوم الاجتماع فى الحياة اليومية على إضفاء صفة الإشكالية على استخدامات وسائل الإعلام وتقنيات الإعلام (الاسهامات النظرية لـ هنرى بوفيفر ثم ميشيل مافيسدى ، وأعمال ف .سكارديجلى و ب . مربييه ، وابحاث جوسيان جويه حول استخدام وسائل الإعلام والتقنيات الجديدة ...الخ)

ــ الأبحاث الاسكندينافية التى أجراها بيتر دالجرين حول « البناء الاجتماعى للواقع » من جانب الأفراد الذين يستقبلون برامج التليفزيون .

ــ الأبحاث الأمريكية التى أجراها كاتز والمجموعات التى عملت معه حول فك رموز مسلسل دالاس وبناء « الأحداث الكبرى » فى التليفزيون فى محاولة لعقد مقارنة بين طرق الاستقبال المتنوعة وفقاً للسياقات الثقافية المختلفة .

ــ الأبحاث التى أجريت فى أمريكا الجنوبية والتى نقلها لى ماتلار ، فضلاً عن أبحاثهم الخاصة بهم التى أجروها مؤخراً حول التليفزيون البرازيلى .

تندرج هذه التيارات كلها فى اطار اتجاه واحد يعمل على اكتشاف الدور الايجابى للشخص المستقبل فى عملية بناء دلالة الرسائل التى تذيعها وسائل الإعلام . لاتزال هناك اختلافات كثيرة فى تقديرات هؤلاء الباحثين للأهمية الحقيقية لعملية البناء الدلالى التى يقوم بها الأفراد . واستطاع لوسيان سفيز ، الذى شارك أيضاً فى الأبحاث المعاصرة حول وسائل الإعلام ، أن يضع يده فى كتابه الأخير الذى سماه « نقد الاتصال » على هذا التيار الذى يركز على الدور الايجابى للمتلقى . بل إن سفيز يرى فى هذا التيار مؤشراً على اختفاء الاتصال الحقيقى : فكل شىء يدور نسبياً فى مخيلة المتلقى ، وتتضاءل أهمية الاشارات القادمة من البيئة المحيطة .

ونحن نرى أن استمرار التمييز الأساسى بين البحوث النقدية وغير النقدية مسألة مهمة . وقد ندد ج . سلاك و م . آلور ، منذ بضعة أعوام بالازدواجية المبسطة المسيطرة غالباً على تعريفات ما سميت بعد ذلك بحوثاً نقدية ولكنها ليست

سوى تجسيد للمقولات الشهيرة ـــ التى تعتبر علامات تاريخية ـــ والتى أطلقها بول لازارسفيلد للتمييز بين « البحوث الادارية » و « البحوث النقدية » . وقد امتنع المراقب العصرى ، الذى ركز بشكل مبالغ فيه على كون النوع الأول من البحوث مستوحى من الأسلوبية التجريبية الكيفية ، أما النوع الثانى فلا يشتمل إلا على أقوال فلسفية تأملية ، عن ملاحظة أن بعض الباحثين النقديين اختاروا استخدام منهجية الكيفية دون أن يتنكروا لأفكارهم النقدية . وتمثل الاهتمام الأساسى من وجهة النظر النقدية فى التعرف على الثقل السياسى للاتصال فى منظومة العلاقات الاجتماعية . مما يعنى تجنب اجراء أى دراسة عن الاتصال خارج سياق السلطة ، سواء كانت سلطة صغرى أو كبرى .

وعندما لجأ ارمان و ميشيل فى كتابهما « التفكير فى وسائل الإعلام » الى اجراء نقد ذاتى لنموذج الاتصال الرأسى الذى استخدماه فى دراستهما الأولى حول سيطرة المصالح الأمريكية على انتقال السلع الثقافية بين الدول ، فانهما لم يتخليا مع ذلك عن منظورهما النقدى . لكن تطور تفكير آل ماتلار من النموذج الذى يركز على المصادر والمرسلين الى نموذج يؤكد أهمية الشخص المتلقى، مفردات حياته اليومية فى عملية فك الرموز الأيديولوجية للرسائل الإعلامية ، يكشف عن تحول فى المداخل الاجتماعية السياسية للاتصال . وهذه طريقة أخرى لابراز حدود نموذج الاتصال الرأسى الذى استخدم فى تحليل لجنة ماكبرايد وفى الأعمال النقدية التى ركزت أساساً على دور الشركات العالمية فى التنظيم الدولى للاتصالات والصناعات الثقافية .

ولم يؤد اهتمام الباحثين بالدور الايجابى للمتلقى ، بالضرورة الى نفى دور المرسل فى التأثير الأيديولوجى للرسائل : فالمسألة لاتتعلق بمجرد قلب النموذج للوصول الى آخر جديد ... رأسى أيضا ! ومن هنا نبعت أهمية أبحاث سيتوارت هول الذى سعى ـــ فى إشكالية نقدية واحدة ـــ الى فصل العوامل الحاسمة المؤثرة عند المنبع على عملية الترميز ، وتأثير السياق على عملية فك الرموز عند المتلقى .

وقد أدى وضع المستويات الاجتماعية الكبرى والصغرى فى الحسبان عند تحليل عمليات التبادل الإعلامى الى تصور الفعالية الاجتماعية السياسية للاتصال بكل تعقيدها ، كما سمح بالجمع بين اسهامات اقتصاد سياسى لانتاج السلع الثقافية والرمزية وبين نتائج التحليلات الأيديولوجية لظروف التلقى الثقافى للرسائل الإعلامية .

ثمة سؤال يطرح نفسه على كل أحاديث السلطة أو ما يسمى بسلطة وسائل الإعلام ، سواء جاءت هذه الاحاديث من متخصصين أو من شخصيات عامة أو من أفراد عاديين : لماذا اكتسبت وسائل الإعلام ــ وجميع تقنيات الاتصال ــ هذه الأهمية التى تتمتع بها اليوم ؟ وهل يصبح « الاتصال » اكثر أهمية من تقنياته ؟ .

مراجع : L. Althusser, 1970; J. Baudrillard, 1970, 1972, 1981; J.-M. Charon, E. Cherki, 1985; A. Corten, M.-Bl. Tahon (éd.), 1988; P. Dahlgren, 1986; H.M. Enzensberger, 1970; P. Flichy, 1980; T. Guback, T. Varis, 1982; S. Hall, 1979, 1980; R. Hoggart, 1970; A. Huet et *alii,* 1978; M. Horkheimer, T.W. Adorno, 1974; J. Jouët, 1985, 1987b; E. Katz, T. Liebes, 1986; P.F. Lazarsfeld, 1941; H. Lefebvre, 1958, 1961, 1981, 1976; S. McBride, 1980; M. Maffesoli, 1979; M. Marchand, 1987; A. Mattelart, 1976; A. et M. Mattelart, 1986, 1987; E.G. McAnany, 1986; P.A. Mercier et *alii,* 1984; K. Nordenstreng, H.I. Schiller (éd.), 1979; S. Proulx (éd.), 1988; L. Quéré, 1988; G. Richeri, 1986; H.I. Schiller, 1971, 1976, 1982, 1986; L. Sfez, 1988; J.D. Slack, M. Allor, 1983; A. Vitalis, 1983; R. Williams, 1981; Y. Winkin, 1981.

الباب الرابع

نشأة أيديولوجية جديدة



١٣ ــ السيبرنتيكا أو ظهور فكرة الاتصال الحديثة

إن التنوع الظاهرى « لميادين الاتصال الحديثة » يجب ألا يحجب وجود وحدة عميقة بين جميع القطاعات المتعلقة بالاتصال . هذه الوحدة ــ قد لا تكون ملموسة على مستوى التقنيات المادية المختلفة للاتصال ــ لكنها تبدو أكثر وضوحا على صعيد الأيديولوجية التى تربط هذه الميادين بعضها ببعض داخل منظومة واحدة من القيم والرؤى للعالم . هذه الأيديولوجية التى تجعل من « فعل الاتصال » إحدى الغايات الأساسية للمجتمع ، تبدو فى الوقت نفسه كملاذ أو بديل للأيديولوجيات السياسية .

ولكى نتفهم بالضبط شكل الاتصال حالياً فى مجتمعنا ، يتعين العودة الى الوراء تاريخيا وبالتحديد الى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت فترة الأربعينيات بدون شك الفترة المناسبة التى مهدت للظهور التاريخى لمفهوم « الاتصال » الحديث . ومهما اتسم ظاهر الكلام المعاصر عن الاتصال ودورة الاجتماعى بالجدة فان جذوره تمتد مباشرة الى مابعد نهاية الحرب العالمية الثانية .

يرتكز النموذج الحديث « للاتصال » على ثلاثة تحولات جذرية يمكن أن يؤدى استيعابها الى تفهم التحديث أو على الأقل بعض مظاهره الأساسية .

بادىء ذى بدء تعريف « الانسان الجديد » الذى سندرسه فى هذا

الفصل . وعن طريق إحداث طفرة حقيقية فى تصور ماهية الانسان ، وضع علم التحكم والاتصال (السيبرنتيكا) — هذا العلم الجديد الذى عنى بالاتصال . والذى أسسه توربرت واينر فى عام ١٩٤٢ — دور الاتصال فى المقدمة ، كما لم يحدث أبداً من قبل . وفى هذا الشأن ، كما نتحدث عن « انسان نياندرثال Neanderthal» ، يجوز الحديث عن « انسان Wiener » حيث أن طرحه الأنثروبولوجى الذى أرسى دعائم المجتمع الاتصالى كان جذرياً .

ثم شرح « الأيديولوجية الجديدة » ، أيديولوجية الاتصال ، الذى سنتعرض له فى الفصل التالى . وقد تكونت هذه الأيديولوجية كبديل للأيديولوجيات البربرية التى اسفر التصادم بينها عن نشوب حرب جديدة هى « حرب الثلاثين عاماً » من ١٩١٥ الى ١٩٤٥ . وتدين الأيديولوجية الجديدة — التى اتخذت من الضوضاء والفوضى والتشويش أعداء لها — بجزء من نجاحها بالتأكيد الى أنها طرحت نفسها كأيديولوجية بدون ضحايا ، فى سياق ظهرت فيه الحرب الباردة والتهديد بالابادة النووية عقب أكثر الحروب التى شهدتها البشرية دماراً . ويبقى مشروع مجتمع جديد « هو مجتمع الاتصال » . فقد توقع أبو علم السيبرنتيكا أن يتسم هذا المجتمع المثالى الجديد بسمتين مميزتين : أولا سيكون نظاماً اجتماعياً يركز تماماً على انتقال المعلومات ، ثانيا : ستلعب الأجهزة وخصوصاً الاتصالية منها دوراً حاسماً فى هذا المجتمع . أما السبب الرئيسى لظهور هذا النظام الجديد فسيكون تزايد الفوضى التى تؤدى الى إفساد المجتمعات الانسانية وتدفع بها ، الى حد ما بالطبع ، نحو هلاكها .

« إنسان جديد »

رأينا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن تقنيات الاتصال اكتسبت ، فى فترات محددة من تاريخ الغرب (الجمهورية الرومانية ، النهضة ، الثورة الفرنسية) أهمية ازدادت فجأة . وفى فترات أخرى ، وبرغم وجود هذه التقنيات الأساسية نفسها ، الكتاب على سبيل المثال ، فانها لم تستخدم بانتظام لغايات اتصالية .

وقد اشرنا من قبل الى أى مدى كانت هذه التقنيات الاتصالية ، سواء فى تطورها أو فى تشغيلها مرتبطة بتغيرات اجتماعية عميقة .

لقد جاءت اللحظات التاريخية الكبرى التى شهد فيها الاتصال الاجتماعى تطوراً كبيراً فى فترات طرأت فيها على صورة البشر وعلى مكانتهم وسط الجماعة تغيرات هامة : وخير أمثلة على ذلك تأسيس المواطنة الرومانية وفكرة العقد فى قديم الأزل ، أو التحول الهائل الذى تمثل فى تأكيد مفهوم السيادة الشعبية إبان الثورة الفرنسية . فمنذ تخلصت الجماعة من سلطات الحاكم وتمتع الفرد داخل الجماعة بصفة المواطنة ، أصبح للاتصال وتقنياته دور أساسى : ألا وهو ربط الفرد بالجماعة ، والمحافظة على استمرارية العلاقة الاجتماعية

إن التطور الهائل الذى طرأ على الاتصال الاجتماعى وتقنياته منذ نهاية القرن الثامن عشر ، متصل بالتأكيد بعمليات قتل الملوك ، التى كانت دلالاتها الرمزية هائلة ، والتى أسفرت عن إعادة بناء أساسية للصلات الاجتماعية . وتغير منذ ذلك الحين اتجاه الاتصال : فبعد أن كان رأسياً بين الملك ورعيته ، أصبح أفقياً بين مواطنين متساوين فى الحقوق . وفى ظل غياب الملك لم يكن هناك بد من اعادة تنظيم المحيط الاجتماعى حول الاتصال وتقنياته ، خاصة التقنيات الدعائية . ولاحظ جاك ايلول فى هذا الشأن أن هذا السياق الذى تميز بانقلاب البنية الاجتماعية ، شهد « تغيراً فى أسس الدعاية نفسها » ، نتج عن تلاقى نوايا رجال الدعاية مع الاحتياجات الحقيقية للأفراد الذى أصبحت الدعاية ضرورية بالنسبة لهم لكى يتمكنوا من « معرفة أنفسهم والتقدم وسط هذه التغيرات الهائلة » .

وقد أخذت « أيديولوجية » الاتصال التى نشأت فى الأربعينات على عاتقها مسئولية التماسك الاجتماعى . ولكنها أضافت له بعداً جديداً ألا وهو التهديد الذى يخيم على المجتمع بأكمله ، وعلى هذه الجماعة التى تمثل الجنس البشرى فى علاقته بالعالم . ويقول واينر أن المجتمع مهدد بالفوضى ، وهى قوة تفتيتية تنخر فيه من الداخل . وسرعان ما سيتم الاستعانة بهذه الحجة لإضفاء

الشرعية على استخدام الحاسبات ، التى أصبح وجودها ضرورياً بسبب تزايد التعقيد الاجتماعى المنذر وربما المدمر .

لم تكن فكرة إيجاد حل تقنى للتدمير الذى يهدد الصلات الاجتماعية جديدة تماماً . حيث يدين « غلام براغ » الذى يعد الجد الأكبر للانسان الآلى فى القرن الثامن عشر ـــ بوجوده كأسطورة ـــ للوعى بمثل هذا التهديد. وكان هذا الكائن الاصطناعى الذى صممه فى عام ١٥٨٠ الحاخام لوى يقوم بوظيفة محددة تماماً . فعندما تعالت موجة معاداة السامية التى سادت أوروبا الوسطى وألمانيا كان « الغلام » يضطلع بحماية الجالية اليهودية فى براغ التى كانت تتعرض لاتهامات ليس لها أسس من الصحة اتخذت كذريعة لابادة اليهود . وكانت مهمته تتمثل فى مراقبة المناطق المحيطة بالجيتو اليهودى ليل نهار لمنع أعداء السامية من إيجاد أدلة كاذبة لإدانة اليهود ، خاصة تدبير الجرائم المتعلقة بالشعائر الدينية ضد الأطفال المسيحيين ثم الصاقها باليهود .

لقد كان التهديد المخيم على الطائفة اليهودية جد خطير (حيث تعرضت جاليات بأكملها لحملات ابادة منذ نهاية العصور الوسطى ، ومنهم على سبيل المثال الألفا يهودى الذين كانوا يعيشون فى سترا سبورج وتعرضوا لعملية قتل جماعية مساء ١٤ فبراير ١٣٤٩ ، بعد أن وجهت إليهم تهمة « تسميم الآبار ») فى هذا السياق ، حل « الغلام » مشكلة الاتصال بين الطوائف ، حيث أعلن الامبراطور الألمانى ـــ عقب تدخله ـــ أنه عثر على دليل يثبت عدم صحة الاتهامات التى وجهت الى اليهود . والعنصر الأساسى فى هذه القصة يتمثل فى قدرة كائن اصطناعى غير بشرى ، ولكنه من اختراع الانسان ، على حل النزاع ، وهو ما عجز عنه اليهود والمسيحيون لأنهم كانوا مشغولين بالصراع .

والفكرتان الرئيسيتان اللتان تبرزان فى هذه الأسطورة ، التى اكتسبت قيمة عامة وربما كانت أحد العمد الأساسية فى « مجتمعنا الإعلامى » الحالى ، هما : أولا وجود تهديد يعصف بالصلة الاجتماعية والتوازن الطائفى داخل المجتمع الواحد ، وثانيا الاستحالة شبه الجوهرية لخروج الانسان وحده من هذا الموقف .

وخير شاهد على قدم وعمومية هذا الموضوع يتمثل فى وجود عدد كبير من « العمالقة » أو « التماثيل المتحركة » فى الحضارات الاغريقية والرومانية كان دورها ينحصر فى التدخل فى المواقف التى يعجز الانسان عن حلها .

بل إن جذور كلمة « اعلام information باللغة اللاتينية »، والتى نشأت أيام الحضارة الإغريقية اللاتينية ، تحيلنا الى هذا المدلول فكلمة In Formatio تعبر فى الواقع عن مزيج — لايجرؤ عليه الا اللاتيينون — من مجموعات من المعانى مرتبطة « بالمعرفة » وفكرة « الصناعة » و « البناء » . وتشير كلمات مثل « تشكيل » و « إعلام » الى الصورة الأساسية لنحات تماثيل والمعنى المناقض تماماً للإعلام البناء سيكون « In Forma » — المشوه والقبيح — فقد كان التمثال ، هذا الكائن الاصطناعى الذى حظى بمكانة متميزة فى قديم الأزل منذ ابتكر ديدال أسلوبه الذى حمل إسمه — والذى تجسد فى تماثيل عبرت تماماً عن الحركة الى حد أن أفلاطون أشار بوجوب تقييد بعضها — شأنه شأن آلات العصر الحديث ، مكلف بمقاومة الفوضى والقبح والفساد .

علم السيبرنتيكا أو ظهور فكرة الاتصال الحديثة

ظهر فى الأربعينات ميدان جديد من ميادين المعرفة ، مخصص بصورة شبه تامة للاتصال ، ليسير جنباً الى جنب مع موجة الاختراعات وتحسين تقنيات الاتصال التى سادت فى هذه الفترة . وبدأ « علم السيبرنتيكا » أو كما وصفه مؤسسه نوربرت واينر « الدراسة التى تعنى بالتحكم والاتصالات » يتبلور فعلاً فى الفترة من عام ١٩٤٢ الى ١٩٤٨ . وكان مصير هذا العلم الجديد غير معروف بشكل واضح . ففى المراحل الأولى كانت الأفكار الكبرى لعلم السيبرنتيكا تلقى حماساً فى الأوساط العلمية ، وبدأ جمهوره يجتذب دوائر أكثر اتساعا شملت فى بعض المجالات القاعدة العريضة . كما لعب علم السيبرنتيكا دوراً بارزاً فى ظهور الحاسب الآلى عام ١٩٤٥ (حيث كان فان نيومان يشارك بنشاط كبير فى الاجتماعات التى كانت تضم علماء السيبرنتيكا الأوائل) .

وعندما أصبح علم السيبرنتيكا ضحية لمبالغاته من ناحية ــ حيث امتلأ بالمغامرين المثقفين من كل نوع ــ ولنجاحه وماترتب عليه من آمال كبيرة من ناحية أخرى ، بدأ نجمه يأفل فى الستينيات ، خصوصاً بعد وفاة مؤسسه فى عام ١٩٦٤ . بيد أن قدرته على التأثير الثقافى لم تنته عند هذا الحد . فقط أصبحت تتخذ شكلا أكثر سرية دون أن تفقد قوتها . وأثرت أفكار واينر ، خصوصاً فيما يتعلق بالدور الذى ينبغى أن يلعبه الاتصال و « الآلات المفكرة » فى المجتمع ، بعمق على الجيل الذى بدأ يدخل الحياة العملية فى السبعينيات . وبدأ المناخ الثقافى الذى شهد ازدهار الحاسبات الدقيقة ثم جميع مفردات « المجتمع الاتصالى الجديد » ، يتغذى الى حدّ كبير ــ بشكل مباشر أحيانا ، وبصورة لاواعية غالباً على الأفكار التى غرسها نوربرت واينر .

وفى الوقت ذاته ، كان تيار الأفكار الذى مهد ــ عن طريق جريجورى باتسون ــ لظهور حقل دراسة الاتصال الشخصى ــ مدرسة بالو التو على سبيل المثال ــ يستمد الكثير من أصوله من السيبرنتيكا . وقد تأثر عدد كبير من الباحثين فى جميع فروع المعرفة ، سواء العلوم البحتة أو العلوم الانسانية ، تأثراً مباشراً بالمفاهيم الكبرى لعلم السيبرنتيكا . كما جاء هذا العلم بحلم التقريب بين الشعوب ، وسط أجواء الحرب الباردة : وقد تم الاعتراف بالسيبرنتيكا كعلم رسمى فى الاتحاد السوفيتى بعد زوال الستالينية ، حيث لقى واينر ترحيباً حاراً وكذلك الحال فى الكثير من الدول الاشتراكية . وكان من المتوقع أن تظهر لغة جديدة مشتركة نتيجة لاستخدام مثل هذه المفاهيم مشابهة . وبسبب طبيعة المشاكل التى كان يعالجها ، شكل علم السيبرنتيكا خطوة الى الأمام نحو العالمية .

ترجع جذور معظم البراهين المؤيدة « للمجتمع الاتصالى » الى علم السيبرنتيكا فى الأربعينيات وبداية الخمسينيات . بل إن كلمة « اتصال » نفسها ــ دون أن تتخذ معنى مخالفاً تماما ــ أصبحت مشحونة ــ بعد مرورها بعلم السيبرنتيكا ــ بثقل جديد وكمية من المدلولات لم تكن فيها حتى عام ١٩٤٨ وهو

التاريخ الذى نشر فيه واينر هذا العلم بين الناس . واذا كنا نتكلم كثيراً الآن عن الاتصال ، فهذا بفضل (أو بسبب) علم السيبرنتيكا . واذا كانت الكلمة تبدو أحيانا كما لو كانت تغطى حقائق متفرقة ، فهذا يرجع أيضا الى « السيبرنتيكا » : حيث أنها روجت لهذا المفهوم الجديد دون أن يصحب ذلك تعريف دقيق أو موحد لمعناه . وربما كان ينبغى وضع مفهوم مرن لكى يكون نجاحه شاملاً . وكان عدم التحديد الأساسى لكلمة « الاتصال » وراء الصورة الضبابية التى أحاطت سريعاً بالحدود الدقيقة لعلم السيبرنتيكا .

وأدى الانتاج المكثف للأفكار والتقنيات الذى ترتب على التعاون النشط بين العلماء والمؤسسات العسكرية خلال الحرب الى ظهور مشكلات جديدة ، كانت سبباً للقاءات المثمرة التى تمت بين باحثين ينتمون الى مجالات شديدة الاختلاف . فبدون الحرب وهذه الدفعة الهائلة التى أعطتها للبحث التطبيقى ، لما تمت هذه اللقاءات أبداً

كان المحور الأساسى للمشكلات الكبرى التى ناقشتها شبكة علماء السيبرنتيكا الأوائل — قبل تبلور العلم — هو التشابه الظاهرى بين بعض الأجهزة الأوتوماتيكية التى ابتكرها علماء الرياضيات والمهندسون لاستخدامات عسكرية ، والنماذج التوضيحية لبعض السلوكيات البشرية التى بدأ بعض اخصائيى الأعصاب والأطباء فى استنباطها بملاحظاتهم . وبدا أن امكانية المقارنة بين الانسان والآلة فتحت مجالاً علميا جديداً ، يجمع بين الغموض واتساع الامكانيات التى يتيحها والتى تفوق أية امكانيات أتاحها علم آخر من قبل . ورأى عدد كبير من الباحثين أن الرهان هنا يساوى ثورة علمية جديدة .

وبفضل المجهود الحربى ، تقدمت التقنيات كثيراً ، خاصة فئة الماكينات التى تعالج المعلومات أو تستخدم أجهزة اعلامية . كان القرنان الثامن عشر والتاسع عشر ، بسبب الثورة الصناعية ، فترة حاسمة لتطوير القدرات الفاعلة للماكينات . وتولدت معظم التطورات الآلية من تحسين المحركات ، التى كانت آلات بخارية فى البداية ثم أصبحت محركات تعمل باحتراق الوقود وأخيرا محركات

كهربائية . ولم تقتصر استفادة الماكينات بهذا التطور على تحسين قدراتها وانما ايضا على استقلالها وبهذه المناسبة حلت الماكينات الجديدة محل العنصر البشرى فى مجالات بأكملها ، سواء كانت مدنية أو فى استخدامات عسكرية .

وأدت الزيادة الكبيرة فى استقلالية الماكينات الى ظهور مشكلات جديدة تمثلت أساساً فى نوعين : كيفية التواصل مع الماكينات ـــ ومن ثم كيفية تنظيم الاتصال بين الماكيناتِ بعضها والبعض الآخر ـــ وكيفية تزويد الماكينات بوسائل توجيه وضبط ذاتى ؟ وكان كل تقدم يضفى مزيداً من الآلية على الماكينات يتطلب ابتكار اختراعات جديدة تسمح للماكينة بتوجيه نفسها ذاتياً ، بناء على توجيهات مسبقة ، لكى تتوفر ظروف التشغيل المثلى .

وقد انكب واينر أثناء الحرب على اختراع جهاز من هذا النوع. عندما أدت زيادة سرعة الطائرات الى إبطال مفعول نظم الدفاع الجوى التقليدية . ولم يُكن ممكنا التصويب على الطائرة بالعين المجردة لأن سرعة الطائرة تجاوزت بكثير سرعة إبصار رجل الدفاع الجوى . وكانت هذه المشكلة التقنية التى تبدو ظاهرياً ضئيلة أحد مفاتيح حرب الحلفاء ضد المانيا لذا حاول واينر ، فى اطار عقد مبرم بين معهد ماساشوستس التكنولوجى الذى كان يعمل به أستاذا للرياضيات التطبيقية وبين اللجنة الوطنية لبحوث الدفاع ، أن يحل مشكلة اختراع آلة لاتكون فقط قادرة على الرد بنفس سرعة الطائرة وانما تتوقع مكانها التالى واضعة فى الحسبان ـــ وهذه هى النقطة المهمة ـــ أن قائد الطائرة يعلم أنه مطارد ، ومن ثم تصور عالم الرياضيات نظاماً متكاملاً للدفاع الجوى يضم راداراً وآلة حاسبة . وللمرة الأولى تعين على آلة أن تتوقع ردود الفعل التى يمكن أن تترتب على أفعالها ، وللمرة الأولى أيضا ، أصبح ثمة تواصل وثيق بين آلة وانسان ، حيث يسعى كل منهما للتنبؤ بسلوك الآخر ليضبط سلوكه هو على هذا الآخر .

وولدت فكرة التغذية الاسترجاعية فى شكلها الجديد . وكانت تستخدم لوصف أى جهاز إعلامى بحت قادر على ضبط سلوكه تبعاً للتحليل الذى يجريه لآثار أفعاله . واتجه حدس واينر منذ هذه اللحظة الى أن نظام التغذية

الاسترجاعية هو مصدر كل سلوك ذكى من ناحية وهو يصلح للآلات المتقدمة والبشر على حد سواء .

من السلوك الى الاتصال

مع التغذية الاسترجاعية ، أمكن أخيرا ــ فى رأى واينر على الأقل ــ تحديد موضع وامكانية صياغة ظواهر « صنع القرار » ، التى تعد بمثابة القلب من كل نشاط عقلى ومنظم . واستطاع الفنيون بابتكارهم آلات تتسم باستقلالية كافية لرصد وتحليل معلومات آتية من العالم الخارجى ومن ثم اتخاذ قرارات مستمرة لبلوغ غاية محددة سلفاً ، أن يضعوا أيديهم على نوع من الحقيقة لا يخص الآلات وحدها وانما سلوك كل فرد يتبادل معلومات مع البيئة المحيطة به ويتخذ على أساسها قرارات . ولم يشمل برنامج الأبحاث واسع النطاق الذى بدأ فى ذلك الوقت صانعى الآلات وحدهم ، وانما كل من كانت وظيفته ــ من قريب أو بعيد ــ هى شرح السلوك البشرى وفقاً لاعتبارات فسيولوجية الى جانب البعد النفسى والاجتماعى .

واقترح واينر ، فى مذكرة أعدها عام ١٩٤٢ بالاشتراك مع أحد زملائه الأطباء هو ماكولوش وعالم منطق هو بيتس ، تصنيفا للسلوكيات المستقلة عن أى أساس جسمانى أو حيوى ، ولكنها تضع فى الاعتبار طبيعة المبادلات مع البيئة الخارجية . ومن ثم يمكن تعريف أى « كائن » وفقاً لطبيعة المبادلات الإعلامية التى يجريها مع بيئته . وتحدث واينر عام ١٩٤٢ عن « سلوك » بمعنى « سلوك التبادل الاعلامى » . كان « السلوك » مفهوماً قديماً ، تطور فى بداية القرن وفى اطار علم النفس على يد المدرسة السلوكية التى كانت تعتنق مبدأ رفض أى فكرة عن « سريرة » الانسان لحساب علم « الملحوظ » ، أى العلم الذى يدرس سلوكيات الانسان على أساس الأفعال وردود الأفعال .

وكان أسلوب تفكير واينر يدور حول الفكرة القائلة بأن حقيقة أى كائن تحت الملاحظة ، سواء كان ينتمى الى عالم البشر أو الآلات او الى الطبيعة بشكل

عام ، تظهر تماما فى العلاقات أى فى تبادله المستمر للمعلومات مع الكائنات الأخرى المحيطة به. وكانت هذه هى نقطة الانطلاق بالنسبة لواينر نحو ثورة ثقافية وعلمية حقيقية . فبينما كان العلم التقليدى يهتم بالمحتوى الداخلى للظواهر التى يدرسها، طرح علم السيبرنتيكا نوعاً جديداً من الفهم يعتمد على دراسة العلاقات بين الظواهر . وسرعان ماعدل واينر عن الحديث عن السلوك . ربما لأن هذا اللفظ ظل مرتبطاً بشدة بفكرة تفرد الظواهر ، بينما كان واينر يريد ــ على العكس ــ تأكيد الأهمية الكبيرة لجميع الأحداث التى تدور بين الأفراد . فظهر المفهوم الجديد « للاتصال » . ولم يكن مخترعه يستخدمه لوصف نوع أو آخر من الحقيقة ، كما تعنى الجيولوجيا بتكوين القشرة الأرضية أو الطب بالجسم الانسانى والصحة .. الخ . فالاتصال لم يكن هدف علم قائم بذاته ، وانما كان قاسماً مشتركاً لجميع العلوم لأنه يسمح بالتوصل الى الشيء الجوهرى فى كل ظاهرة ، الى مايشكل طبيعتها العميقة .

واقترح واينر حينذاك تصنيفا لسلوكيات جميع الكائنات التى يمكن أن نصادفها فى الطبيعة ، وفقا لنمط العلاقة التى تقيمها هذه الكائنات مع بيئتها المحيطة . وسنجد فى ذيل القائمة الكائنات التى تتلقى المعلومة ويكون رد فعلها ميكانيكياً الى حد ما ، ثم الكائنات الأكثر تعقيداً التى لها « هدف ترغب فى بلوغه » ، وغاية حتى لو كانت بسيطة مثل حالة التوجه الضوئى لدى الكائنات الحية البدائية ، ثم الكائنات التى تضع لنفسها نظاماً من أجل بلوغ هدف معين ، وأخيراً الكائنات التى تطور أفعالها تبعاً لتحليل نتائج سلوكها . وقد ساعدت طريقة الدراسة السلوكية للحقيقة «واينر» على التمييز السريع لمفهوم الاتصال ، الذى أصبح محوراً لأعماله منذ عام ١٩٤٧ ، والذى ضمنه مصطلح « Cybernetics » المشتق من أصل اغريقى .

نشأة علم السيبرنتيكا

بعد خمسة أعوام من النضج ــ منذ عام ١٩٤٢ وهو التاريخ الذى بدأ فيه

تطبيق طريقة الدراسة السلوكية ــ شعر واينر بالحاجة الى دمج مجال المعرفة الجديد الذى أسهم الى حد كبير فى إنشائه . وكان ينبغى لتحقيق ذلك ، العثور على كلمة توحد المفاهيم الكبرى التى لم تعد فى طور التكوين ، ويمكنها بالتحديد أن تصبح علامة توحيد بين أولئك الذين يجدون أنفسهم فى هذه الأفكار الجديدة .
لقد انصب اهتمام الباحثين على دراسة الظواهر المشتركة ، من ناحية الاتصال ، بين الآلات والكائنات الحية وتمت تنحية دراسة الظواهر الطبيعية جانباً بصورة مؤقتة . ولاحظ واينر أن التعبيرات الموجودة كلها تأثرت الى حد كبير بمصطلحات المهندسين بصفة خاصة ، فيما يتعلق بالآلات ، وبمصطلحات العلوم الحيوية فيما يتعلق بالانسان . وتوصل الى الاستنتاج ، المتفق مع هذه الفترة ، والقائل بعدم وجود تعبيرات مشتركة لكلا المجالين وكانت كلمة «علم السيبرنتيكا» هى أول محاولة فى هذا الاتجاه ، وأول جسر يربط بين النظامين .

وأشار واينر الى أن كلمة Cybernetique(علم السيبرنتيكا) مشتقة من الكلمة الاغريقية التى تعنى « القائد » ولها شق لاتينى يعنى « حكم » . وكان يمكن ان يضيف أيضا أن جذور الكلمة هذه قد تعنى « الحكم » كشكل من أشكال القيادة الاجتماعية . وقد أتاح أختيار هذا المصطلح امكانية تحديد مجال البحث الجديد بصورة أوضح ، الى حد نشره فى الكتاب الذى طبعه واينر فى عام ١٩٤٨ فى باريس . وباللغة الانجليزية لدى هيرمان . وقد حقق هذا الكتاب ، برغم عدم الاقبال على قراءته الا من جانب المتخصصين ، نجاحاً كبيراً بين العامة الذين اطلعوا عليه بفضل الطبعات المبسطة التى بدأت فى ذلك الوقت تولى اهتماماً كبيراً لجميع انجازات السيبرنتيكا. وتعرف قرّاء جريدة لوموند من الفرنسيين على محتواه بالتفصل من خلال صفحة كاملة نشرت فى عدد الصحيفة الذى صدر يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ .

وقادت عملية البحث عن أوجه تماثل منتظمة بين الكائن الحى ــ الانسان أساساًــ وبين الآلة علماء التوجيه الأوائل الى عقد مقارنة تقنية بين أداء « كلا النظامين » على حدة ، وأدت الخطوة الأولى الى عدم النظر للانسان

كوحدة واحدة لاتتجزأ . فالسلوكيات المختلفة التى يتخذها ، يمكن تحليلها ، من وجهة النظر الإعلامية كل على حدة . ثمة خطوة أخرى تتمثل فى النظر الى بعض هذه السلوكيات — أو أهمها فى الواقع — على أساس إمكانية فهمها وتشكيلها ونقلها الى قنوات أخرى غير القنوات البيولوجية ، التى تتسم غالباً بالهشاشة . أما الخطوة الثالثة فتمتثل فى التساؤل اذا كان الانسان بشكله الحالى بالمقارنة الى الأهداف التى يضعها لنفسه ، أو تلك التى فرضت على جنسه ، يعد غير متأقلم نسبياً .

وقد وجدت كل هذه المفاهيم جذورها فى الطريقة التى تخيل بها واينر امكانية عقد مقارنة بين الانسان والآلة اللذين يمكن وضعهما على نفس المستوى الأونتولوجى (علم الكائنات) ، أى أولئك الذين يتمتعون بوضع وجودى متماثل . وكانت الحجة الجديدة ، بالنسبة للطريقة التى كان ينظر بها فى القرن الثامن عشر الى هذه المقارنة ، هى التأكيد على أن خصوصية انسان أو آلة لاتنبع من طبيعة مادته سواء كانت بروتينية أو معدنية ، انما من تعقيد المبادلات الإعلامية التى تشكل فى المقام الأخير نموذج الانسان أو الآلة .

من هذا المنظور ، يمكن أن يختفى الانسان أو الآلة كجوهر بيولوجى أو ميكانيكى منذ اللحظة التى يتم فيها جمع ما يشكل تفرد كل منهما الحقيقى فى صورة معلومات موائمة ومتكاملة . وانطلاقاً من هذا التعريف الجديد للانسان الذى طرحه «علم السيبرنتيكا»، أصبح ينظر الى الكائن ككل على اعتبار انه رسالة وتبادل مستمر للمعلومات مع بيئته المحيطة . أما أمور الانقسام الخلوى ، المسئولة عن تكوين الكائن البشرى ، والتكاثر الخلوى نفسه فأصبح ينظر إليها ، من هذه الزاوية ، على اعتبار انها عملية تبادل رسائل تفرز نماذج مختلفة . حيث يقول لنا واينر « يمكن نقل النموذج فى صورة رسالة : فنحن نستخدم الاذاعة لنقل نماذج من الصوت ، ونستخدم التليفزيون لنقل نماذج من الضوء ثم يضيف : ربما يكون مسلياً من الناحية التعليمية النظر الى ما يمكن أن يحدث إذا كان علينا أن ننقل نموذجاً بأكمله للجسم البشرى بكل ذكرياته واتصالاته المتداخلة بحيث

يتمكن متلقٍّ مفترض يملك أداة معينة من اعادة تنظيم هذه الرسائل بشكل ملائم واستئناف العمليات التى كانت تتم فى الجسم والعقل » .

وأسهم واينر بمثل هذه المفاهيم فى فتح القمقم الذى كان محبوساً فيه جنى شرير. حيث ظهر تيار كامل فى علم السيبرنتيكا فتح الباب على مصراعيه أمام الفكرة القائلة بأن الانسان كان « خطأً مؤقت » من أخطاء الطبيعة . وعمل واينر هباء على تأكيد وجود « خطر معنوى جسيم » قد يترتب على المبالغة فى النتائج التى يمكن الحصول عليها من الآلات الجديدة واهمال « الأهمية الحيوية للعنصر البشرى » ، كان غموض وضع واينر الأساسى وخاصة تعريفه للانسان ، مشجعا لكل من أجتذبته مغامرة « الآلات المفكرة » المفترض أن تحل محل الانسان .

وكان تورينج من أوائل الباحثين الذين طرحوا التساؤل ، الذى ظل حتى ذلك الحين منطقة محرمة بسبب جسامة عواقبه ، والخاص بمعرفة ما اذا كانت الآلات قادرة على التفكير ، بالمعنى البشرى لهذه الكلمة . ورد تورينج على السؤال بالايجاب عقب برهان طويل استعرض كافة الحجج المتعارضة . ولأن عالم الرياضيات الانجليزى الشاب لم يكن من هواة ترويج الأنباء المثيرة . فان اسهامه النظرى فى اختراع الحاسوب ، وأعماله لحساب الجيش فى مجال فك الشفرة ، ثم جهوده فى تصنيع أول حاسوب فى العالم أضفت عليه شرعية لابأس بها فى الأوساط المتخصصة ، انتهت تقريباً بوفاته المأساوية عام ١٩٥٤ . بل لقد اقترح تورينج عرضاً تجريبياً لقدرات « التفكير » عند الآلات . فاذا استطاع أحد المراقبين اجراء اتصال من جهة وآلة من جهة أخرى ، بشرط أن يتواجد كلاهما فى حجرتين مختلفتين عن حجرة المراقب ، دون أن يتمكن المراقب ، بعد طرح عدة اسئلة وتلقى اجابات عليها من الطرفين ، من التمييز أيهما الرجل وأيهما الآلة ، نكون قد حصلنا بذلك على دليل ليس على أن الآلة تفكر ــ حسبما يقول تورينج ــ وانما على الأقل انها تتصرف كما لو كانت تفكر .

والمعيار الذى استخدمه تورينج فيما اسماه « لعبة المحاكاة » مستوحى

بالضبط من أفكار واينر . فقدرة الآلة على التصرف كالانسان ، أى على الاتصال كما لوكانت انسانا ، تعتبر المعادل الكامل للتفكير البشرى . كان تورينج يرى أن الحاسوب هو الآلة القادرة على الانضمام فى المستقبل القريب (كان هذا الكلام فى عام ١٩٥١) الى لعبة المحاكاة .

يرجع ظهور فكرة الحاسوب لدى فون نيومان — كما رأينا — الى محاولته اختراع آلة لاتتسم فقط بالجدة وانما تكون « عقلاً الكترونيا » يطابق تماما « العقل البشرى » . وقد تضاءل الحماس الذى أثارته التجارب الأولى للحاسوب ، الى حد كبير بعد تحليل نتائجها النهائية . فقد كان اتصاله البدائى والرمزى بعيداً تماماً عن اللغة الانسانية الحية ، التى لايزال العلم عاجزاً عن فهم كيفية عملها . فمن وجهة نظر الاتصال ، كان الحاسوب نوعاً من الأميبا السالبة أكثر من كونه شريكاً حقيقياً . وكان بعض المتخصصين ، ومن بينهم فون نيومان ، يعتقدون أن رفع كفاءة الحاسوب سيجعله أكثر شبها بالعقل البشرى ، الذى لايرجع ذكاؤه — فى رأيهم — الى أى سبب ميتا فيزيقى وانما الى اتساع عدد تركيباته التى تتيحها وصلاته العصبية . وتم من هذا المنظور وضع حدود معينة ، بعدها يتعين على الآلات أن تغير من تصنيفها فى دنيا الكائنات .

بينما لم يضع باحثون آخرون، خاصة بعض علماء السيبرنتيكا مثل جرى وولتر ، ثقتهم فى الحاسوب ، وانما فى آلات أخرى أكثر بساطة يمكنها أن تسلك مسلك بعض الحيوانات البدائية . وشرعوا بالفعل فى انتاج « سلحفاة صناعية » . وقد أذهل هذا الحيوان الجديد معاصريه . وكانت « السى » وهذا هو اسمها تتجول فى الحجرة ، وتتجنب الحواجز بمهارة ، وتعطى انطباعا بانها تختار طريقها بنفس طريقة الحيوانات المنزلية ، أى بلا هدف ظاهرى . وعندما كانت البطاريات التى تمدها بالطاقة تضعف ، كانت « السلحفاة تتجه الى مصدر كهربائى معد خصيصاً لإعادة شحنها . وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه الآلة لم تكن مصممة فقط لتقليد نموذج حقيقى وانما لكى تكون « حيوانا صناعياً »

حقيقياً ، وفى هذا الاتجاه يقول ماكولوش أن حيوانا مصمما بهذه الطريقة يمكن أن يصبح له بشكل مشروع تصور فى الحياة » .

وعنى علماء التوجيه حينذاك — فى بداية الخمسينات — بانتاج عائلة حقيقية من الآلات المستقلة ، التى تنفصل تدريجياً عن قبضة الانسان . وقام مخترع السلحفاة الصناعية ، جرى وولتر — بتصوير نفسه مع زوجته وابنته وحيوانه مع هذا التعليق « هذان الزوجان لديهما طفلان أحدهما الكترونى » وتكررت نفس التجربة فى فرنسا مع البرت دوكروك الذى صور نفسه مع ابنته و « ثعلب الكترونى » تحت عنوان البرت دوكروك مع طفليه : كريستين والروبوت .

إن ظهور فكرة الاتصال كان مرتبطاً إذن ارتباطاً لا انفصام فيه بالرغبة فى اعادة توصيف علاقات الانسان بالعالم المادى وبالابداع . وسرعان ما أصبح الاتصال طريقة تعريف شمولية تستخدم لوصف أى نشاط منظم . ومن الطبيعى أن يجد هذا التعريف امتدادات له فى الرؤية التى طرحها علماء الاجتماع للمجتمع الانسانى .

مراجع : P. Breton, 1984; J. Cohen, 1968; J. S. Heims, 1982; B. Randell (éd.), 1982; A. Turing, 1983; N. Wiener et *alii*, 1961; N. Wiener, 1948, 1952.

١٤ ـــ أيديولوجية الاتصال :

بديل للبربرية

يمكن تحديد تاريخ ميلاد الأيديولوجية ، التى صاحبت فيما بعد تقنيات الاتصال ، فى الفترة الفاصلة الواقعة عامى ١٩٤٢ ، و١٩٤٩ . فماهى السمات التى ميزت ـــ من وجهة النظر التى تعنينا هنا ـــ نهاية الأربعينات ؟ وما هو الدور الذى لعبه السياق التاريخى والثقافى فى هذه العملية ؟

كان القرنان الثامن عشر والتاسع عشر فرصة لآمال بلا حدود ـــ فى الغرب على الأقل ـــ بسبب السيادة الجديدة التى أصبح يتمتع بها إنسان ذلك العصر ، والأهمية الأولية فى ذلك الحين لوجود صلة اجتماعية على اساس من احترام « الأشياء العامة » وأخيراً بسبب التقدم الناتج عن ازدهار العلوم . كان الفوران الكثيف لتقنيات الاتصال الذى ميز هذا العصر شاهداً على قوة هذا التفاؤل والايمان بالمستقبل الذى ظل سائداً حتى مطلع القرن العشرين . الا أن « حرب الثلاثين عاماً » الجديدة ، حسب تعبير جورج ستينر ، قضت بشكل مأساوى فى الفترة من ١٩١٥ الى ١٩٤٥ على هذه المزاعم .

ثلاثون عاماً من الحرب

كانت المحصلة الاجمالية لخسائر ثلاثين عاماً من الحرب ، اذا وضعناها جنباً الى جنب ، فادحة على كل المستويات فى عام ١٩٤٥ . فقد افرز العلم « مصدر التقدم الأبدى » وفقا للرؤية المثالية للقرن التاسع عشر ، أسلحة فتاكة ، بدءاً بالغازات الكيميائية فى عام ١٩١٥ وانتهاء بعمليات القصف النووى المشئومة فى صيف ١٩٤٥ . وأسيىء استغلال العلم ، وأصبح عدد من العلماء يعملون بشكل مباشر تحت لواء الجيش أو فى معامل يمولها الجيش بالكامل . ففى الولايات المتحدة الأمريكية تم حشد حوالى مائة ألف عالم مابين مهندسين وتقنيين لصالح مشروع مانهاتن الذى كان يهدف الى تصنيع القنبلة الذرية وذلك فى مدينة أحيطت بالسرية التامة ، تم بناؤها خصيصاً لهذا الغرض هى « لوس الاموس » . وفى عام ١٩٤٥ ، كان العلم والجيش فى الدول المتحالفة وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا وجهين لعملة واحدة .

ثم طرأ تغيير على طبيعة الحرب نفسها : فقد كانت المعارك من اختصاص الجيوش المحترفة ولم يكن للمدنيين أى دور إلا فى حالات استثنائية ، حتى لو كانوا هم الذين يعانون من تبعات المعارك . لكن « حرب الثلاثين عاماً » الجديدة ، التى اسفرت عن خسائر فى الأرواح بلغت ٥٠ مليون ضحية ، معظمهم من المدنيين شهدت الاختفاء التدريجى ـــ من جميع النواحى ـــ للحاجز التقليدى بين مدنيين وعسكريين . فقد تورط فيها المدنيون مباشرة بعدة طرق . فى البداية منذ عام ١٩١٥ ، كان يجب تعبئة شرائح عمرية معينة بالكامل . وبهذه الطريقة تمت ابادة زهرة الشباب الأوروبى . واتسمت الحروب الأهلية التى تلت ذلك ، سواء فى الشرق الأقصى أو فى اسبانيا ، بانتشار الإتاوات والمذابح التى تستهدف السكان « الأبرياء » بصورة لم يسبق لها مثيل .

وقد أكدت الحرب التى اندلعت عام ١٩٣٩ هذا التوجه ، بل نمت نواحيه الصناعية . وأدت المشاركة الكثيفة للفرق المدنية المسلحة التى اتبعت النظم العسكرية (الميلشيات ، حرب العصابات) فى الصراع الى عدم القدرة على التمييز

بين المدنيين والعسكريين فى وقت الحرب بدرجة كبيرة . وكانت عمليات القصف الجوى التى استهدفت تدمير مدن بأكملها (سقط مئات الآلاف من الضحايا من جرّاء عمليات القصف التى شنها الحلفاء اعتباراً من عام ١٩٤٢ وحده) تتويجاً لهذا البناء وقد وصف الحلفاء عمليات القصف المنتظمة ، التى بدأها النازيون فى مدينة جيرنيكا ، والتى استمرت حتى عام ١٩٤٢ بأنها عمليات « بربرية فاشية » . وتم ادراج هذه العمليات ضمن البرامج العلمية ، حتى من جانب أولئك الذين وصفوها بأنها لاأخلاقية التى استهدفت الشعبين الألمانى واليابانى. لم تتكشف حتى الآن كافة الآثار المترتبة على وضع المستحدثات العلمية فى خدمة الحرب الحديثة ، ولا تلك المتعلقة بهذا التحول الغريب الذى طرأ على الحلفاء فى شتاء ١٩٤١ ـــ ١٩٤٢ والذى جعلهم يبدأون عمليات القصف التى طالما نددوا بها باعتبارها بربرية فاشية ، ثم عمليات القصف النووى فى صيف ١٩٤٥ التى ينبغى الكف عن ادراجها ضمن « الحرب الشاملة » ثم « استراتيجية مهاجمة المدن » التى لاتزال حتى وقتنا الراهن الوسيلة الوحيدة المبرمجة للحرب غير التقليدية .

تفجر النزعة الانسانية

كان الاكتشاف التدريجى ، منذ عام ١٩٤٢ وحتى التحرر ، لحقيقة معسكرات الابادة النازية ، بمثابة ضربة حاسمة لاهوادة فيها للتصورات الإيجابية حول سلامة وسيادة الكائن البشرى . وما لم يقبل المرء الاعتصام بفكرة أن هذه المعسكرات كانت محض جنون خارق ومحلى ، فسيبدو الأمر كما لو كان ثمة انقطاع فى تاريخ البشرية أو على الأقل فى الأفكار العالمية التى تضع الانسان ، الكائن البشرى ، فى قلب كل شىء ، لقد أدى القتل الجماعى على أساس عنصرى الى تفجر القيم الرئيسية للنزعة الانسانية .

واستشعرت طائفة العلماء الأمريكيين ، التى ضمت أعداداً كبيرة من العلماء الذين هاجروا من أوروبا فى فترة مابين الحربين ، هذه المسائل أكثر من أى أمر آخر . وكان لقاء بعض العلماء اليهود الذين فروا من النازية مع موجة مناهضة

السامية التى عمت الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٤٣ هو الذى أقنعهم على الأرجح بأن المشكلة ليست محصورة فى ايديولوجية محلية . ومن ثم كانت « حرب الثلاثين عاماً » فرصة لتمزق أخلاق حقيقى ارتبط بالأفكار الجديدة التى ازدهرت حينذاك فى الأوساط العلمية ، خاصة الأوساط المهتمة بالآلات الحاسبة ، ومعالجة المعلومات وعلم السيبرنتيكا والعقول البشرية: ألم يكن «تعريف الانسان» الجديد، و «الوضع الأنتولوجى» الجديد للآلة الذى تخيله علماء السيبرنتيكا، والرغبة فى بناء أجهزة اصطناعية تفوق الأداء البشرى ، تسير كلها فى اتجاه الرد على هذا التمزق الأخلاق وعلى الانقلاب الجذرى فى صورة الانسان التي احدثتها الحرب ؟

ولم يكن وصف واينر لنفسه ـــ على أنه أحد أفراد عائلة الحاخام لوى ـــ ذا أهمية كبيرة. ألم تجتمع مركبات الكوكتيل الذى كان وراء اختراع «الغلام» من جديد ، لكى تشكل تهديداً للجنس كله هذه المرة ، وتظهر عجز الانسان عن مواجهتها ، ولكن على نطاق واسع هذه المرة ؟

ولماذا تساءل واينر فى هذا السياق عن ماهية الانسان ، ولماذا اكتسب هذا التساؤل أهمية خاصة فى منتصف القرن ؟ الانسان الذى حدثنا عنه واينر هو « انسان جديد » ، ليس بمعنى أن الانسان كائن يجب أن يتغير ، وانما بمعنى اعادة اكتشاف ماهية الانسان الحقيقى ، وطبيعته « الاتصالية » فى المقام الأول .

ومن ثم فهو يتميز عن نماذج « الانسان الجديد » الأخرى التى لم يتوقف القرن عن افرازها ، لمواجهة مأساته أساساً . فماهى الأيديولوجيات التى تبارت مع « الاتصال » فى تلك الفترة من نهاية الأربعينات ؟ على أعتاب القرن العشرين لم يكن الموقف قد اتضح بعد : فثمة ايديولوجيتان تتصارعان ، أساساً على صعيد سياسى واجتماعى ، التيار الليبرالى الديمقراطى والتيار الثورى ، اللذان نبعا من نفس الانتفاضات التى هزت القرن الثامن عشر وميزت آماله فى التنوير .

وقد أدى مزيج الحروب الايديولوجية والصراعات ذات الأسس الوطنية التقليدية الى تصادم ثلاثى الاقطاب وتصعيد لم يسبق له مثيل للبربرية . وينبغى أن

نخص بالاشارة التطور الذى تحقق بفضل « العلاج الإبادى » أى قتل أعداد كبيرة من البشر كحل لمشكلة سياسية أو اجتماعية . وكان جميع أدباء القرن التاسع عشر يجدون منطقة تفضيل فى القرن العشرين : أما العلاج الإبادى على أساس اجتماعى وفقاً للايديولوجية الثورية ، التى ساق ممثلوها فى عام ١٩١٧ ملايين الأشخاص الى الموت بناء على معيار واحد هو انتماؤهم الطبقى ، أو العلاج الابادى على أساس عنصرى وفقا لهذا البرعم الأيديولوجي الغريب المتمثل فى الاشتراكية الوطنية . وبلغت جاذبية هذا العلاج حداً جعل الديمقراطيين الليبراليين ، بعد أن انتقدوه بعنف ، أصبحوا يستخدمون أدواته فى الحرب بفعالية متجددة ضد المدنيين فى الدول المعادية بهدف « تحطيم معنوياتهم » .

بديل للبربرية

مع نهاية « حرب الثلاثين عاماً » ، بات واضحاً أن البربرية أصبحت محوراً لجميع الايديولوجيات ، بما فيها تلك التى كتب لها البقاء بعد الحرب ، والتى تحرك حالياً الكتلتين العظميين . وأصبحت قيمة « الانسان النازى الجديد » معروفة ، وكذلك عرفت فيما بعد بدقة قيمة « الانسان الجديد » لدى الستالينيين ، وسادت الرغبة ، على الأقل فى هذا الجزء من العالم الغربى ، فى عدم رؤية البرعم فى الفاكهة . أو أن الأيديولوجية الليبرالية لم تكن محمية بالقدر الكافى — كما كان الاعتقاد السائد — من النزعات الداخلية البربرية ، حتى لو كانت فى نهاية الأمر — الأيديولوجية التى أبدت أكبر قدر من المقاومة . وعند حصر النتائج فى عام ١٩٤٥ ، تبين أن روح القرن الثامن عشر كانت ستدوم أكثر ، مالم تحل محلها ايديولوجية ، ورؤية أخرى للانسان ، وطريقة أخرى لممارسة السلطة . وفى هذا السياق تدخل العلماء والمهندسون — سواء كتطور للأحسن أو للأسوأ — ليحتلوا مواقعهم ، كما حدث فى الولايات المتحدة الأمريكية فى دوائر صنع القرار كمستشارين لمختلف مستويات السلطة . وبنفس طريقة فيرمى و سليزار اللذين أختبرا فى الثلاثينات طبيعة النظم الفاشية والنازية ، وأسرعا الى الولايات المتحدة ولم

يترددا فى اعطاء الحلفاء القنبلة الذرية ، يمكن أن نعتبر أن واينر — و حتى فون نيومان — لم يترددا فى وضع رؤية جديدة للانسان ونموذج جديد للمجتمع .

يعد واينر ، بشكل ما ، الوريث الحقيقى للتيار المثالى ، وينبغى بالتأكيد اعتباره مروجاً لمثالية انثروبولوجية ، وهى نوع من « المثالية الزائدة » الى حد ما ، حيث تقترح اعادة اكتشاف الانسان الطبيعي من أجل تطويره فى اطار منظور منطقي . وسنحاول فيما يلى ايضاح هذه النقطة المهمة .

رسالة واينر هى فى الأصل كما يلى: كل ماحدث للانسان، وبالتحديد اكتساح البربرية ، ليس فيه شيء غير طبيعي . فالمجتمع والانسانية والكون بأكمله يترصدهم تهديد دائم ، قوة مدمرة موجودة على الدوام ، سواء سميناها « القصور » فى اشارة مباشرة ومماثلة للقصور الحرارى المحلى فى حالة الديناميكا الحرارية ، أو الشيطان ، وهو ليس « الشيطان المانوى الخبيث ، الايجابى » انما « شيطان سان اوغسطين السلبى ، الذى أسماه عدم الاتقان » أو أيضا « الصدفة التى كانت عنصراً أساسيا فى بناء الكون » .

والاستراتيجية المعارضة للشيطان مزدوجة . حيث ينبغى مبدئياً التعرف على الرسالة ، المعلومة ، طريقة الاتصال — وهذا هو المعنى الذى أعاد واينر تناول الانسان من خلاله — ثم بذل كافة الجهود « للمحافظة على قنوات الاتصال مفتوحة » أيا كان المضمون الذى يتم تداوله . « فالاتصال » هو الحل ، والترتيب والتنظيم المطروحان وحدهما كمقابل للمعلومة كفيلان بالقضاء على « التشويش » . والآلات لعبت بالتأكيد دوراً أساسياً فى هذا الجهاز ، عن طريق تغيير ظروف ممارسة السلطة .

وتلك هى « أيديولوجيتنا الاتصالية » التى تأسست لتكون الى حد كبير بديلاً لاخفاق الأيديولوجيات التى افرزت البربرية ، وهى أيديولوجيات لايمكن وضعها على نفس المستوى طالما أن مساحة أيديولوجية الاتصال بدأت النمو داخل نطاق الأيديولوجية الليبرالية .

أيديولوجية بدون ضحايا

ثمة اختلاف آخر أساسي بين « الاتصال » والأيديولوجيا البربرية التى يتطلع للحلول محلها ، يتمثل بالتأكيد فى طبيعة العدو المستهدف وقد أسهم واينر « عندما أضفى طابعاً دينيا على الحوار » فى جعل الناس يكفون عن تحديد عدو إنسانى ، سواء كان أحد أفراد عنصر معين ، أو ينتمى الى طبقة أووضع اجتماعى بعينه . لم يعد العدو فى نظامه بشراً وانما كيان شيطانى ، هو الفوضى ، وقلة التنظيم وحجب المعلومات . وبرغم أن ايديولوجية الاتصال لها القيمة الكبرى ، فالامرهنا يتعلق بفضيلة حقيقية وأساسية هى عدم تحميل الانسان سواء كان أحمر أو أبيض أو يهوديا مسئولية مآسى البشرية .

ومع نهاية الأربعينات كانت التهديدات ، مرة أخرى ، لاتزال قائمة . وكانت الحرب الباردة تنشر فوق الرؤوس تهديداً مستمراً بامكانية حدوث كارثة نووية يتورط فيها المدنيون بشكل لم يسبق له مثيل . وتصاعد الاحساس بالعجز ازاء تعقد الموقف المأساوى بسبب الوعى الحاد بأن الحرب الأخيرة لم يكن فى الامكان تجنبها . وأضيف الى الاحساس بالخطر احساس بغياب المبادرة لدى الحكام الذين كانوا عاجزين عن درء الشر ، وتمثل ردهم الوحيد فى التخطيط لأسوأ احتمال بوضع استراتيجية الرد النووى « مهاجمة المدن » ، التى كان هدفها أيضا السبق فى ابادة السكان المدنيين .

يركز لوسيان سفيز فى طرحه للسؤال حول جذور ومحل ميلاد أيديولوجية الاتصال الجديدة ، على كونها ولدت فى الولايات المتحدة الأمريكية أى فى مجتمع بلا ذكريات . والاتصال فى هذا السياق كان بمثابة « ملجأ لشعب يفتقر الى رموز تاريخية » . لكن يجب أن نوضح ، وقد طرح لوسيان سفيز نفس السؤال ، لماذا فرضت هذه الأيديولوجية نفسها بمثل هذه السهولة فى المجتمعات الأوروبية ، التى تتمتع « بذكريات طويلة » ؟ يتمثل أحد عناصر الرد على هذه المفارقة الظاهرية ، فى كون الغرب انشغل فى مجمله بمسألة « الذكريات » بطريقة جديدة اعتباراً من نهاية الحرب العالمية الثانية بالتحديد .

ويدين مجتمع الخمسينات بجزء كبير من ديناميكيته لنسيان مزدوج للذكريات . أولاً حجب حقيقة صور عمليات القتل الجماعية سواء التى ارتكبها النازيُون بتفرد شديد أو تلك التى سمح الحلفاء لأنفسهم بارتكابها خصوصاً فى اطار عمليات القصف الجوى . وثانيا نسيان التهديد النووى غير المحتمل الذى كان يخيم فى الواقع على رؤوس الشعوب الغربية والذى جعله الغرب بدوره مخيماً على شعوب الدول الشرقية . وهناك الكثير مما يمكن أن يقال حول السلوكيات الاجتماعية للناس الذين يعيشون فى حالة تهديد دائم . وقد اثبت بعض الباحثين أن الناس المعرضين بحكم مهنهم لأخطار نووية ، مضطرون لأن يفرضوا على أنفسهم رقابة مشددة فيما يتعلق بعملية ادراك الأخطار التى يتعرضون لها . ويبرز هنا فقدان الذاكرة كشرط من شروط الحياة اليومية ، وتصبح الأهمية الملحوظة المعقودة على ايديولوجية الاتصال — فى الغرب ككل — بمثابة الرد على هذا الأسلوب الذى ميز فترة الحرب الباردة ، التى ورثناها حتى يومنا هذا .

مجتمع جديد .

بعدما وضع واينر فى عام ١٩٤٨، بفضل علم السيبرنتيكا، أساس نسخة انثروبولوجية جديدة للانسان — والآلات — عمد على الفور الى إضفاء بعد اجتماعى أكثر اتساعاً على أعماله . وكان افتراضه الأساسى بسيطا وملائما للمرحلة : فطبيعة الطوائف الاجتماعية تعتمد على « أسلوبها الخاص فى الاتصال » الذى قد يكون مفتوحاً ومليئا بالحيوية أو على العكس يؤدى الى تدمير بطىء أو سريع للمجتمع .

لذا سنجد الفكر الاجتماعى لـ واينر محكوماً ببدائل ثلاثة أساسية : أولاً فى السلوك الاجتماعى ، الاختيار بين الجمود والقدرة على التعلم ، ثانيا فيما يتعلق بسرية المعلومة كمقابل « لوضوحها » ، وأخيراً تخزين وتثبيت المعلومات ، اللذين يشلان الفضائل الديناميكية لحركتها وانتشارها الواسع فى المجتمع . شكلت هذه الموضوعات عدداً كبيراً من البراهين التى استخدمت فيما بعد كأساس

للحديث عن الاتصال ، خصوصاً ابتداء من السبعينات .

كان التعارض بين الجمود وقابلية التعلم فى السلوك مرتبطاً — لدى واينر بفكرة أن التغذية الاسترجاعية تشكل النموذج التنظيمى الأقدر على القضاء محلياً على الفوضى . لقد كانت التغذية الاسترجاعية فى رأيه هى أكثر الوسائل تطوراً فى تبادل المعلومات بين كائن معين وبيئته طالما أنها تتطلب تعلماً مستمراً . ولذا ينبغى بذل كافة الجهود ، فى المجتمع الاتصالى ، لاطلاق طاقات التعلم الكامنة لدى الانسان ، وأيضا لدى الآلات . وكان الجمود ، أى ايقاف التعلم ، معادلاً عند واينر للبرمجة النهائية لسلوك ما .

والنظام الجامد هو نظام مقفل ، ليس له اتصال بالخارج ، فقد كان واينر مقتنعا بأنه فى حالة النظم الاجتماعية ، كما هو الحال فى النظم الحرارية التى يدرسها علم الديناميكا الحرارية، ينزع كل نظام معزول الى حالة من الفوضى القصوى. والدعوة لتطوير قدرات التعلم ، التى تم تعريفها على انها نوع من تبادل المعلومات مع البيئة المحيطة ، لاتخص الناس وحدهم وانما الآلات أيضا . فكل آلة اتصال لاتكون قادرة على التعلم يمكن أن تصبح نقطة فوضى فى المنظومة الاجتماعية الواسعة للتبادل الإعلامى . والتعلم ، بالنسبة للآلة ، يعنى انها قادرة على تعديل سلوكها وربما طريقة تنظيمها الداخلية ، تبعاً لتحليل نتائج عملها .

وساق واينر ، فى مجال الاتصالات اللاسلكية ، واحداً من هذه الأمثلة التى يعرف سرها : فقد اقترح لترتيب النظام الهاتفى ، بدلا من ربط جميع نقاط الشبكة بعضها بالبعض الآخر بدون مرونة ، أن يؤخذ فى الاعتبار تكرار الوصلات نقطة نقطة لتسهيل تمرير الاتصالات الأكثر امكانية ، على حساب الأقل امكانية . وهكذا يمكن لمستخدم معين أن يحصل بسرعة على رقم تعود على طلبه مراراً لأن الآلة تضع فى اعتبارها هذه الأولوية عند تنظيم دوائرها .

وهذا المثال يعبر تماماً عن تفكير واينر وعن أمله فى أن يعهد للآلات بدور اجتماعى أكثر « ذكاء » . وهو يعكس أيضا نفور عالم الرياضيات من الأجهزة

المبرمجة والجامدة ، غير القادرة على التعلم . فقد كانت هذه الأجهزة مستخدمة فى رأيه فى تنظيم المجتمع الفاشستى ، حيث كانت جميع السلوكيات مبرمجة مسبقاً ولم يكن الانسان سوى ترس فى آلة .

وكان الخيار بين تخزين المعلومات أو تداولها أحد الأفكار الأخرى التى أسهم واينر فى نشرها . وبهذه الروح ، كانت المعلومة هى « الاسم الذى يطلق على محتوى مبادلاتنا مع العالم الخارجى بينما نحن نتكيف معه ونفرض عليه عملية التكيف هذه » وأضاف قائلا أن الحياة الحقة تتطلب معلومات ملائمة .

وفى هذا الاطار ، فان أى عائق أمام حركة المعلومة وتداولها يؤدى بالضرورة الى تأخر اجتماعى : ويقول واينر أن الاتصال هو « سر تماسك المجتمع ، وأولئك الذين ينحصر عملهم فى المحافظة على حرية قنوات الاتصال هم أنفسهم الذين تتوقف عليهم استمرارية حضارتنا أو سقوطها » . والانتقاص الهائل من القيمة المحتملة للمعلومات يأتى أساساً من محاولة حجبها تحقيقاً لمصالح تجارية . وقد استخدم واينر كلمات شديدة القسوة للتنديد بخضوع الصحافة والاذاعة للمصالح التجارية ، أو على صعيد آخر بسياسة البراءات التى تقيد عملية الاختراع بأغلال عقيمة . فقنوات الاتصال تكون مخنوقة ومشوهة اذا ما خضعت لقانون الربح وحده . وتحويل المعلومة الى بضاعة قابلة للتخزين يكون مرادفاً لتخلف وضعف التيار المستمر الذى يجب أن يغذى المجتمع ، والذى يعد روح المجتمع المتحضر ذاتها .

أما الخيار الثالث فيقابل بين غموض المعلومة و « شفافيتها » . واستخدام لفظ شفافية على سبيل الاستعارة ليس جديداً . حيث يقول جيل لابوج ، فى تحليله لتاريخ المدن الفاضلة (اليوتوبيا) أن « المدينة المثلى » كانت دوما شفافة لكن واينر يزيد على هذه النقطة بتركيزه على فكرة أن المجتمع « يمكن فهمه فقط من خلال دراسة الرسائل الخاصة به » . ومنذ ذلك الحين أصبحت سهولة الوصول الى المعلومة تشكل فرضية حيوية تناقضها سياسة السرية (الغموض) بجميع أشكالها ، وهى سياسة تعكس « رغبة حضارة مريضة تريد تجاهل

استفحال مرضها » . وسنلاحظ بشكل عابر أن مسألة إضفاء مثل هذا الدور على المعلومة سيترتب عليه ، كنتيجة غير مباشرة ، أن تصبح العلوم التى تدرس الاتصال علوماً اجتماعية من الطراز الأول .

كان ثقل وزن الجيش فى المؤسسات الأمريكية المختلفة ، وخصوصاً فى الجامعة ، واضحاً حينما وصف واينر المجتمع الاتصالى المثالى ، بأنه الوحيد القادر على الاستمرار والبقاء . وغيرت دواعى « الأمن القومى » تماماً النموذج المثالى للاتصال بين العلماء ، الذى قام أصلاً على حرية تبادل الأبحاث والنتائج . وأسهمت عمليات التجسس الكبرى التى ميزت بدايات الحرب الباردة أيضا فى التشكيك فى كل موقف يؤدى الى الوصول الى أى معلومات يمكن أن تكون لها صلة ، حتى ولو من بعيد ، بالقطاع الصناعى أو العسكرى أو الاعلان عنها .

ولم تكن الأسرار العسكرية وحدها هى شغل واينر الشاغل ، فعندما دافع عن مبدأ « الشفافية » ، أثار فى الوقت نفسه نقطة أساسية فى رأيه تتعلق بالمعرفة الكاملة من جانب الناس جميعاً للقواعد المنظمة لأى اتصال اجتماعى فالتفكير فى المجتمع الاتصالى يحتاج الى قوانين تعتبر « المظهر الأخلاقى للاتصال » . ومن ثم تصبح مشاكل الحقوق والقوانين جزءاً لايتجزأ من طبيعة الاتصال وترتبط بعلم السيبرنتيكا كنظام من حيث كونها مشاكل تعتمد على المراقبة المنتظمة والمتكررة لبعض المواقف الدقيقة .

ومن ثم شن واينر حربا على ما أسماه « العالم المظلم ، ذا المحاكم السلبية » . فهو يرى أن الواجب الأول لأى مشرع أو قاضٍ هو صياغة أدلة واضحة ليس فيها لبس بحيث يستطيع الخبراء بل ورجل الشارع العادى تفسيرها بنفس الطريقة ومن ثم توقع قرارات المحكمة سلفا . وضرب واينر مثالاً بمصير الهنود ، الذين تنازلوا ، بسبب عدم معرفتهم بقواعد المبادلات وجهلهم لمفهوم ملكية الأرض ، للبيض عن حقوق الصيد فى أراض تم ضمها ببساطه شديدة ، وبمنتهى حسن النية القانونى ، حيث تم تفسير هذه الحقوق بأنها حقوق ملاك الأرض . وكل عقد منصف يتطلب ، من خلال رؤية اتصالية مفتوحة ومعلنة ، أطرافاً ملمين بالقواعد الملزمة .

تأثير واينر

ماذا كان تأثير واينر وماهى براهينه المؤيدة للمجتمع الاتصالى ؟ للاجابة على هذا السؤال يجب الاعتراف بأن واينر لم يكن مجدداً الا فى حدود ضيقة . وكان تفكيره يعكس وضعاً قطع شوطاً طويلاً فى المجتمع الغربى ـــ وبالذات فى العالم الأنجلو سكسونى ـــ حيث كانت المعلومة بالفعل ، وبأشكال متعددة ، واقعاً مكثفاً . وبينما كان الجميع يرى فيها بعداً أساسياً ، جعلها واينر المحور الذى يجب أن يدور حوله أى تنظيم أو تصور . والأهمية التى أضفاها على قنوات الاتصال وأجهزة معالجة المعلومات سايرت التقدم المادى للتقنيات فى هذه المجالات خاصة تقنيات الهاتف والحاسب الآلى ، حتى ولو كان حديثه قد سبق هذا التقدم بعدة سنوات. .

وكان وعيه الحاد بوجود خطر يهدد المجتمع والصلات الاجتماعية بل ووجود المجتمع الانسانى ذاته ، مرتبطا بالحالة المعنوية لمجتمع لم يكتب له البقاء فى الحاضر الا بنسيان مآسى الماضى القريب وتلك التى يتوقع حدوثها فى المستقبل القريب . وتمثل اسهام واينر فى طرح مفردات ذات أصول علمية (خاصة الفوضى والمعلومة) لتحليل وتفهم الوضع الاجتماعى والأخلاق المعنوى الذى لم يجرؤ أى نظام تقليدى على تفسيره والذى كان موضوع محاولة محو مستمرة من الذاكرة . كما أن قوة البراهين التى اقترحها لتأييد المجتمع الاتصالى كانت مستمدة بالتأكيد من الصمت وغياب التفسير للطفرات الكبرى التى ظهرت فى تلك الفترة اكثر من صلابتها الذاتية الداخلية .

ولم يكن لأكثر الأجزاء سياسية فى كلام واينر ، وهو الجزء الذى جعله يستحق صفة « الثائر المنطقى » الأصيل الذى يقاوم الرأسمالية والشيوعية والكنيسة والجيش ، تأثير مباشر على مجتمع يتمتع فيه أولئك الذين يشعرون بأنهم فى حال تعبئة بسبب الحرب الباردة بالغلبة على الآخرين الملاحقين أيضا ، والذين يتخيلون مستقبلاً آخر للولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربى . وكان ينبغى

انتظار حلول منتصف ونهاية الستينات لكى تغذى أفكار واينر التى انتشرت على نطاق واسع ، التيار الراديكالى المعارض للتورط الأمريكى فى فيتنام وكمبوتشيا ، والذى حاول أن يفرض من خلال معارضته قيماً جديدة . وفى انتظار استعادة النفوذ على المستوى السياسى ، شجعت أفكار واينر التوجيهية ، التى تلاقت مع أفكار بعض المنظرين الإعلاميين ومع أفكار علماء الحاسبات الأوائل ، اللجوء بشدة الى التقنيات الجديدة فى الاتصال .

مسألة القرار

إحدى النقاط التطبيقية البارزة للكلام الجديد عن الاتصال ، فى المجال التقني ، هى بدون شك مشروعات ادخال الآلية فى مجال اتخاذ القرار . وكان البرهان القائل بأن أهمية الآلات الجديدة تنحصر فى قدرتها على الحلول محل صانع القرار من بنى البشر والذى منى بالفشل ، من أوائل البراهين التى عرفها الجمهور الفرنسى . وقد صور أول مقال ، نشر فى الصحافة الفرنسية فى ديسمبر ١٩٤٨ وكان من تأليف الأب دوبارل وأعلن فيه عن وجود الحاسبات ، هذه الأجهزة على أنها « الآلات الحاكمة » المستقبلية ، المؤهلة بفضل « قدرة منطقية على أداء العمليات البشرية » لسد النقص الذى بات واضحاً فى العقول والأجهزة المدربة على السياسة .

وكرد فعل ، أعلن البروفيسور فورستر مخترع الحلقات التى شكلت ذاكرة الحاسوب ، والذى أصبح هو نفسه المنسق المعلوماتى لأول تقرير يصدر عن نادى روما ، أن النظم الاجتماعية أصبحت شديدة التعقيد بحيث لايستطيع البشر إدارتها، فالعقل البشرى القادر فقط على الاستدلال والمجادلةوالتخمين ، بات غير مهيأ لتفسير الظواهر الاجتماعية .

وقد أجرى فون نيومان الذى يعد أبو الحاسوب ، أبحاثاً من أجل استخدام الآلات فى اتخاذ القرارات الاستراتيجية ، مستنداً الى نظرية الألعاب التى وضعها . وشارك عالم الرياضيات نيومان فى وقت من الأوقات فى عملية القصف النووى

الوقائى للاتحاد السوفيتى . وقد استهدف تصميم نظام « البيئة الأرضية نصف الآلية » ، الذى كان كما رأينا من أوائل الشبكات الكبرى ، تقليل الاعتماد على العنصر البشرى الى أضيق نطاق ، وفتحت نماذج لاحقة لهذا النظام الدفاعى الباب أمام امكانية الآلية الكاملة للرد النووى فى حالة وقوع اعتداء .

لكن واينر تصدى بشراسة لهذه المحاولات جميعها ، ولكل المحاولات التى كانت تستخدم فى رأيه أجهزة جامدة ، وغامضة تفتقر الى أى امكانية للتعلم . ولم تكن مقاومته للاستخدامات العسكرية ـــ رغم صدقها ـــ هى نقطة الخلاف بينه وبين فون نيومان ، وانما المفاهيم الحتمية الدقيقة حول المعلومات ومعالجتها التى اكتشفها لديه .

فى مقابل ثقافة البديهيات المنطقية التى جسدتها الحاسبات وتقنيات الاتصال فى الأربعينات ، طرح واينر ثقافة الاستدلال ، والاتصال المفتوح والحى والواضح . واستمر الحوار التقليدى بين هاتين الثقافتين ، لكن تحت ضغط النتائج المأساوية « لحرب الثلاثين عاماً » الجديدة ، أصبح يدور داخل العالم التقنى نفسه . وبفضل أو بسبب أيديولوجية « الاتصال » الناشئة ، خضعت تقنيات الاتصال لاغراء احتواء الاجتماعيات فى داخلها ، لتحقق تدريجيا مشروع واينر .

مراجع : J. Cohen, 1968; D. Dubarle, 1948; J.S. Heims, 1982; G. Lapouge, 1978; P. Pringle, J. Spigelman, 1982; B. Randell (éd.), 1982; T. Roszak, 1986; L. Sfez, 1988; G. Steiner, 1973; A. Turing, 1983; N. Wiener et *alii*, 1961; N. Wiener, 1948, 1952; D. Wyman, 1987.

١٥ ـــ الرهانات الاقتصادية

لتقنيات الاتصال

شهدت تقنيات الاتصال ، منذ نهاية الحرب ، فترة نمو لم يسبق لها مثيل في التاريخ . وحققت ميادين الاتصال الثلاثة الكبرى ـــ وسائل الاعلام ، الاتصالات اللاسلكية والحاسبات الآلية ـــ تطوراً فى مجالات تطبيقها فاق ماتوقعه الخبراء أنفسهم .

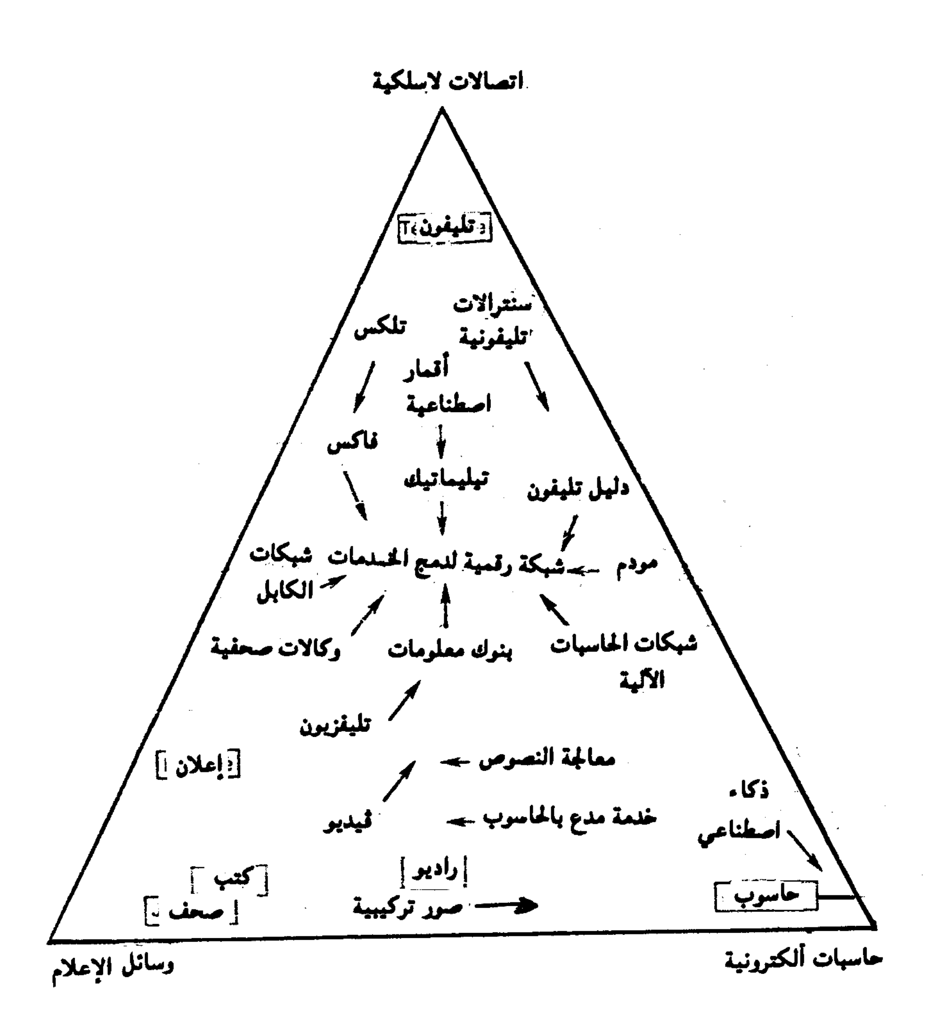
وأدت الزيادة التدريجية فى نفوذها ـــ منذ نهاية الستينات ـــ لأن تصبح جميع التقنيات التى تدعم الاتصال بصورة أو بأخرى قاعدة لرهانات اقتصادية كبيرة . ومن المحقق أن ظهور هذه التقنيات على مقدمة الساحة الاقتصادية تحقق بفضل الدعم الهائل من جانب ايديولوجية الاتصال ، التى وصفنا فيما سبق ملابسات ظهورها . وقد واكبت هذه الأيديولوجية ـــ خطوة بخطوة ـــ الحركة التقنية والاقصادية سواء فى مجال الاتصالات اللاسلكية أو فى مجال الألكترونيات أو حتى تطور وسائل الإعلام الجديدة . ولم يقتصر دور أيديولوجية الاتصال ، التى يمكن أن نتابع تغلغلها التدريجى فى العقول ، على مواكبة التطور التقنى والاقتصادى فى هذا القطاع ، فقد مهدت له الطريق ووفرت له أكثر الحجج اقناعاً .

أما أكثر السمات بروزاً فى تطور تقنيات الاتصال فهى بدون شك حركة اندماج ميادين الاتصال المختلفة والاختفاء التدريجى للحدود التى كانت تفصلها من قبل . ويصور الشكل المقابل (شكل رقم ١) ظاهرة الاندماج هذه التى تمثل النواة الصلبة للرهانات الاقتصادية . وقد تم توزيع مواقع التقنيات المختلفة المذكورة فى هذا الشكل على المثلث وفقا لاسهامها كل قطاع من القطاعات الثلاثة فى عمل . لذا تم وضع السنترالات التليفونية فى منتصف الطريق بين تقنيات الاتصالات اللاسلكية وتقنيات الحاسبات الآلية ، أما عنصر « وسائل الإعلام » فهو منعدم فيها تقريباً . والصور التركيبية تقع فى منتصف الطريق بين عالم وسائل الإعلام وعالم الحاسبات . أما الشبكات الرقمية للخدمات المتكاملة (RNIS فى فرنسا Integrated Services Digital Netwocks فى الولايات المتحدة الأمريكية) فتمثل موقعاً مركزيا لأنها مرتبطة بتقنية ثلاثية الاقطاب ، وتستخدم معطيات الحاسب الآلى الى جانب الصوت والصورة والاتصالات اللاسلكية . وتمثل الأسهم الموجودة فى الشكل اتجاه كل تقنية من التقنيات . لذا فان السنترالات التليفونية ، التى كانت تعتمد من قبل فى تنفيذها على التقنيات الكهرو ميكانيكية الخاصة بعالم الاتصالات اللاسلكية ، تحركت صوب عالم الحاسبات وأصبحت تعتمد فى تنفيذها على الألكترونيات . وتطورت معالجة النصوص عن طريق الحاسبات نحو النشر بمساعدة الحاسوب ومن ثم اتجهت الى قطاع وسائل الإعلام ، حيث أدت الى تغييرات مهمة فى طرق العمل .

وينحو الاتجاه العام كما نرى الى اندماج التقنيات عند مركز مثالى . وتبدو المشاكل التى يطرحها هذا الاندماج بعيدة عن الحل ، وقد يتساءل المرء عما اذا كان هذا الاتجاه صوب مركز افتراضى الى حد ما ، لايتأتى من تأثير وهمى لأيديولوجية الاتصال ، طالما أن بعض القطاعات يتعين عليها الاحتفاظ رغم كل شيء باستقلاليتها . يمكن أيضا أن نرى من خلال هذا الشكل ، الى أى مدى تمثل التقنيات القائمة على أسس الكترونية حجر الزاوية فى محاولة دمج تقنيات الاتصال المختلفة . والحركة التى نشهدها الآن ، والتى تسير جنباً الى جنب مع

شكل رقم ١

مثلث الاتصال



مثلث الإتصال

تطور منهج للاستخدامات ، هى بالتأكيد حركة إعادة تشكيل ميادين الاتصال كلها .

وسندرس من خلال هذا الفصل كيف جاءت أيديولوجية الاتصال لتدعم رسوخ البنية الاقتصادية لتقنيات الاتصال ، وكيف برزت تدريجياً أهمية قطاع الاتصالات اللاسلكية. وأخيراً سنبحث مشكلة «رفع القيود»، التى سنرى أنها بطرق كثيرة مرتبطة بمسألة اندماج تقنيات الاتصال. وربما يكون «رفع القيود» فى الواقع هو إحدى النتائج الرئيسية لأيدلوجية الاتصال فى المجال الاقتصادى . ويصبح هنا النمو المكثف لصناعة الالكترونيات ، الذى تناوله باسهاب عدد كبير من الكتاب هو الخلفية المنطقية .

أيديولوجيا واقتصاد .

سواء تعلق الأمر بشراء إحدى المؤسسات لنظام اتصالى جديد ، أو باتخاذ قرار بشأن السياسة الصناعية من جانب دولة مّا ، فقد أصبح المجتمع اليوم — وهذا يثبت مدى انشغاله بنموذج الاتصال بالمعنى العريض للكلمة — يسعى لاقامة الحجج التى تضفى الشرعية على اختياراته وقراراته . وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن هذه الحاجة الى الشرعية هى شكل من أشكال البلاغة اللفظية السطحية . فاللجوء المكثف الى تقنيات الاتصال لايتم هكذا من تلقاء نفسه .

بيد أن الحجج التى تبرر تطور تقنيات الاتصال واستخدامها المكثف فى مجتمعاتنا ليست بالقليلة . بل ان استخدامها يتزايد فيما يخص دول العالم الثالث ، المطلوب منها أيضا أن تصبح « مجتمعات اعلامية واتصالية » ، والتى لم يؤد تخلفها الى نقص تقنياتها فى هذا المجال والى تهميشها بالنسبة للدوائر الإعلامية العالمية الكبرى . وسنتبين هنا بين الأحاديث الكثيرة والمتنوعة الخاصة بالاتصال ثلاث مجموعات رئيسية من الحجج الأيديولوجية ، والحجج الاقتصادية وحجج « مناهج الاستخدامات » . وقد تتابعت هذه الأنواع الثلاثة زمنيا ، ولايزال آخرها فى طور التكوين ، دون أن يحل أحدها محل الآخر .

وقد ترتب على الحجج الأيديولوجية ، أو حجج « الجيل الأول » لأنها أقدم الأنواع الثلاثة ، تشجيع للتحديث واستخدام تقنيات تحليل المجتمع والانسان والكون بصفة عامة الذى يجعل من عمليات الاتصال مركزاً لكل شيء . وقد افرزت هذه الأيديولوجية التى درسنا من قبل ظروف ظهورها ، مفاهيم مثل « الشفافية الاجتماعية » و « الانسان المتفاعل » ، و « المجتمع الإعلامى » و « الثقافة المعلوماتية الجديدة » .

ويجدر الاعتراف بأنه لم يطرأ أى جديد على هذا المجال منذ الأربعينات ، حتى لو كانت الحجج التى صيغت فى هذه الفترة تعرضت بشكل دورى للترجمة الى لغة أكثر حداثة ، وحتى لو كانت المفردات التى اعتمدت عليها تعرضت بانتظام للتجديد . ومن بين الأشكال التى اتخذتها هذه الأيديولوجية الاتصالية شكل يدعو للتسليم بأن استخدام التقنيات فى هذا المجال ينبع من « حاجة طبيعية » . فقد سعى الانسان من قديم الأزل لابتكار تقنيات تكفل له البقاء والسيطرة على الطبيعة . وقد مر التطبيق العصرى لهذا الشكل التقليدى من أشكال العلاقة بين الانسان والتقنية أو بينه وبين الطبيعة ، بجميع التقنيات التى تيسر نشر المعلومات ونقلها ومعالجتها .

تجسد هذا المفهوم تماماً فى الاستعارة المجازية التى لجأ اليها « ويليام بيرس » ونيكولا جيكييه عندما وصفا «نظم الاتصال بصفة عامة والاتصالات اللاسلكية بصفة خاصة » بأنها تملك « الكثير من الخصائص المشتركة مع العقل البشرى ومع شبكات الاتصال فى الجسم البشرى » . ثم يضيف المؤلفان « وفى هذا الصدد لا تعد الاتصالات اللاسلكية مجرد تقنية مثل غيرها وانما هى الجهاز العصبى للمجتمع . ونحن نعرف اليوم أن ذكاء الفرد لايتوقف على حجم مخه ، وانما على غزاره ونشاط الوصلات الموجودة بين الخلايا العصبية (...) فاذا سلمنا بهذا التشابه سنصل الى أن نظام الاتصال اللاسلكى هو أكثر من مجرد بنية أساسية » .

وفى اطار هذا الوصف ، الذى وضعه جويل دو روزنى باستخدام « عقله الكونى » ، فان اللجوء الى الاتصال لايبدو كخيار سياسى أو ايديولوجى وانما ضرورة طبيعية لاجدال فيها . لذا يمكن تقسيم الحجج الأيديولوجية الى نوعين : نوع واضح ــ نجده فى خطب كبار صانعى القرار ، ونوع متخفى ــ كثيراً ما يستخدمه التقنيون والخبراء ــ الحريصون على اثبات أن عملهم يتمتع بشرعية « طبيعية » الى حد ما .

وأحيانا تختلط حجج هذين النوعين ، برغم تناقضهما الظاهرى . وقد شهدت نهاية الستينات تطور « ثورة الحاسبات » التى كانت فرصة لتبرير ذى طبيعة شبه سياسية (حيث تعلق الأمر بتغيير طبيعة المجتمع لا أكثر ولا أقل) ولتحقيق مزيد من الشرعية بالمعنى التقنى للكلمة . على المستوى العملى ، فى فترة السبعينات التى شهدت « استخدام الكمبيوتر فى جميع أنشطة المجتمع » ، ذلك الاستخدام الذى كان يتم دفعه بخطى حثيثة الى الأمام ، كان هذا الخلط بين الأنواع فعالاً للغاية لأنه كان يسمح باستدعاء « حيادية الوسيلة » و « قدرتها على اصلاح » الهياكل القديمة البالية . فعندما كانت الحجة الثانية تلقى مقاومة ــ « للتغييرات » ــ كان يتم الاستعانة بالحجة الأولى التى توفر حينئذ المناخ الملائم للثانية وهلم جَرًّا . ولم يقصر علماء الاجتماع ، فى ذلك الحين ، فى الرصد الملموس لاستراتيجيات نشر التحديث التى كانت تعمل على هذا الأساس ثنائى القطبية .

وقد تعرضت حجج الجيل الأول ، التى لم تفقد تأثيرها فى بعض الظروف الأساسية ، لعملية احلال على نطاق كبير اعتباراً من السبعينات ، من جانب حجج الجيل الثانى التى أعطت الأولوية هذه المرة للدور الحاسم لتقنيات الاتصال ، خاصة الرقمية منها ، سعياً وراء امكانيات خروج الدول الصناعية الكبرى من الأزمة وكانت مستحدثات هذا المجال هى المحور الثابت الذى انتظم حوله الاقتصاد وبالتالى المجتمع. وكما كانت السيارة هى الوسيلة التقنية «للخروج من الأزمة » فى الثلاثينات ، أصبحت الاتصالات اللاسلكية والحاسبات الآلية ،

واندماجها مع قطاع وسائل الإعلام التقليدى ، وراء ظهور ديناميكية اقتصادية جديدة . ويجسد الشعار الذى جعل من المعلومة « نفط الثمانينات » هذا التصور بشكل جيد . وهو يعكس أيضا ــ فى اطار هذا المفهوم كما يقول آلان جيرو ــ الى أى مدى « يجب اعتبار الاتصالات اللاسلكية ، والمعطيات والصور بمثابة بضائع لاتختلف عن غيرها من البضائع » .

كانت السبعينات والثمانينات فى الواقع فرصة ملائمة لبروز هذا البعد الاقتصادى فى جميع ميادين الاتصال . وقد ارتبط هذا البروز برهانين أساسيين فى هذا المجال هما : اتساع دور تقنيات الاتصال فى المجتمع وخصوصاً انه أصبح عالمياً من ناحية ، واندماجها من ناحية أخرى أى تلاقيها فى نفس البؤرة التى جمعت بين مجموعات التقنيات الثلاث الكبرى : وسائل الإعلام ، الاتصالات اللاسلكية والحاسبات الآلية . ونظراً لأن امتداد تقنيات الاتصال يعتمد الى حد كبير فيما يبدو على قدرتها على الاندماج الداخلى ، فان هذه المسألة الأخيرة تبدو حقاً لب الرهانات الاقتصادية .

يمكن لتقنيات الاتصال أن تفلت بشكل أقل من الصبغة الدولية لو أنها استندت الى أيديولوجية شاملة . كان الاتحاد البرق ، الذى أصبح الآن الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية ، أول وكالة دولية تأسست فى العالم أجمع . تلاه إنشاء الوكالة الدولية للأقمار الاصطناعية الخاصة بالاتصال INTELSAT فى عام ١٩٦٤ ، ثم جاء تبنى المنظمات الدولية الكبرى لمثل هذه المسائل مسايراً لنفس الاتجاه .

بالاضافة الى هذه الحجج، تتراكم الآن أمام أعيننا مجموعة من الموضوعات تدور حول فكرة ، جديدة بشكل مختلف ، تقول بأن تقنيات الاتصال مرتبطة « باستخدام » ، وباحتياجات فردية تنبع من « ثقافة تقنية » جديدة . وينبغى أن ينتظم انتاج التقنيات والسلع الاعلامية هذه المرة حول « منهج استخدامات » جديد ، لم تتبلور صياغته بعد كمصدر لحجج الجيل الثالث .

إن نشر وتعميم تقنيات الاتصال يسهم ظاهرياً ــ ولو بشكل نسبى ــ فى

تدعيم هذه الفكرة . وكما لاحظ جوسيان جويه فان « الكفاءة التقنية لم تعد اليوم شرطاً مسبقاً لاستخدام التكنولوجيا الجديدة . فاستخدام « المينيتل » لايتطلب أى معلومات خاصة وانتشار الحاسبات الدقيقة يصاحبة كلام يؤكد سهولة استخدامه وسهولة الحصول عليه ، فقد أصبح أخيراً فى متناول الجميع ... « لقد صنعت الأيديولوجية السائدة من التقنية اسطورة عندما جعلتها « ضرورة » فى مجتمعنا ، ونزعت عنها الطابع الاسطورى عندما سهلت الحصول عليها . إن تعبير « تعليم أبجدية الحاسب الآلى » أساسى فى هذه المجموعة من حجج الجيل الثالث ، التى أعادت اكتشاف الجذور الأيديولوجية للأربعينات بشكل ما .

الأهمية المتزايدة لدور الاتصالات اللاسلكية

فى هذا السياق ، أخذت الفكرة القائلة بأن تطور قطاع الاتصالات اللاسلكية عنصر حاسم فى الحياة الاقتصادية بأكملها ، تفرض نفسها تدريجيا وبسهولة . وتجدر الاشارة الى وجود اتفاق حول هذا الموضوع بين من يريدون تحرير هذا القطاع بالكامل ومؤيدى التدخل الحكومى الشديد . ومن المؤكد أن هذا الاتفاق هو أحد الآثار الايجابية لأيديولوجية الاتصال ، التى لعبت بذلك دوراً «رابطاً» أساسياً، استطاع أن يتجاوز الانشقاقات التقليدية بين الخيارات السياسية .

من الواضح أن الاتصالات اللاسلكية تلعب دوراً بارزا فى عملية دمج تقنيات الاتصال هذه . وهى تقوم بمهمة تحكيمية من حيث كونها نقطة مرور اجبارية على المستوى التقنى بل والسياسى . فالى جانب « السلطة الرابعة » التى تمثلها وسائل الإعلام ، والطبيعة الخاصة ــ بمعنى المؤسسة الخاصة ــ لصناعة الحاسبات والالكترونيات ، فان الاتصالات اللاسلكية يمكن أن تكون فى عالم الاتصال كما كان حصان طروادة فى السياسة بسبب صلابة وقدم الصلات العضوية بين التليفون والسلطات الوطنية . ومن خلال الاتصالات اللاسلكية ،

فان السؤال المطروح يتعلق فى الواقع بالسيطرة على اندماج تقنيات الاتصال .

وقد ركز دافيد انكاوا وفيليب كوبل مثلا على أن اختيار «رفع القيود» فى بريطانيا « أملته اعتبارات سياسية فى الأساس ، علاوة على اقتناع بأن زيادة فعالية الاتصالات اللاسلكية يمكن أن تترتب عليها نتائج ايجابية فى الاقتصاد كله ، وخصوصاً فى الخدمات التى كانت من نقاط القوة فى بريطانيا » . وفى فرنسا أبرزت شانتال دوجورنى أهمية الاتصالات اللاسلكية باعتبارها عنصرامن عناصر الخدمة العامة .

وقد أكد الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية وجهة النظر هذه عندما اعتمد ، خلال مؤتمر نيروبى ١٩٨٢ ، قراراً ينص على أن « أجهزة وخدمات الاتصالات اللاسلكية ليست فقط نتاجاً للنمو الاقتصادى ، وانما هى أيضا شرط مسبق للتنمية بصفة عامة » . إن الأهمية الاقتصادية لسوق الاتصالات اللاسلكية لايمكن نكرانها ، خاصة اذا اضفنا اليها خدمات « القيمة المضافة » كأن تستخدم الخدمة الهاتفية لبيع خدمة أخرى ، مثل الوصول الى بنك للمعلومات أو البريد . يبلغ عدد الأجهزة الموجودة فى العالم حوالى ٦٠٠ مليون جهاز ، وتجاوزت تكاليف تركيب الأجهزة الهاتفية ٨٠ مليار دولار فى عام ١٩٨٨ . يسمح الجدول التالى بتحديد أهمية سوق الاتصالات اللاسلكية ومكانتها النسبية .

سوق تقنيات الاتصال الكبرى فى عام ١٩٨٤	(القيمة بمليارات الدولارات الامريكية)
أجهزة الاتصالات اللاسلكية	٥٦
أجهزة معالجة المعلومات والحاسبات الآلية	١٧٥
سوق أشباه الموصلات	٢٨
الألكترونيات الجماهيرية	٣٠
الناتج الكلى	٢٣٩
بالمقارنة الى	
السوق الدولية للسيارات	٣١٣
ميزانية فرنسا	١٧٠

من الملاحظ أيضا وجود أوجه اختلاف شديدة فى هذا المجال ، كغيره من المجالات : فمدينة طوكيو وحدها تضم عدداً من أجهزة الهاتف (٢٦ مليون) يماثل عددها فى مجمل القارة الأفريقية ، والاتصالات الهاتفية بين زائير وساحل العاج ، كينيا وتنزانيا ، بوليفيا وباراجواى تتم عبر باريس ولندن ونيويورك بنفس الترتيب . وقد لاحظ « دنيس فريد سيمون » أن جهود تطوير الحاسبات الآلية فى الصين متعثرة بسبب « ضيق شبكتها الاتصالية » .

وصفت لجنة ميتلاند التى شكلها الاتحاد الدولى للاتصالات اللاسلكية ، أهمية شبكات الاتصالات اللاسلكية التى تعد « النهايات العصبية للمجتمع الإعلامى » بأنها حاسمة ، وذلك فى التقرير الذى اعدته حول هذا الموضوع عام ١٩٨٤ . وكانت إحدى النتائج الرئيسية التى وصلت اليها اللجنة هى التوصية

بمنح أولوية — فى برامج التنمية — لوسائل الاتصال اللاسلكى المختلفة ، التى تعتبر « ملكية عامة » حقيقية .

من المؤكد أن هذه الصلة بين الاتصالات اللاسلكية والتنمية لم تتحدد بوضوح ، بل إن الكتاب الذين امتدحوا هذا « الجهاز العصبى » الجديد مثل بييرس و جيكييه اعترفوا — عن طيب خاطر — بعدم وجود « نظرية عامة — والقليل جدا من الاثباتات — حول المساهمة الفعلية للاتصالات اللاسلكية فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية » . ولا يوجد ما يشير ، على وجه الخصوص ، الى أن هذه الاجهزة تيسر « انتقال المعارف » بشكل حقيقى ، أو أن شبكات الاتصالات الألكترونية يمكن أن تنوب عن شبكات النقل العام اذا كانت هذه تعانى من قصور أو نقص جزئى ، كما هو الحال فى عدد كبير من بلدان العالم الثالث .

وحول مسألة الصلة هذه بين تقنيات الاتصال والتنمية ، يؤيد رينيه جان رافو الفكرة القائلة بأن « الصعوبات التى تواجه ارساء نظم اتصال متسقة وفعالة فى مناطق عديدة من العالم الثالث تنبع غالباً من الآمال العريضة التى تعلق على اللجوء الى تكنولوجيات جديدة فى الاتصال وعلى قدرة الاقناع المنسوبة الى الأشخاص الذين ينتجون وينشرون السلع الاستهلاكية » .

اذن ، ففى سياق يضفى الصبغة الدولية على تقنيات الاتصال وحيث يكون الرهان هو نشرها وتكاملها ، بدأت تظهر حركة « رفع القيود » .

رفع القيود وتكامل تقنيات الاتصال

كثرت فى السنوات الأخيرة الكتابة عن موضوع «رفع القيود» . وقد اسفرت هذه الكتابات حتى الآن عن نوعين من التفسيرات : من المنظور السياسى يرى فيه البعض صراعاً بين الأيديولوجية اللبيرالية ومفاهيم التوجيه فى دور الدولة ، ومن منظور « تقنى بحت » يصبح «رفع القيود» نتيجة حتمية للتقدم التقنى ، فى اطار عالمية الاقتصاد .

بيد أن كلا التفسيرين لايفتقر فى الواقع الى بعض الموضوعية . فحركة «رفع القيود» ، التى ظهرت أول ما ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، استمدت مصادرها من مناخ عام اتسم بالرجوع الى القيم الليبرالية الجديدة التى جسدها رونالد ريجان، ثم تبناها فى أوروبا حزب المحافظين الانجليزى بقيادة مارجريت تاتشر . ولقيت الحركة تعاطفاً واضحاً بين من يدعون ، فى أوروبا وفى فرنسا ، أنهم أنصار « السلطة الأقل للدولة » . من الواضح أيضا أن ظروف المنافسة الاقتصادية الدولية شديدة الصرامة ، بسبب عالمية الأسواق ، خاصة فى مجال الألكترونيات ، أجبرت الناس على اعادة النظر فى طريقة تسلح المؤسسات الوطنية أو المؤممة لمواجهة الغزو الاجنبى القادم من أوروبا فى مجال الهاتف ومن الولايات المتحدة الأمريكية فى مجال الحاسب الآلى ، ومن اليابان فى مجال الألكترونيات .

لكن هذا السياق السياسى والاقتصادى كان متلاقياً تماماً مع الحركة الناشئة عن أيديولوجية الاتصال ، وهى الحركة التى أدت الى أقصى تكامل ممكن بين تقنيات هذا المجال . والطريقة التى بدأ بها تطبيق «رفع القيود تدريجياً» فى الولايات المتحدة الأمريكية توضح تماماً هذه النقطة . فاذا اقتصرنا فى هذا الصدد على القرار السياسى ــ مثل حل ATT أو خصخصة هيئة الاتصالات اللاسلكية البريطانية ــ ربما تحجب الشجرة الليبرالية غابة الأحداث الكثيفة التى أدت الى هذا القرار ، كمجرد نتيجة لتطور بدأ منذ وقت مبكر .

وكما لاحظ نزيه دينكبودك فان حل ATT الذى تم فى عام ١٩٨٤ على إثر « الحكم المعدل الأخير » كان « بمثابة نقطة توقف فى عمليةغير منظمة » لكن معظم القرارات التى اطلقت حرية السوق كانت قد اتخذت قبل هذا التاريخ وخصوصاً من جانب لجنتى « استطلاع الكمبيوتر » فى عامى ١٩٧١ و١٩٨٠ . وقد سمحت القرارت التى اتخذتها لجنة الكمبيوتر الثانية بالتمييز بين الخدمات الأساسية وخدمات القيمة المضافة وأدت الى تنظيم الأولى باطلاق حرية الثانية .

كان هذا القرار رداً على مشكلة أثارتها قبل خمسة عشر عاماً ، فى عام ١٩٦٥ ، شركة بانكرز رامو التى أرادت أن تعهد الى الوسطاء بمهمة توصيل رسائل إنطلاقا من حاسباتها الخاصة وباستخدام شبكة ATT للتليفونات . وكان رفض ATT والدعاوى القضائية التى ترتبت عليه وراء لجنة « استطلاع الحاسبات الأولى التى تشكلت فى عام ١٩٧١ داخل لجنة الاتصالات الاتحادية التى حاولت وضع تصنيف أولى للخدمات المختلطة الناتجة عن تفاعل الاتصالات اللاسلكية مع الحاسبات الآلية . وتم حسم هذه النقطة فى عام ١٩٧٣ .

فى الواقع ، حاولت شركات الحاسبات الآلية منذ الأربعينات اختراق سوق نقل الصور والمعلومات ، لكن المخاطر التنظيمية المحتملة قلصت الى حد كبير مستوى الاستثمار فى هذا المجال . واحتفظت شبكة نقل المعلومات التى أقامتها IBM بالاشتراك مع General Electric فى عام ١٩٤٤ بطابعها التجريبى ، واضطرت فيلكو التى كانت قد أفتتحت أول شبكة عاملة ، لوقف خدماتها فى عام ١٩٤٩ ، عندما لم تتمكن من توصيلها بشبكة ATT بسبب رفض الأخيرة ،التى كانت تستعين بجيش من المستشارين القانونيين ــ أكثر من عشرة آلاف فى الستينات ــ للمحافظة على وضعها .

ويبدو واضحا ، على ضوء هذه الأمثلة ، أن عملية تعديل النظام كان وراءها توقف ، ليس للتحديث التقنى وحده ، وانما لحركة تلاقى عائلتين من المستحدثات التقنية ، تنحدر احداهما من منطقة الاتصالات اللاسلكية وتنتمى الأخرى الى عالم الحاسبات الآلية . وتؤكد شانتال جورنى ، التي ركزت على الفكرة القائلة بأن «وراء عمليات «رفع القيود» تكمن فى الأغلب الأعم عملية تحديث»، أن «الارتباط الأيديولوجى بقيم التحديث، القائم على اقتناع بأن المساواة لاتنتج الا عن التقدم » هو ارتباط قد يسبق اتخاذ القرارات فى هذا المجال . ربما يكون من المفيد أن نضيف الى هذا التحليل أن إحدى الصور النشطة «لايديولوجية التحديث» هى أيديولوجية الاتصال ــ بل هى أكثر الصور الراهنة اكتمالا ــ وهى مطبقة حالياً بشكل ملموس فى عملية تلاقى التقنيات .

ويمكن طرح السؤال هكذا هل «رفع القيود» هو الوسيلة الوحيدة للتوصل الى مثل هذا التكامل . وهل توجد صلة قوية بين أيديولوجية الاتصال والأيديولوجية الليبرالية ؟ كل ما رأيناه حتى الآن يؤكد هذا المعنى . لكن ربما يكون من قبيل المخاطرة التقيد بشدة بخيار يضع أنصار قيام الدولة بالدور الأكبر فى الاتصالات اللاسلكية ، بشرط أن تظل معزولة عن تقنيات الاتصال الأخرى ، فى مواجهة مع مؤيدى النظام الليبرالى الذى يسمح بوضع جميع التقنيات على نفس المستوى ، مستوى السوق الحرة .

مع العلم بأن انصار المحافظة على الدور الأكبر للدولة لايفتقرون الى البراهين المؤيدة لاندماج تقنيات الاتصال . وتنص السياسة الفرنسية فى هذا الصدد ، والتى يمليها هاجس « احتكار مراقبة التهريب » ، على ترك احتكار التوزيع للدولة مع إطلاق حرية انتاج الخدمات الاتصالية ، كما هو الحال فى التنظيم الراهن لمجال « التيليماتيك » (الذى يجمع بين خدمات الحاسب الآلى والاتصالات اللاسلكية) . ربما تتمثل إحدى الاجابات على هذا السؤال فى مفهوم « الشبكة » كما تدافع عنه شانتال دو جورنى ، حيث تؤكد أن « الأهداف الاجتماعية المرتبطة بمهمة الخدمة العامة لايمكن بلوغها بدون التحكم الكامل فى الجهاز التقنى . وهو تحكم لايرجع الى ملكية الشبكة (سواء كانت ملكية عامة أو خاصة) بقدر ما يرجع الى تكاملها الذى يسمح وحده بمركزية المعلومات المرتبطة بتشغيل نظام معقد » . وهو وصف لم يكن لينكره نوربرت واينر .

مراجع : J.G. Blumler et *alii* 1985, P. Breton, 1987; N. Dincbudak, 1987; D. Encaoua, P. Kœbel, 1987; V.-Y. Ghebali, 1988; A. Giraud, 1987; C. De Gournay, 1987; C. Hamelink, 1987; J. Jouët, 1987a; R. Mucchielli, 1976; W. Pierce, N. Jequier, 1983; R.-J. Ravault, 1986; D.F. Simon, 1986.

١٦ ــ الاتصال فى صورة أسئلة

إن التطور الحالى لتقنيات الاتصال يطرح عدداً من الأسئلة الهامة مثل ماهو التأثير السياسى لهذه الأيديولوجية التى وصفنا نشأتها والتى يؤكد بعض الكتاب أنها ستحتل منزلة القلب من حياتنا الاجتماعية ؟ بين الأيديولوجية والتقنيات ، ثمة ميدان علمى جديد يحاول التبلور حول موضوع « الاتصال » : هذا « العلم » الجديد هل هو متجانس ، وبالتحديد هل له مستقبل ؟ وأخيرا ، ألا تؤدى هذ التركيبة الى ظهور « ثقافة جديدة » ، شديدة الارتباط بالممارسات الجديدة للاتصال ، وقريبة من هذه « الثقافة التقنية » التى نذر البعض نفسه لها .

أيديولوجية الاتصال اليوم

ينبغى أن نذكر فى البداية بوجوب التمييز بوضوح بين أيديولوجية الاتصال ، التى تعنى بمكانة ودور الاتصال وتقنياته فى المجتمع ، وبين تقنيات الاتصال نفسها . فقد كانت هذه الأخيرة موجودة دائما ، أما الأيديولوجية التى تروج لها فلم تظهر ، كما رأينا ، الا مؤخراً (فى الأربعينات) .

وقد اختلف تقييم الكتاب للدور الحقيقى لأيديولوجية الاتصال . حيث

يرى بودرياد على سبيل المثال أن موضوع الاتصال أصبح يشمل كافة مجالات الوعى ولم يعد فى الامكان التفكير بعيداً عن هذه الاشكالية . أما لوسيان سفيز ، الذى يكتب فى « نقد الاتصال » ، فهو يبرز قوة الأيديولوجية المرتبطة به ، ولكنه يركز ـــ بخلاف بودرياد ـــ على امكانية وصف الأسس العلمية والرمزية واظهار السبب « المستتر » المتمثل فى « القوة الاقتصادية والسيطرة السياسية ونظم اللعب والإدعاء » .

وقد اتخذ جاك ايلول ، ناقد النظام التقنى الذى لايكل ولا يمل ، موقفاً يسمح له بالإفلات من الموجات الايديولوجية المختلفة التى يمكن أن يفرزها مثل هذا النظام ليضفى على نفسه الشرعية . فاستنكاره أصبح من تلقاء نفسه هامشياً ، طالما كان يرى أن تأثير التقنية قاطع على الناس والمجتمعات الحديثة .

تشترك هذه الرؤى جميعها ، بغض النظر عن الاختلافات الأساسية التى تظهر بينها أحيانا ، فى وجهة النظر نفسها بخصوص : الوضع المتميز الذى ستحتله الأيديولوجية الجديدة التى نجحت كما يقول سفيز « فى التخفى وفى العمل على ألا تدور المناقشات حول وجودها » . وفيما يتعلق بدور الاعلام الجديد فى المجتمع يشير Ellul الى ظاهرة مماثلة « فالانسان المتوسط ليس لديه وعى واضح (...) ولا يعرف حقيقة الأمور (...) وليس قادراً على فهم التغير الذى يحدث ، ولكنه يعرف أنه على عتبة لغز كبير » .

على أى حال يمكن أن نتساءل عما اذا كانت ملاءمة هذه المداخل ليست مقصورة على بعض القطاعات وعلى لحظات بعينها ، يكون تأثير الاتصال فيها أقوى من غيرها : لأن هذه الأيديولوجيا لو كانت منتشرة بين المهنيين فى المجالات المعنية ـــ وسائل الاعلام ، الآلات الحاسبة ، الاتصالات اللاسلكية ـــ فهل يمتد تأثيرها فى الواقع أبعد من ذلك ؟ ففى مجال الأيديولوجيا ، المنافسة شديدة ، ولايمكن لأحد أن يزعم أن أيديولوجيا الاتصال تحتل الساحة بأكملها طول الوقت . وبرغم انها نشأت كرد فعل وكبديل لأيديولوجيات سياسية ثبت فشلها فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، فانها لم تحجب هذه الأيديولوجيات تماما .

بل ربما تكون منحتها قوة جديدة .

حتى لو أمكن للاتصال أن يصبح بطريقة ما الاغراء الشمولى للمجتمعات الليبرالية ، فهو هدف لم يتم بلوغه قط ، اذا استندنا فى حكمنا الى استمرارية وتجدد الانقسامات السياسية التقليدية وايديولوجياتها الخفية . فلايزال هناك ديمقراطيون وجمهوريون ، محافظون وعمال ، يمين ويسار .

إن تقدم « الاتصال » نفسه تعطل الى حد كبير طوال الفترة التى سيطر فيها ماسمى « بالمجتمع الاستهلاكى » . وكان يجب انتظار أزمة السبعينات لكى يخرج الاتصال الى النور من مكمنه السرى كحل للمخاوف التى كانت السائدة آنذاك .

من المؤكد انه يمكن تفسير بعض التغيرات السياسية المعاصرة ، فى فرنسا على وجه الخصوص ، على انها تطور بارز لبعض الموضوعات المرتبطة بأيديولوجية الاتصال . كما يمكن بسهولة تفسير ميل الناخبين الفرنسيين الحديث والمبالغ فيه الى « الانفتاح » ــ ومن ثم اعتبار « الانغلاق » عقوبة سياسية ــ من خلال اللعبة المجازية التقليدية للاتصال . ففى « الانفتاح » ، وهو أيضا « النظام المفتوح» لعلم السيبرنتيكا، تكون الأولوية لتداول المعلومة، أيا كان مضمونها. و« الوسط » فى السياسة ، هو نفس الشيء ، فهو انفتاح مستقل عن المضمون ، وهو طريقة لاحتلال موقع على السلم السياسى حيث تخلى الأحزاب « المنغلقة » مكانها لمن يريد الافلات من الانقسامات التقليدية .

كيف يمكن تفسير دخول أيديولوجية الاتصال فى لعبة السياسة ؟ ألا يمكن أن نرى فى ذلك «دوراً تنظيمياً»، ونقطة تلاقى تحول دون دخول الأيديولوجيات السياسية فى دائرة مفرغة ؟ بهذا المعنى ، استطاعت أيديولوجية الاتصال ، التى نشأت كبديل للبربرية ولفشل الأنظمة السياسية فى سنوات الحرب ، أن تجد لنفسها منذ فترة قصيرة مكاناً أصلياً فى مجتمعنا : كأيديولوجية ، أصبحت جزءاً لايتجزأ من نظم التمثيل السياسى ، لكن ، لأنها تتحدث عن الاتصال ولأنها ترسم عالماً متوافقاً متكاملاً ، فهى أميل لأن تلعب

دوراً معتدلاً . وهنا نجد بالتأكيد إحدى النقاط الأصيلة الكبرى فى الطرق الجديدة للتنظيم الاجتماعى منذ الحرب ، وبالتحديد منذ أزمة بداية السبعينات التى أتاحت لتقنيات الاتصال الفرصة لكى تترسخ بصورة مؤكدة فى مجتمعاتنا .

وقد يكون من المفيد ، للتحقق من صحة هذا المعطيات ، اجراء دراسة متعمقة لاستخدام تقنيات الاتصال والحديث عنها فى النظم السياسية غير الديمقراطية . فبعد الاشارة الى أن الصينيين اخترعوا أول حاسب آلى بالمصابيح فى عام ١٩٥٨ وأول حاسبات بالترانزستور فى منتصف الستينات ، لاحظ دينس فريد سيمون على سبيل المثال أن « الثورة الثقافية شهدت تراجعاً خطيراً فى مجال الحاسبات الآلية بينما كان الغرب يسجل قفزات ملحوظة فى نفس المجال » . حيث أسهم تقدم الأيديولوجية السياسية القوية فى تلك الحالة فى عرقلة التحديث فى مجال تقنيات الاتصال .

ولماذا يعانى الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية على سبيل المثال من مثل هذا التأخر فى تطور تقنيات الاتصال ، وخاصة فى مجال وسائل الإعلام ، وكذلك بالتأكيد ــ جميع التقنيات المعتمدة على الألكترونيات ؟ ألا يرجع ذلك الى كون المشروعات المتعلقة بهذه المسائل تفتقر هناك على وجه الخصوص الى الشرعية ؟ .

ظلت كلمة « الشفافية » التى سيطرت على مخيلة الغربيين بشأن الاتصال ، لاتجد لها مكانا لفترة طويلة ضمن المظاهر السياسية والاقتصادية لنظام الحكم السوفيتى . ولم يكن بالتأكيد من قبيل المصادفة أن يجعل التيار الجديد الذى تشكل حول جورباتشوف من تعبير Glasnost(المكاشفة القريبة من الشفافية) أحد الملامح البلاغية الهامة لنظام الحكم الجديد . وقد أظهرت هذه الحاجة الى اعتناق قيمة ترسخت بالفعل فى الغرب أن الصعوبات لاتزال مستعصية على الحل . من هذه الزاوية ، لايزال الاتحاد السوفيتى فى المرحلة التى مر بها الغرب فى الخمسينات فيما يختص بالتصور الحديث للاتصال : الذى يشتمل على تعارض بين مؤيدى السرية

والمركزية من ناحية وأنصار الشبكات والمصارحة من ناحية أخرى .

إذا وافقنا على مفهوم الاتصال « كأيديولوجية بدون ضحايا » ، فان احتمال حدوث اضطراب فكرى فى هذا المجال يتطلب تغيير العدو . ويفترض عنصر المصارحة فى الواقع ، مقاومة الفوضى ، بمعنى نقص التنظيم ، والتعتيم وعرقلة حرية تداول المعلومات : ويقول واينر : ان العشوائية هى العدو ، هى « الشيطان » الذى يهدد المجتمعات الحديثة (وقد رأينا ان هذه الاشارة الى الشيطان ، ليست عرضية هنا) .

إن انفتاح الاتحاد السوفيتى على سياسة لتطوير تقنيات الاتصال ربما يفترض فى البداية تحديد « عدو داخلى » مجرد ورمزى وليس طبقة معينة أو طائفة اجتماعية بذاتها ، كما يفترض العدول عن اسطورة الأعداء الداخليين للاشتراكية الذين يشكلون البديل عن الحصار الذى تفرضه الدول الامبريالية والذى بنى عليه الفكر السياسى لهذا البلد منذ عقود طويلة .

ويظهر النموذج السوفيتى ـــ من خلال التناقض ودونما قصد ـــ مدى الثورة الثقافية التى شنها الغرب فى فترة مابعد الحرب على تصوره الذاتى عن نفسه وكيف كان هذا التحول عنصراً حاسماً فى اطلاق حرية التحديث فى مجال تقنيات الاتصال .

وينبغى أن يصاحب هذا التقدم بحث فى التطورات اللامحدودة عما أسميناه ، فى الفصول الأولى من الكتاب ، « ثقافة البديهيات » . لقد أصبح واضحاً اليوم أن عالم الاتصال شهد انقساماً تتبعنا تطوره عبر القرون ، ولكنه يتخذ الآن شكلا حاداً بسبب نوع من « امبريالية » تقنيات الاتصال المسماة « الرقمية » فيما يتعلق بالحاسبات على سبيل المثال . حيث يمر خط التقسيم بين استخدامها « كوسيلة » فى خدمة الابداع والاستدلال وبين « الحاسب الآلى ككيان » ، تحول الى « شريك ذكى » و أصبحت قواعد تشغيله معاييراً للسلوك العقلى للانسان .

ويقدم لنا التيليماتيك (العلم الذى يجمع بين الاتصالات اللاسلكية والحاسبات الآلية) مثالاً آخر على هذا الانقسام . فهو يعد من ناحية ـــ وسيلة للحصول على معلومة سريعة ، ويتطلع من ناحية أخرى ـــ وان كنا مازلنا بعيدين عن هذا الهدف ـــ لأن يصبح « وسيطاً اجبارياً » فى الاتصال بين الأشخاص أو

الاتصال الجماعى . ويشتمل نموذج القيم الضمنية لهذا التحديث التقنى على صورة انسان « فى منزله » يجرى اتصالات دون أن يمر بتجربة التواصل المباشر ، ويستخدم التقنية فى جميع صلاته . خلاصة القول ، انه وضع تصبح فيه الوسيلة أكثر أهمية فى حد ذاتها مما يمكن أن تمنحنا اياه . وهى وسيلة لا نحاججها وانما نبادلها البديهيات .

هذا الانقسام يحيلنا الى سؤالين ، الأول خاص بمستقبل علوم الاتصال ، والثانى يتعلق « بالثقافة التقنية » التى لايزال محتواها موضع جدل .

علوم الاتصال هل لها مستقبل ؟ .

فى سياق ، امتد فيه المفهوم متعدد المعانى للمعلومة بطريقة توسعية فى مجالات شديدة التنوع مثل وسائل الإعلام والحاسبات الآلية والاتصالات اللاسلكية ، يتساءل بعض الباحثين اذا كان الوقت لم يحن لبلورة مدخل علمى موحد لظواهر الإعلام والاتصال . وهل مثل هذه الرؤية الشاملة ضرورية ومرغوبة ؟ هل هى فقط ممكنة ؟ هل يمكن اعتبار الاتصال بمثابة نظام ، أو أنه مجال مكون من مجموعة من الأشياء تجبر الباحثين على تبنى عدة مداخل متميزة وتجيب على مقدمات علمية مختلفة ؟ كان نوربرت واينر أول من اقترح أن تقوم نظرية الاتصال بتوحيد المجالات الرئيسية للمعرفة الانسانية . بيد أن هذه الرؤية ، التى أبدت اهتماماً بأيديولوجية الاتصال ، لم تفلح فى أن تفرض نفسها داخل الحقول التنظيمية المختلفة . وبرغم المحاولات المتفرقة لبعض الباحثين (مثل ميللر فى علم النفس ، ودويتش فى العلوم السياسية) فقد أصبح من المؤكد أن اعادة تأطير الإشكاليات القديمة فى لغة علوم الاتصال الجديدة (نظرية الإعلام ، مدخل منتظم ، بحث عملى) لاتكفى لاخفاء الصعوبات والخصائص المرتبطة بنوعية معينة من موضوعات الدراسة .

إذا رجعنا بالزمن الى الوراء ربما كنا أميل الى الاقتناع بأن المفهوم التكاملى الذى حقق أكبر قدر من النجاح بين الباحثين الحريصين على اقامة الجسور بين العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية . لم يكن مفهوم الاتصال وانما مفهوم التنظيم

على أى حال ، من المحال تجاهل التاريخ عندما يتعلق الأمر بفهم وايضاح مشاكل الاتصال الاجتماعى ، حيث أن المعالجة التماثلية والعرضية لعمليات الاتصال فى أنواع ومستويات النظم المختلفة (الطبيعية والميكانيكية والحية) توشك أن تؤدى الى إهمال العنصر التاريخى فى دراسة بعض الظواهر ، برغم أهمية هذا العنصر فى القاء الضوء عليها وتلك إحدى نقاط الضعف المزمنة فى معظم الأعمال التى سارت على هدى واينر والتى ادعت انها تمتلك رؤية توجيهية للمجتمع . ولنتخيل مثلا أن تأثير وسائل الاعلام خارج السياق الاجتماعى والتاريخى يعادل طرح سؤال باستخدام مفردات اتصالية واستنتاجات « عامة » (فقط) (على كل المستويات المحتملة للاتصال الانسانى) بما قد يترتب على ذلك من خطر غياب البعد الاجتماعى والسياسى المرتبط بظواهر الانتشار الاجتماعى للمعلومة .

من ثم يكون من الصعب بالنسبة لعلوم الاتصال أن تؤسس شرعيتها على هذا المشروع الذى يعتمد على توحيد المعارف الانسانية . لاسيما وأن عدداً لابأس به من الأنظمة بدأ من الأربعينات يدخل الاتصال فى مجاله . وعلاوة على الأنظمة التقليدية التى تطرقت الى دراسة الاتصالات مثل : اللغويات ، هندسة الاتصالات اللاسلكية ، الرياضيات ، الفيزياء ، البحوث التطبيقية على الألكترونيات ، علم السيبرنتيكا، الأنتروبولجيا، علم الاجتماع، الفلسفة، القانون، الاقتصاد ، علم نفس العلاقات الشخصية ، علم النفس الاجتماعى ، العلوم السياسية ، فقد انضمت إليها مؤخراً انظمة جديدة مثل المنطق وعلم نفس التعلم ، وعلوم الأعصاب والعلوم المعرفية . فهل ثمة مفاهيم موحدة تسمح بالتكامل النظرى والعلمى لمجالات مختلفة كما هو حال دراسات وسائل الاعلام ، والاتصالات اللاسلكية والذكاء الاصطناعى ؟ انه سؤال لايزال مطروحاً ، ويبدو انه لم يجد بعد اجابة شافية .

وحسب رأى تليما ماكورماك ، فإن « الرؤية المفقودة » لنظرية الاتصال تنتمى الى رأى انتقادى لهذه المجموعة من الظواهر أكثر مما تنتمى الى مشروع

علمى موحد . ومع تكرار تقطيع وتجزئة الموضوعات وفقاً لمبادىء البحث الايجابى ، يصبح لاستخدام نظم الأسلوبية الكمية المتطورة للغاية ومناقشة مشاكل تقنيات البحث ، الغلبة أحيانا على بحث الاشكاليات الايضاحية النقدية والشاملة . والمستقبل سيولى للبحث عن إشكالية موحدة تكاملية اهتماماً اقل مما سيوليه لعمل مخصص لدراسة موضوعات « وسيطة » موجهة الى البحث عن نقاط التقاء بين التقاليد التى كانت فيما مضى متميزة بل ومتعارضة .

واذا كان لعلوم الاتصال مستقبل ، فإنه سيتجسد بالتأكيد فى صياغة اشكاليات نقدية تعتمد على دراسات واقعية متعمقة . وسيكون فى صالح هذه الدراسات الجديدة بالتالى أن تبنى اشكالياتها على تلاقى عدة تقاليد بحثية . تلك هى الدعوة التى وجهها الباحثون مراراً وتكراراً . ولنذكر هنا مثالين يندرجان فى اطار دراسات وسائل الإعلام . حيث اقترح اميل ماكنانى ، فى مقال من تأليفه ، اعادة النظر فى اشكالية الدراسات المقارنة الدولية المتعلقة بالصناعات الثقافية على أن تضاف الى الرؤية التقليدية للاقتصاد السياسى الخاص بالاتصالات الجماهيرية ، وجهة نظر الدراسات التثقيفية فى التقاليد النقدية للباحثين البريطانيين ، علاوة على مبادىء تحليل علم اجتماع الانتاج الثقافى . والمثال الآخر : عندما دعا كل من جى بلاملر و ميخائيل جورفيتش و اليهو كاتز مؤخراً الى التفكير فى مستقبل تيار دراسات « الاستخدامات والاشباعات » ، اعترفوا على الفور بضرورة تلاقى عدة نماذج للدراسة . وركزوا بالتحديد على التقارب الذى بدا أنه حدث خلال السنوات الأخيرة بين تقليد « الاستخدامات والاشباعات » وبعض التيارات الماركسية الجديدة التى دافعت عن فرضية التأثير المهيمن لوسائل الاعلام . وبينما طرح هؤلاء الباحثون النقديون فكرة قيام المتلقين بمهمة خاصة تتمثل فى فك الشفرة ، دون أن يعتمدوا فى تحليلهم الأيديولوجى على المضامين وحدها ، اعترف الباحثون التجريبيون المهتمون باشكالية الاشباعات ، بأن أى تعديل فى السلوك الفردى للمستخدم يرتبط أيضا بتغيير يتم على مستوى المجتمع ككل . ومن ثم يبدأ التلاقى فيما يبدو بين التقاليد التجريبية والنقدية فى

تعريف الاشكاليات الجديدة وموضوعات الدراسة الجديدة لعلوم الاتصال .

هل ثمة ثقافة جديدة تلوح فى الأفق ؟

بعد استنتاج الأهمية المتزايدة للوسائل التقنية فى مجالى الاتصال والإعلام فى حياتنا اليومية المعاصرة ، يصبح من حقنا أن نتساءل عما اذا كان ثمة ثقافة جديدة للإعلام والاتصال فى طريقها للظهور فى المجتمعات الحديثة . فماذا نعنى بهذا التعبير ؟ من الناحية التاريخية ، هناك تقليدان يتقاربان الآن فيما يبدو ليشكلان هذه الثقافة التقنية الجديدة . وكما رأينا ، ظهرت من جهة « ثقافة الاستدلال والاتصال » التى تأسست حول التقليد الخطابى كتقنية شفهية للاتصال الجماعى ، والتى شرحنا بالفعل بداياتها (فى الفصل الثانى) ، ومن جهة أخرى تشكلت منظومة قيم مرتبطة بتقنيات معالجة المعلومات ، أصبح الحاسب الآلى هو نواتها الرئيسية الآن : يرجع تقليد « ثقافة البديهيات » و « عالم الوثائق المكتوبة » الى قديم الأزل (انظر استعراضنا التاريخى له فى الفصل الأول) . وبالطريقة ذاتها ، وجد الكتاب المطبوع نفسه ، فى عصر النهضة ، عند ملتقى الثقافتين ـــ وبدا التداول غير الرسمى للأفكار وثقافة الاتصال التى طورها أصحاب النزعة الانسانية الأوائل متلاقياً تماماً مع تقنيات معالجة المعلومات المرتبطة بالطباعة ـــ أولسنا اليوم ، مع وجود الحاسب الدقيق ، أمام موضوع تقنى يتلاقى فيه تماماً تقليدا الإعلام والاتصال الثقافيان ؟ وهو يختلف عن الكتاب المطبوع فى كون ما يتم تداوله فى هذه الحالة ليس الموضوع المادى نفسه وانما المعلومات التى يحملها . وفى الماضى القريب ، عبر جون فون نيومان مخترع الحاسب الآلى الحديث، ونوربرت واينر مبتكة علم السيبرنتيكا عن المواقف الفلسفية وتقاليد الاستخدام المرتبطة على التوالى بالإعلام والاتصال . من ناحية ، كان داعية تقنيات معالجة المعلومات يأمل ألا تخصص الآلات الإعلامية الجديدة لاستخدامات مدنية ، وأن يتم الاحتفاظ بسرية هذه الاختراعات التى صممت من البداية لأغراض عسكرية . وعلى العكس دافع واينر عن مفهوم ترتبط فيه القيمة

الاجتماعية للمعلومة بقدرتها على الانتشار من جهة وصراحتها من جهة أخرى ومن ثم يكون واينر قد ضمن الإعلام ككل فى اشكاليته « المفتوحة » عن الاتصال .

حتى بداية السبعينات ، ظل علم « الحاسب الآلى الكبير » يتطور أساساً وفقاً لمبادىء فون نيومان : حيث كان العسكريون ، والمختبرات العلمية الكبرى والهيئات الكبرى هى التى تستخدم الحاسبات الآلية بشكل مكثف وكانت المعارف التقنية المتطورة وقفاً على المتخصصين ، فى سياق شهد تطور نظم ظلت لفترة طويلة مركزية . ثم جاء التحديث التقنى الجديد الذى قلب تطور الحاسب الآلى رأساً على عقب بروح جديدة منفتحة على الاتصال : ونشأ الحاسب الدقيق .

ظهر الحاسب الآلى الدقيق أول ماظهر على الساحل الأمريكى الغربى ، فى اطار الاعتراض على سياسة السرية والشكل المتدرج والمركزى الذى كان متبعاً حتى ذلك الحين فى الحاسبات الكبيرة ، التى كانت مستخدمة أساساً فى المؤسسات العسكرية والعلمية لخدمة الجيش الأمريكى المحارب فى فيتنام وكمبوتشيا . وتم تقديم الحاسب الدقيق على أنه رمز للسلام والتواصل ، انه المادة التقنية التى ستجعل قوة الحاسبات متاحة من جديد للناس العاديين . وتوقع الكتاب المأجورون والشبان الراديكاليون أن يصبح الحاسب الدقيق أداة متميزة للاتصال ، للجماعة ، للتطور الشخصى ، ولدمقرطة المعرفة . واستندوا فى موقفهم الى أطروحات روبرت واينر حول ضرورة الاتصال والمصارحة . فى هذا السياق ، ظهرت الاشكالية الجديدة « الثقافة المعلوماتية » .

فما هو الموضوع ؟ أدى ظهور الحاسب الدقيق الى تعزيز الرغبة الاجتماعية فى التعرف على أسرار وقدرات الحاسب الآلى ومن ثم المعلومات الاستراتيجية والقرارات التى تؤثر على الحياة اليومية للأفراد . والدخول الى عالم الحاسبات يفترض بالتأكيد امتلاك أجهزة الى جانب اكتساب قدرات معرفية جديدة ومهارات تسمح بحد أدنى من السيطرة على الأجهزة والحاسبات الآلية . وهنا يبرز موضوع

الثقافة المعلوماتية : وهى اشكالية غامضة من حيث كونها تشمل رغبة ممثلين ومعلمين شعبيين فى امتداح الدمقرطة الأصيلة لهذه الثقافة التقنية من ناحية ، والحديث شبه الدعائى لمروجى الأجهزة والحاسبات الذين يرون فى هذه الحركة الشعبية أسواقاً محتملة من ناحية أخرى . وفى الوقت ذاته ، شعر المهنيون العاملون فى مجال الحاسب الآلى بأن هذا الحديث يضيف إليهم دوراً جديداً : فبينما تتعرض بعض استخدامات الحاسبات الكبيرة لادانة شديدة ، نجدهم ينتقلون من صفة « التكنوقراطيين المركزيين » الى صفة « مروجى الثقافة الجديدة » .. وذلك فى اطار التواجد المستمر للأنظمة المركزية الكبرى وحيث يظل علماء الحاسب الآلى خبراء يصعب الوصول اليهم فى بعض القطاعات الأساسية .

بيدأن البعد الأيديولوجى فى هذا الحديث الذى يمتدح دمقرطة الثقافة المعلوماتية يجب ألا ينسينا أن هذا المشروع يحل جزئياً المشكلة المتمثلة فى دمج طريقة التفكير المعلوماتية فى الحياة اليومية . حيث ظهرت منذ تلك اللحظة ثقافة تقنية ، ومادية تتبلور فى العلاقات اليومية بين الأفراد والمواد التقنية أو الآلات . وأصبحت التقنية تحتل موقعاً متوسطاً من الثقافة المعاصرة : ومن ثم يجب التفكير فى اندماجها فى الحياة اليومية لأكبر عدد من الناس بحيث يتم بأكبر قدر من التناغم ، مما يطرح مشكلة التدريب .

وسنعود هنا لتناول أحد تعريفات مصطلح « الثقافة التقنية » ، الذى ورد فى التقرير الذى أعده « فيليب روكبلو » فى عام ١٩٨٣ وسلمه الى وزارة الثقافة الفرنسية : « انها مجموعة المعارف والمهارات اللازمة لكل فرد لكى يسيطر ويتحكم فى بيئته المحيطة ، وعلى وجه الخصوص :

ــ لكى يعرف متى وكيف يقوم باستدعاء المختصين دون الوقوع فى شرك الاعتماد الكامل عليهم .

ــ لتوفير البيئة التى يتمكن الفرد فيها ومن خلالها أن يعبر عن نفسه .

ــ لكى يتبادل مع المحيطين به مجموعة الخدمات التى تشكل النسيج الحقيقى لأى تعايش بين فئات المجتمع » .

فى حالة الثقافة المعلوماتية ، التى تعد الشكل الخاص والمعاصر للثقافة التقنية ، يمكننا التمييز ــ اقتداء ب موريس نيفا ــ بين ثلاثة فئات من التأهيل تستخدم فى الاستراتيجيات المختلفة :

ــ تدريب الشباب على الحاسب الآلى : والمسألة تتعلق هنا ، الى جانب عمليات التوعية اللازمة ، بوضع برامج التدريب الأكاديمى والمهنى التى توفر الكفاءات اللازمة للأجيال الصاعدة .

ــ التدريب المستمر واعادة تأهيل الأشخاص الناضجين الذين دخلوا بالفعل سوق العمل .

ــ توعية الجماهير العريضة بقدرات ومتطلبات الحاسب الدقيق ، فضلاً عن الرهانات والمناقشات المتعلقة باستخدام الحاسب الآلى .

لكل نمط من التأهيل ، ثمة استراتيجيات متميزة تفرض نفسها . لكن الأبحاث أثبتت ــ بالنسبة لجميع فئات الجمهور ــ أهمية خطوات « التعلم الذاتى » (التى ترتبط بالضرورة بالمتعة التى يجدها المتعلم فى استخدام الآلة) . و « الاستراتيجيات غير الرسمية » المرتبطة بمخالطة أصدقاء أو التردد على نواد للحاسبات الآلية للحصول على مبادىء هذه الثقافة المعلوماتية . ترتبط فكرة اكتساب هذه الثقافة التقنية فى السياق الذى يعنينا ، بفكرة التحرر الذى يعتمد على الرغبة فى استخدام اشياء ومعارف تقنية مختلفة ، بشكل مفيد وابداعى . ويرتكز مشروع اتقان تقنية الحاسبات الآلية على الرغبة فى اكتساب كفاءة ابداعية ، مع الاحتفاظ فى الوقت ذاته باستقلالية ازاء الموضوعات التقنية ومنطق الحضارة الصناعية . أو بعبارة أخرى ألايجد المرء نفسه مسلوبا و « مستعبداً » لهذه التكنولوجيا . ان امتلاك ناصية تقنية معينة تهدف الى تنمية بعض المواصفات المهنية (أو الاحتفاظ بها عند مستواها) لدى الشخص المعنى مما يضمن حداً أقصى من المرونة والقدرة على الحركة فى سوق العمل ، كما يتيح ، فى بعض الحالات ، البلوغ الجماعى لمستوى أكثر شمولية من التحرر الاجتماعى .

وبنفس الطريقة التى تمكننا من الحديث عن الثقافة التقنية المتعلقة بمعلوماتنا عن ميكانيكا السيارات وقيادة السيارات، نحن نعتقد انه فى امكاننا أن نتحدث أيضا عن الثقافة المعلوماتية كحد أدنى من المعرفة والدراية اللازمة لاكتساب تقنية الحاسبات التى تسمح للأفراد والجماعات بالاحتفاظ بقدراتهم على الابداع والسيطرة على بيئتهم التكنولوجية . ومرة أخرى ، كما هو الحال فى مجال السيارات فان اكتساب الثقافة المعلوماتية يمكن أن يتم على الأقل بطريقتين : طريقة رسمية ، وهى طريقة التعلم عن طريق مدرسة أو هيئة تدريبية ، وطريقة أخرى غير رسمية ، « على الطبيعة » تنص على النهل من عدة مصادر بواسطة استراتيجيات مختلطة للتعلم الذاتى . يمكن القول أن الاكتساب الفعلى لثقافة الحاسبات الآلية قد تم عندما تنجح المعارف المكتسبة فى الاندماج فى الحياة اليومية للأفراد بطريقة معبرة وابداعية . حيث لايوجد بالضرورة تلاؤم بين المضامين المكتسبة من الثقافة التقنية وتلك « المندمجة فعليا » فى الثقافة اليومية للمستخدمين . من ثم ، وعلى سبيل المثال ، فان مسألة عدم القدرة على تطبيق بعض المعارف المكتسبة فى سياق تدريبى ، لعدم وجود حاسب آلى فى العمل أو المنزل ، يمكن أن تصبح حاسمة فى عملية عدم ادماج المعارف المكتسبة فى الحياة الشخصية للأفراد .

هناك أنواع مختلفة من المضامين مرتبطة بتعلم الحاسب الآلى . علاوة على معرفة الحاسب الآلى نفسه (مثل استخدام الأجهزة والتوابع والحاسبات الآلية ، واتقان بعض المفاهيم الأساسية ، ومعرفة لغات البرمجة واستخدامها) ، يبدو مناسباً اكتساب معارف عامة حول النتائج المترتبة على هذا العلم مثل :

ــ اكتشاف واستيعاب الاستخدامات المختلفة للحاسب الآلى فى المجالات الرئيسية لأنشطة الأفراد والجماعات فى المجتمع .

ــ المعارف المتعلقة بالآثار المترتبة على الحاسب الآلى بالنسبة للأفراد (الأبعاد الفسيولوجية ، والنفسية والعملية) للجماعات والمجتمع (أبعاد تاريخية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية وسياسية) .

ــ تكوين حكم نقدى ازاء تغلغل الحاسبات الآلية فى المجتمع ، انطلاقاً من مجالات الحياة اليومية المختلفة التى تتأثر بالحاسب الآلى (العمل ، التعليم ، الترفيه ، الأسرة ، الاستهلاك ، الخ) ينبغى أن يكون المرء قادراً على التفكير بشكل نقدى فى أسباب وآثار هذه التغييرات : هل هى ضرورية ؟ ماهى « الاحتياجات التى يجب تلبيتها ؟ لمن ؟ كيف ؟ هل يوجد منطق اجتماعى خاص باستخدام الحاسب الآلى ؟ كيف يعمل ؟ هل توجد بدائل ممكنة للتطور الاجتماعى والتقنى للحاسب الآلى بالصورة التى يتم عليها الآن ؟ .

لذا فإن كل نوع من الاستراتيجيات يؤدى فى النهاية الى استيعاب مضامين مختلفة ، مما يتطلب اتخاذ اجراءات متطورة بصورة أو بأخرى (من المبادرة الى الخبرة) ونقدية بدرجة أو بأخرى . ويبقى أن نتساءل اذا كانت ثقافة الحاسبات الجديدة هذه تشمل فى النهاية مجال الاتصال بأكمله ، مما يطرح تساؤلاً حول التلاقى المحتمل لجميع تقنيات الإعلام والاتصال ، وهو موضوع سنعود اليه فيما بعد .

مراجع : J.G. Blumler et *alii*, 1985; P. Breton, 1987a, 1987b; J. Ellul, 1988; E.G. McAnany, 1986; T. McCormack, 1986; P.-A. Mercier, 1988; M. Nivat, 1983; S. Proulx, 1988; S. Proulx, M.-B. Tahon, 1988; P. Roqueplo, 1983; L. Sfez, 1988; D. F. Simon, 1986.

١٧ ــ مستقبل الاتصال

إن علوم المستقبل لاتعنى بالضرورة التنبؤ بما سيحدث فى المستقبل : ومن سخرية الأقدار أن علماء المستقبليات يؤكدون أن الحقيقة الوحيدة التى يمكن التنبؤ بها بمنتهى اليقين هى أن المستقبل غير مضمون ! فلماذا اذن التفكير فى المستقبل ؟ أولا يبدو هذا التفكير ضرورياً من الناحية النقدية : فهو يشجع التخيل والصياغة الواضحة لبدائل الوضع الراهن . أوليس جوهر العملية النقدية هو القدرة على تخيل صورة أخرى للواقع ؟ بل إن التفكير المستقبلى يمثل شكلاً من أشكال التدخل فى الوضع الراهن : وبنفس طريقة تأثر التاريخ بالسياق الذى يعيش فيه المؤرخ ، فان التفكير المستقبلى يدفع الباحث الى تحليل واضح لحاضره ويدعوه ، فى نهاية المقام ، كما توقع سيمون نورا فى يوم ما ، الى اعادة تنظيم رؤيته للحاضر .

أشكال المستقبل المحتملة فى المجتمعات الغربية

كانت الثمانينات هى العقد الذى شهد البداية الحاسمة لتغلغل الحاسبات الآلية فى المجتمعات الصناعية الغربية . وبرغم أن غالبية القطاعات الاقتصادية الكبرى تأثرت الآن بهذه التغييرات (استخدام الآلات فى الأعمال المكتبية ،

انتاج الانسان الآلى ، واستخدام الآلات فى الانتاج) ، فإن موجة استخدام الآلات فى مجال الانتاج هذه تفترض تحولاً عميقاً فى « النظام التقنى » الخاص بمجتمعاتنا وارساء أشكال جديدة من تنظيم العمل . ويمكن أن نلاحظ أن هذه الثورات الاجتماعية والتقنية تكون لها انعكاسات خارج محيط العمل : وهكذا تتغير ظروف الحياة اليومية بشكل ملحوظ فى المنزل وفى الأنشطة الترفيهية والاستهلاك . ويتوقع معظم الخبراء أن تستمر حركات التغيير هذه فى أسلوب الحياة بأكمله بشكل متصل خلال التسعينات والعقد الأول من القرن الواحد والعشرين . وتتوقع بعض الدراسات المستقبلية الحديثة ــ مثل تلك المدونة فى Prospectives 2005 ــ الايحدث توقف ملحوظ فى التغيرات التقنية القادمة : فكل شىء سيجرى كما لو كانت موجة الاختراعات والاكتشافات العلمية والتقنية التى حدثت فى السبعينات والثمانينات جلبت معها ما يكفى من المعدات الجديدة والمخترعات الحديثة لتمهيد الطريق للأشكال الاجتماعية والتقنية المستقبلية . وستتمثل هذه على الأرجح فى استخدامات جديدة وتوليفات جديدة من الأجهزة تم بالفعل اكتشاف عناصرها (وسنشير هنا على وجه الخصوص الى التقنيات التى تستخدم الضوء فى بث وتخزين المعلومات) .

وستكون تقنيات الإعلام والاتصال ــ فلنتذكر التطورات التى حدثت فى مجال الذكاء الاصطناعى ــ مدعوة ، كما يقول الخبراء أيضا ، الى أن تلعب دوراً هاماً . وفى سياق يشهد امتداد التغير الاجتماعى والتقنى الى مجالات جديدة ، ستشجع هذه التقنيات على ظهور أشكال جديدة من تنظيم المعارف فى المؤسسات العامة والخاصة ، وطرق جديدة لتنسيق الأنشطة الرئيسية ، خصوصاً فى مجالات النقل وتنظيم المدن وتوزيع الخدمات العامة على المواطنين . وتجدر الاشارة بشكل عابر الى دخول الحاسبات الآلية أسواق البورصة ، مما أدى الى حدوث انتعاش فى المعاملات التجارية الكبرى وتراجع صغار المستثمرين .

ويبدو أن استخدام الحاسبات فى البورصة أدى الى تقسيم السوق بين فئتين من المستثمرين : فئة مستمرة فى استخدام المؤشرات التقليدية (ميزانيات المؤسسات ، فعالية الادارة ، الحالة العامة للاقتصاد) ، وفئة تركز الآن على المعطيات الرقمية المتعلقة بتقلبات الأسعار فى المدى القصير جداً ، وهى معطيات يسهل حسابها فى الحال . وسنؤكد هنا على السرعة التى تترسخ بها مجمل تقنيات الإعلام والاتصال ، والزيادة الأسية فى عدد المعلومات المنتجة والموزعة .

من المتوقع حدوث عمليات شد وتمزق وصراعات وتعارضات ، وأيضا توازنات وتسويات بين عرض سلع معلوماتية وخدمات آلية جديدة ، والطلب الاجتماعى على التحديث ، والبحث عن حلول عملية للمشكلات الفردية والاجتماعية وسيكون مطلوباً من بعض الجماعات والأفراد بذل جهود للتكيف مع التقنيات الجديدة ، كما سيتم تحويل بعض التطبيقات التقنية عن مسارها الأصلى ، وسيتم اختراع أو اعادة تصور استخدامات اجتماعية للتقنيات ..الخ . خلاصة القول ، ان غلياناً اختراعياً وغير متوقع ، تؤكده أزمات متفاوتة الأهمية يوشك على الحدوث حول الأماكن المتعددة التى تتلاقى فيها الاشكاليات الاجتماعية مع العالم التقنى .

ثمة فوارق اجتماعية جديدة يمكن أن تظهر بين الذين سيستخدمون التقنيات الجديدة و الذين سيظلون بعيدين عنها ، بين الأفراد والجماعات التى ستكتسب المهارات الجديدة ومن سيبتعدون عنها .. الخ . ويمكن أن يؤدى استخدام التقنيات الجديدة الى ازدياد المظالم الاجتماعية الموجودة : لأن من يتمتعون بالفعل بامتياز الاطلاع على الثقافة سيجدون فرصهم فى اكتساب معلومات جديدة قد تعاظمت بدرجة كبيرة . وفى نفس الوقت ، تحجب هذه التقنيات قدرات يمكن أن تؤدى الى اختراع أشكال جديدة من التفاعل والألفة والمشاركة الاجتماعية . من هنا تنبع أهمية البحوث التقنية حول الخطوط الفاصلة الجديدة بين الانسان والآلة التى تسهل التعامل مع الآلات ــ بدمج أنظمة الخبراء والاعتراف الأوتوماتيكى بالأشكال والصور على وجه الخصوص ــ والأبحاث والجهود المنصبة على

الاكتساب الاجتماعى للتكنولوجيات الجديدة ودمقرطة الثقافة التقنية . وأيضا أهمية الجهود السياسية الموجهة الى تكييف النظم التعليمية مع الحقائق التقنية الجديدة .

الاتصالات : اتجاهات وأحداث مؤثرة فى المستقبل

جرت العادة ، فى الأبحاث المستقبلية ، على التمييز بين « الاتجاهات الثقيلة » « المرتبطة بتغيرات يؤدى تراكمها على مر الزمن الى تحولات هامة » (هنرى جييوم) و « الأحداث المؤثرة فى المستقبل » وهى عبارة عن « ابتكارات ليس لها من الناحية الاحصائية ثقل يذكر ، ولكنها قادرة فى المدى البعيد نوعاً على تحويل مسار الاتجاهات السائدة » (هنرى جييوم) . سنحاول فى الصفحات التالية أن نرسم صورة للاتجاهات والأحداث المؤثرة التى يمكن أن تغير فى مستقبل الاتصالات خلال الأعوام العشرين القادمة .

نحن لانستطيع أن نتجاهل هنا الأعمال الهامة التى قامت بها بعثة المستقبليات التى أولت اهتماماً خاصاً لموضوع « تكنولوجيات الإعلام ومجتمع الاتصال » فى اطار العملية « Prospective 2005 » التى نظمتها فى فرنسا المفوضية العامة للتخطيط بالاشتراك مع المركز القومى للبحوث العلمية فى عام ١٩٨٥ . واشتمل مجلد Prospectives 2005 الذى نشر عام ١٩٨٧ على مقتطفات من تقرير هذه اللجنة . وقد أكدت اللجنة فى تقريرها على ثلاثة خطوط رئيسية خلال العشرين عاماً القادمة : أولا حث ايقاع التغيير التقنى ، ثانيا قلب الإشكالية للتفكير فى هذه الطفرة المتعلقة بتعديل طبيعة النظام الاقتصادى نفسه ، ثالثا ضرورة تبنى أوروبا لرؤية مستقبلية متماسكة بحيث تتمكن من فرض نفسها بنجاح فى سياق اقتصادى وجغرافى سياسى دولى ذى قدرة تنافسية عالية . وقد أسهمت أعمال هذه اللجنة ، الى جانب بعض البحوث المستقبلية الحديثة ، فى إلقاء الضوء على عدد من الاتجاهات الثقيلة والأحداث المؤثرة فى المستقبل .

على المستوى الاقتصادى والجغرافى السياسى : فى سياق ، نستشف من خلاله نمواً عالمياً كبيراً فى أفق عام ١٩٩٥ — وهو نمو ستكون فوائده غير متساوية

فى مناطق العالم المختلفة وسيؤدى الى تفرقة اقتصادية متزايدة بين مناطق العالم الثلاث المختلفة ـــ سنشهد مزيداً من الاقليمية فى الاقتصاد الدولى الذى تسيطر عليه الشركات الليبرالية والذى يحكمه الآن قطبان : الولايات المتحدة الأمريكية واليابان . فى مجال تقنيات الإعلام يجب أن نشير الى بدء تنفيذ المشروعات اليابانية الخاصة « بالجيل الخامس من الحاسبات الآلية » والمشروع الأمريكى الخاص « بمبادرة الدفاع الاستراتيجى » التى تحاول التعجيل بالتقاء الذكاء الاصطناعى مع الدوائر الألكترونية الجديدة المندمجة فائقة القوة . فى المدى البعيد ، يمكن أن تشكل هاتان الدولتان قوة اقتصادية موحدةتجر فى ركابها جنوب شرق آسيا . ولكنهما قد يواصلان على العكس تنافسهما وربما يشتبكان فى حرب سياسية وتجارية ضارية . ويمكن أن يسعى الاتحاد السوفيتى والدول التى تدور فى فلكه ، اذا وجد أن التغلب على تخلفه التقنى والصناعى ضرورى ، الى عقد تحالفات هامة مع الأمريكيين أو اليابانيين ، مما يؤدى الى تعديل فى موازين القوى الجغرافية السياسية الراهنة . ويبدو أن الصين لاتتعجل إدخال التقنيات الإعلامية . أما الأوروبيون فيتعين عليهم وضع مشروع سياسى علمى واسع النطاق ـــ الاقتراح الفرنسى المتعلق بالبرنامج الأوروبى « يوريكا » يسير فى هذا الاتجاه ـــ اذا أرادوا أن يكون لهم مكان فعال فى هذا السياق التنافسى الشديد، حيث تشكل السيطرة على الأسواق المرتبطة بالتقنيات الجديدة رهاناً عالمياً . وسيكون الحدث المؤثر هنا هو انضمام معظم البلدان الأوروبية لمثل هذا المشروع . ويرى لوسورنيت جوديه أن تطور الوضع فى المانيا على وجه الخصوص هو الذى سيقرر مصير أوروبا الغربية ، بيدأن هذا التطور سيتوقف بدوره على ردود فعل المجتمع الفرنسى . ويمكن أن يشكل التقارب الفرنسى الألمانى فى المجالات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية حدثاً مؤثراً ضخماً يضمن لأوروبا وضعاً استراتيجياً متميزا فى السياق الجغرافى السياسى والاقتصادى الدولى فى أفق عام ٢٠٠٥ .

تميزت الفترة من عام ١٩٧٥ الى ١٩٨٥ بموجة من عدم النظام وبيع الاحتكارات العامة للقطاع الخاص فى مجال صناعة الاتصالات اللاسلكية ، وخصوصاً فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تأثرت بعض الشركات العالمية مثل IBM و Bell/A.T.T بقرارت يناير ١٩٨٢ التاريخية . وقد أثارت حركة عدم النظام هذه، التى قامت على أساس أن افضل رد على المنافسة الدولية يتمثل فى سوق عالمية حرة تماماً ، انتعاشاً فى الانشطة التجارية والصناعية ، خصوصاً قطاع الهاتف : حيث بدأت تظهر باستمرار منتجات وخدمات جديدة ، متعددة الامكانيات وشديدة التنوع ، بكميات كبيرة فى السوق الأمريكية والدولية للاتصالات اللاسلكية .

وفى الولايات المتحدة الأمريكية ، تأثرت قطاعات أخرى كثيرة مرتبطة بالاتصالات : فقد انفتحت الاتصالات اللاسلكية الفضائية على السوق التنافسية التجارية ، واختفت بعض القيود القانونية التى كانت مفروضة على مؤسسات التوزيع بالكابل ، كما تحررت الاذاعة من الرقابة على مضامينها ، وانخفض حجم القيود على التليفزيون التقليدى . وهكذا حصل تطور التقنيات الجديدة والخدمات الجديدة على دفعة قوية . ويستنتج جيريمى تونستال أن هذه الحركة المزدوجة بالتحديد ، التى شجعت الابتكارات التقنية ورفعت بعض القيود ، هى التى جعلت الموقف يتغير جذرياً .

فى المجال التكنولوجى ، كان الاتجاه السائد هو حث ايقاع تطور تقنيات الاعلام والاتصال بدرجة كبيرة . مما جعل تكلفة ذاكرة الحاسب الآلى وأجهزة القدرة الحسابية تنخفض بسرعة . وارتفع عدد الحاسبات الآلية بشكل مذهل وباطراد : ويقول توم فورستر أن عدد الحاسبات الآلية بلغ مليون جهاز على الأقل فى العالم أجمع عام ١٩٨٧ . وساعد التوسع فى النظام الرقمى على ظهور منتجات وخدمات جديدة تلاقت فيها معالجة نقل الرموز التى تمثل الصوت مع الصورة والمعلومات . وأوشكت الصناعات المتداخلة (الاتصالات اللاسلكية ، الحاسبات الآلية والألكترونيات) أن تستمر هى أيضا فى التلاقى ، مما كان يمكن

أن يؤدى الى منافسات جديدة واندماجات صناعية جديدة . وسيتمثل الحدث المؤثر فى التقاء بوادر اندماج الدوائر الألكترونية عند مستوى « ماتحت الميكرون » وتشغيل الذكاء الاصطناعى فى « معالجة المعلومات » . ان تطوير الذكاء الاصطناعى على نطاق واسع فى مجال الحاسبات الدقيقة من شأنه أن يسمح بتغلغل الذكاء الاصطناعى بصورة أعمق فى جميع القطاعات . وقد أوصت لجنة « Prospcctive 2005 » بتمييز خمسة سبل للتطور التقنى .

أولا من المنتظر أن يحدث تقدم فى بنية الآلات ـــ بالتحديد التخلى عما تسمى بنية فون نيومان (معالجة تسلسلية) ـــ لرفع قدرتها الحسابية بصورة ملحوظة . ثم إن تحولاً فى تكنولوجيات نقل المعلومات والحصول عليها يجب أن يواكب التقدم الكبير فى السرعة الحسابية .

لعب علم الضوء الألكترونى ، الذى استخدم الضوء كوسيلة لنقل المعلومة ، دوراً بارزاً هنا . كما كان ينبغى تطوير الحدود الفاصلة فى الاتصال بين الانسان والآلة التى تستخدم الذكاء الاصطناعى وجعلها تتركز على تسهيل استخدام الآلات (يعد التعرف الآلى على اللغات الحية حدثاً مؤثراً فى دمقرطة ثقافة الحاسبات) . وقد أدت ديناميكية نشر الحاسبات الى تصنيع متعلقات جديدة (مرتبطة بوظائف مختلفة مثل الطبع والنشر والإعلان والشبكات المحلية الخ) ووسائل إعلام أخرى مستخدمة فى مختلف قطاعات الاتصال والاذاعة المرئية . وأخيراً أصبحت تكاليف تطوير وصيانة وتغيير شفرة الحاسبات الآلية عقبة رئيسية فى سبيل انتشارها . وكان يجب توجيه مزيد من الجهد لهندسة الحاسبات التى أدت ، باعتمادها على مبادىء الذكاء الاصطناعى ، الى تصميم منتجات قياسية جديدة فى هذا المجال ذات امكانيات متعددة وعرضية تسهل تشغيل الأفراد للحاسب الآلى بدون تدريب تقنى مسبق .

فى قطاع وسائل الإعلام ، شهد الانتشار العالمى للإشارات التليفزيونية ، الذى تدعمه الاقمار الاصطناعية وشبكات الكابل ازدهاراً واسعاً . وان كان هذا الازدهار تعطل نسبياً بفعل المقاومة السياسية والثقافية من جانب الحكومات من

منطلق حرصها على حماية الهويات الوطنية ، وأيضا من جانب المستخدمين أنفسهم الذين عجزوا عن استيعاب مثل هذا التدفق الإعلامى ، خاصة عندما ابتذلت هذه المعلومات وأصبحت فى معظم الأحيان مليئة بالحشو . لذا أصبح جهاز الفيديو منتجاً رئيسياً فى تنمية الدور الترفيهى للتليفزيون ، بيدأن زيادة عدد المحطات التليفزيونية لم يواكبها نمو مكافىء فى انتاج المواد الجديدة والمتفرده التى ارتفعت تكلفتها أكثر وأكثر . وكان هذا المناخ ملائما تماماً للمؤسسات الأمريكية التى عرضت مسلسلات قديمة حققت أرباحاً بالفعل على شبكات التليفزيون فى مناطق مختلفة فى العالم ، بأسعار تنافسية . وتم توجيه قدر أكبر من الاهتمام للمواد الوثائقية، مما استوجب اجراء مفاوضات جديدة حول الحقوق المرتبطة بالاذاعة المتكررة للأعمال التليفزيونية .

على المستوى الثقافى كان الاتجاه السائد يميل الى تعديل عميق فى مفاهيمنا حول الفرد والمجتمع : وهذا هو على أى حال خط القوى الذى اقترحته لجنة « Prospective 2005 » . ومن اشكالية تركز على انتشار التقنيات الجديدة وآثارها والتمكن منها ، انقلبنا الى مفهوم يتعرض للتغيير الذى طرأ على طبيعة النظام الاقتصادى فى مجتمعاتنا بعد أن أصبحت تعمل بالحاسب الآلى . وأصبحنا فى عصر تأسيس اقتصاد اعلامى يمثل نهاية الاقتصاد الصناعى . حيث يتعين على المؤسسات والجمعيات أن تسيطر على « الحيز الاستراتيجى للاعلام » وأن تبحث عن الوسائل التى تمكنها من التنظيم الفعال للمعلومات اللازمة لتطورها . فى سياق اجتماعى واقتصادى يدعو غالبية العاملين الى اعادة تأهيل أنفسهم أو تحسين قدراتهم ، يتعين على الأفراد أن ينظروا بعين الاعتبار الى فوائد الذكاء الاصطناعى فى مسائل التأهيل ووضع الاستراتيجيات الجديدة للتعلم .

منزل المستقبل وفكرة « مجتمع الاتصال »

فى فرنسا ، استعداداً لسنة ٢٠٠٠ ــ وفى اطار التوسع فى « خطة الكابل » التى ترمى الى تركيب ٤ ملايين مصدر كهربى ــ كان الهدف هو مد

شبكة وطنية رقمية للخدمات المتكاملة ، تسمح للمشتركين ــ عن طريق خط مخصص لنقل المعلومات ويكون بمثابة خط تليفونى ثانوى، كلاهما مرتبط بشبكة متعددة القدرات ومتفاعلة ــ بنقل الصوت والصورة والمعلومات فى وقت واحد .
ويتلاقى هذا الهدف الفرنسى مع الجهود الأمريكية التى بذلتها معامل AT . TBell- ، والتى وصفت الخطوة التالية لتطوير الاتصالات اللاسلكية بأنها خطوة « الشبكة الرقمية للخدمات المتكاملة » . تهدف هذه التقنية التكاملية الجديدة الى ربط شبكات عامة « ذكية » مع أطراف « ذكية » مركبة لدى المستخدمين (حاسبات دقيقة ، أجهزة ، الخ ..) وستتيح هذه التقنية الجديدة شديدة المرونة وعالية الكفاءة اتصالا شاملاً على المستوى العالمى ، على أساس الصوت والصورة والمعلومات فى آن واحد . ويمكن أن تؤدى هذه التجهيزات التقنية الى تحول عميق فى طبيعة الاتصالات التنظيمية بين دوائر الأعمال والتجارة ، وتقود أيضا الى طريقة جديدة لتعريف المنزل ، ليبدو بمثابة موقع متميز لانتاج ومعالجة ونقل المعلومات المتعلقة بمجالات وخدمات متعددة : العمل عن بعد ، الترفيه ، البريد الالكترونى ، استشارة بنوك المعلومات المتخصصة ، الاستهلاك عن بعد ، المعلومات التجارية والدعاية ، التحويلات النقدية الالكترونية ، المعاملات التجارية المتعلقة بالخدمات العامة والخاصة الرئيسية (بنوك ، تأمينات ، ملفات خاصة بالصحة ، أو بالتعليم ... الخ) توزيع صور وصفحات من الجرائد ، المؤتمرات المرئية ، المراقبة المنزلية عن بعد ، النسخ عن بعد ... الخ .

وبرغم أن غزو الحاسبات الدقيقة المنزلية لأمريكا الشمالية وأوروبا شهد تباطؤاً منذ عام ١٩٨٣ ــ ١٩٨٤ ، بسبب نقص الاستخدامات المنزلية الملائمة ، فربما تمثل هذه الأجهزة التقنية التى تركز على التعاون الجديد بين الوسائل السمعية البصرية ، والاتصالات اللاسلكية والحاسبات الآلية ، بداية مرحلة اعادة اكتشاف الامكانيات الخاصة للمنزل فى ارساء ماسماه بعض علماء التكنولوجيا والملتزمين « مجتمع الاتصال » . وتتوقع الدراسات المستقبلية الأمريكية المتعلقة بدخول الخدمات الاعلامية الجديدة الى المنازل الاكتشاف الوشيك لجيل جديد

من المنتجات (الطرفية والحاسبات الآلية) ستسمح بتصميم البريد الألكتروني ، والاستشارة التفاعلية عن بعد لوثائق وبطاقات موجودة فى بنوك للمعلومات ، ونظم تليفونية « ذكية » ونظم ترفيهية متعددة القدرات ، تتيح استخدامات جديدة لوسائل الإعلام . بيد أن غزو المنتجات الجديدة هذا لن يتيسر الا فى ظل ظروف معينة ، مثل ضرورة وضع بنية أساسية لشبكات الكترونية تسمح بتوصيل أجهزة الاستقبال المنزلية فيما بينها ، تطوير خدمات الاصلاح والصيانة ، أو انتشار انشطة التدريب على الثقافة التقنية اللازمة لاستخدام أجهزة الحاسب الآلى ، وأجهزة أمن فعالة ، والتوحيد القياسى لقواعد العمل ، وضع تشريع لحماية سرية البيانات الشخصية ... الخ .

وسيتم توصيل وسائل الإعلام المنزلية مثل الفيديو والبيك آب وجهاز التليفزيون فائق الجودة والحاسب الدقيق المرتبط بجهاز لتسجيل الصوت والصورة على اسطوانات ومزود بجهاز لمعالجة المعلومات عن بعد ، وجهاز استقبال الاتصالات اللاسلكية باستخدام الحاسب الآلى ، والتليفون المرئى .. الخ فيمابينها فى صوة تعاونية جديدة ، على أن يتم توصيل بعضها بشبكات عامة متعددة الامكانيات ومتفاعلة تسمح بمتابعة محطات تليفزيونية تقليدية ، وبرامج مرئية أو موسيقية بالطلب ، وخدمات فيديو والاتصال ببنوك للمعلومات .. الخ . هذا عدا امكانية متابعة برامج تليفزيونية مذاعة عبر أقمار البث الاصطناعية . ويمكن أن تؤدى هذه الظواهر الى انقلاب فى اشكالية توزيع السلع والخدمات ، فى ظل نموذج للاتصال والاستهلاك يشهد انصهار الدعاية والتسويق والاعلام والبيع فى تركيبة جديدة .

لذا فان أجهزة « التسويق التفاعلى » ــ التى تدعو المستهلكين للمشاركة المباشرة ، من خلال عمليات الشراء ، فى تعريف الأسواق المستهدفة التى ينتمون إليها ــ تكشف عن السلوكيات والرهانات الجديدة التى ستظهر فى مشروع « المجتمع الاتصالى » ، باعتباره المرحلة النهائية فى تطور ماأسماه بعض النقاد « المجتمع الاستهلاكى » . ولن يكون السلوك الشرائى هنا مجرد تصرف اقتصادى

يندرج فى سياق تجارى لتوزيع البضائع وانما هو فى الوقت ذاته تصرف اتصالى من طراز جديد : فهو فى المقابل عملية نقل من جانب المستهلك نفسه لمعلومات تتعلق بعاداته الشخصية وأسلوب حياته . وبذلك تكون الدائرة قد اكتملت : حيث عودتنا الدعاية على الفكرة القائلة بأن الاشياء تتفاعل كما لو كانت رموزا موجهة للمستهلكين ، بخلاف وظيفتها ، وهاهى السلوكيات الشرائية للمستهلكين يتم فك رموزها ، من جانب التجار هذه المرة وبانتظام بفضل الحاسب الآلى .

من المؤكد أن هذه الرؤى المستقبلية تضع فى اعتبارها بعض التقدم المتوقع احرازه فى مجال تقنيات الاتصال ، ولكنها تظل ، كما نرى ، متأثرة الى حد كبير بايديولوجية معينة للاتصال . ويتم كل شىء كما لو كانت التقنيات تولد بمجرد وجودها ، استخدامات مباشرة ومتحمسة من جانب العملاء الذى لاينتظرون غير ذلك . بل انها تدافع عن قدرة تقنيات الاتصال المختلفة على التكامل فيما بينها . ألا ينطوى ذلك على رؤية مغرقة فى المثالية ، لا تضع فى اعتبارها وجود انقسامات عميقة فى هذا المجال ؟

ينتقد عالم الاجتماع دومينيك ولتون ، على سبيل المثال ، الرؤية المستقبلية التى تصور الاتصالات اللاسلكية والحاسب الآلى والأجهزة السمعية البصرية كتركيبة متكاملة من أدوات وخدمات الاتصال التى تتطور فى اتجاه تلاقيها ، والتى يصفها بعض المحللين مثل كليرانسلين على سبيل المثال بأنها « كوكبة فيديوماتية » . ويؤكد ولتون على كون الاختلافات بين هذه المجالات أعمق مما توحى به الأحاديث الحالية . وربما يكون ثمة فجوة كبيرة بين أحاديث الشخصيات العامة والمتخصصين وبين الاتجاهات الفعلية لسلوكيات الجمهور . ويؤيد ولتون صعوبة توقع السلوكيات المستقبلية للجمهور ، فى ظل هذه الظروف، فيما يتعلق بالاستهلاك السمعى والبصرى «وتكون المشكلة الأساسية هى التوازن الذى ينبغى المحافظة عليه بين حياة يومية تفتقر الى الحركة نسبياً وبين الانفتاح على عالم لايكف عن النمو». ومع الثورة الحالية فى وسائل الإعلام ، هل سنجد أنفسنا منساقين الى التحرر من التزاماتنا الاجتماعية ، ويجد كل شخص

نفسه متنصلا من كل مسئولية ازاء الآخرين ؟ هل يؤدى الإعلام الزائد عن الحد فى شكل فيض من الصور القادمة من العالم الخارجى — على سبيل المفارقة — الى انطواء الأفراد ؟ كتب وولتون يقول أن هذا التطور الذى طرأ على الاتصال « يعيد طرح السؤال المتعلق بدوره فى تنظيم المجتمع » .

وتسير كل الأمور كما لو كانت الصورة الأخيرة لأيديولوجية الاتصال تتمثل فى توقع مجىء مجتمع الاتصال . ومن ثم نكون مضطرين لأن نطرح على أنفسنا عدداً من الأسئلة الدقيقة ازاء هذه الرؤية المستقبلية .

هل سيترك الأفراد والجماعات أنفسهم للمتعهدين الحكوميين وكبار العملاء الاقتصاديين المستفيدين من توزيع وارساء التقنيات الجديدة فى الإعلام والاتصال (صناع الأجهزة ، مقدمو الخدمات والمضامين، مسئولو النقل .. الخ) لكى يفرضوا عليهم مسلكا مبرمجاً ؟ وهل سيخضع سير الأحداث فى مجتمع الاتصال « لمنطق العرض » أو على العكس سيقوم المستخدمون أنفسهم (وهم هنا المستهلكون الفرديون ، والتنظيمات والتجمعات المحلية) بتحديد المسلك الذى تمليه مطالبهم واحتياجاتهم ؟

وهل سيكون تطور الاستخدامات الإعلامية الجديدة فى « مجتمع الاتصال » مستوحى من النموذج الرأسى لوسائل الاعلام (مركزية مصادر الارسال وبنوك المعلومات ، التوحيد القياسى للمضامين المتداولة ، مبادلات أحادية الاتجاه) ؟ وهل ستشجع هذه الاستخدامات الجديدة الانطواء على الذات والاستهلاك السلبى ؟ أم على العكس ستخلق أشكالاً جديدة من التضامن والروابط الاجتماعية ؟

هل يمكن أن يؤدى «مجتمع الاتصال» الى تعود، أو حتى اعتماد البشر على شكل من أشكال الحوار الذى يتم أولا من خلال الآلات ؟ وهل سيشهد إعلاء لقيمة حوار منطقى وبروتوكولى بين انسان وآلة على حساب الحوارات الأكثر ثراء وغموضاً فى الوقت نفسه بين البشر بعضهم وبعض ؟ أم أن الاستخدامات الإعلامية فى مجتمع الغد ستسمح لنا على العكس باكتشاف إمكانيات متفوقة

للابداع والاستقلالية ؟ هل ستجعل ثورة الاتصال من الانسان ضحية للتقنيات أم ستؤدى ، كما تمنى مؤسسوها ، الى بناء مجتمع أفضل يخلو من كافة أشكال التفرقة ؟

مراجع : C. Ancelin, 1985; Commissariat général du Plan, 1987; T. Forester, 1987; O.E. Klapp, 1986; J. Lesourne, M. Godet, 1985; J.S. Mayo, 1987; B.M. Murphy, 1986; S. Proulx (sous la dir.), 1982; D.E. Sanger, 1986; J. Tunstall, 1986; N.P. Vitalari, A. Venkatesh, 1987; B. Winston, 1986; D. Wolton, 1984, 1987

مراجع عامة

ADER Martin, *Le Choc informatique,* Denoël, Paris, 1984.

ALTHUSSER Louis, «Idéologie et appareils idéologiques d'État», *La Pensée*, n° 151, Paris, juin 1970, p. 3-38.

ANCELIN Claire, «Télécommunications et jeux de pouvoir», dans LESOURNE Jacques, GODET Michel, *La Fin des habitudes*, Seghers, Paris, 1985, p. 295-311.

ARISTOTE, *Rhétorique*, tomes 1, 2, et 3, texte établi et traduit par Médéric Dufour, Les Belles Lettres, Paris, 1967.

ARSAC Jacques, *Les Machines à penser*, Seuil, Paris, 1987.

AUGARTEN Stan, *Bit by Bit. An Illustred History of Computer*, Ticknor and Fields, New York, 1984.

BACKMAN J., «Is Advertising Wasteful?», *Journal of Marketing*, vol. 32, n° 1, 1968, p. 2-8.

BARAN P.A., SWEEZY P.B., *Le Capitalisme monopoliste*, Maspero, Paris, 1968.

BARTHES Roland, «Éléments de sémiologie», *Communications*, n° 4, Seuil, Paris, 1964, p. 91-135.

BARTHES Roland, *Mythologies*, Seuil, Paris, 1957.

BARTHES Roland, *Système de la mode*, Seuil, Paris, 1967.

BARTHES Roland, «L'ancienne rhétorique», *Communications*, n° 16, Seuil, Paris, 1970.

BAUDRILLARD Jean, *La Société de consommation*, SGPP, Paris, 1970.

BAUDRILLARD Jean, *Pour une critique de l'économie politique du signe*, Gallimard, Paris, 1972.

BAUDRILLARD Jean, *Simulacres et Simulation*, Galilée, Paris, 1981.

BEAUD Paul, *La Société de connivence: média, médiations et classes sociales*, Aubier, Paris, 1984.

BENJAMIN Walter, *L'Homme, le langage et la culture*, Denoël-Gonthier, coll. «Médiations», Paris, 1971: «L'œuvre d'art à l'ère de sa reproductibilité technique», p. 137-181.

BERELSON B., *Content Analysis in Communication Research*, Free Press, Glencoe, 1952.

BERELSON B., STEINER G.A., *Human Behavior: An Inventory of Scientific Findings*, Harcourt, Brace and World, New York, 1964, p. 527-555.

BERTHO Catherine, *Télégraphes et téléphones*, Le Livre de poche, Paris, 1981.

BLUMLER J.G., KATZ E., *The Uses of Mass Communications: Current Perspectives on Gratifications Research*, Sage Publications, Beverly Hills, 1974.

BLUMLER J.G., GUREVITCH M., KATZ E., «Reaching out: A Future for Gratifications Research», dans Rosengren K.E., WENNER L.A., PALMGREEN P., *Media Gratifications Research: Current Perspectives*, Sage Publications, Beverly Hills, 1985, p. 255-273.

BOGART Leo, *The Age of Television*, Frederick Ungar Publishing Co., New York, 1972 (éd. orig. 1956).

BONNANGE C., THOMAS C., *Don Juan ou Pavlov: essai sur la communication publicitaire*, Seuil, Paris, 1987.

BOULDING K.E., «Il est assez typique des esprits très créateurs d'enfoncer de très gros clous mais de taper toujours un peu à côté», dans STEARN, G.E., *Pour ou contre McLuhan*, Seuil, Paris, 1969, p. 61-69.

BRAMSON Leon, *The Political Context of Sociology*, Princeton University Press, Princeton, 1961.

BRAUDEL Fernand, *Civilisation matérielle, économie et capitalisme*, XV^{e}-XVIII^{e} siècle. Les structures du quotidien: le possible et l'impossible, Armand Colin, Paris, 1979.

BRETON Philippe, «La cybernétique et les ingénieurs dans les années cinquante», *Culture technique*, mai 1984.

BRETON Philippe, «Quelques précisions sur l'origine et l'histoire de trois termes en rapport avec une identité disciplinaire: informatique, ordinateur, information», *Le Langage et l'homme*, n° 58, Bruxelles, mai 1985.

BRETON Philippe, «Culture matérielle et formation: le cas de l'informatique», *Éducation permanente*, n° 90, Paris, octobre 1987, p. 15-21.

BRETON Philippe, «Rencontres et oppositions entre le monde de l'informatique et celui de la communication», communication au colloque «Nouvelles technologies de la communication: stratégies et enjeux», Direction générale des télécommunications, université Paris-IX, 11 décembre 1987.

BRETON Philippe, *Histoire de l'informatique*, La Découverte, Paris, 1987.

BURGELIN Olivier, «Structural Analysis and Mass Communications. Tendency of French Research on the Mass Communications», *Studies of Broadcasting*, n° 6, Tokyo, 1968, p. 143-168.

BURRAGE Michael, «Two Approaches to the Study of the Mass Media», *Archives européennes de sociologie*, tome X, n° 2, Paris, 1969, p. 238-253.

CADET A., CATHELAT B., *La Publicité: de l'instrument économique à l'institution sociale*, Payot, Paris, 1968.

CAREY J., «Mass Communication Research and Cultural Studies: An American View», dans CURRAN J., GUREVITCH M., WOOL-

LACOTT J., éds, *Mass Communication and Society*, Sage Publications, Beverly Hills, 1979, p. 409-425.

CATHELAT B., *Publicité et Société*, Payot, Paris, 1987.

CHARON J.-M., CHERKI E., *La Télématique domestique: état et perspectives*, CEMS, La Documentation française, Paris, 1985.

CICÉRON, *De l'orateur*, livre premier et livre second, texte établi et traduit par Edmond Courbaud, Les Belles Lettres, Paris, 1922.

COHEN John, *Les Robots humains dans le mythe et dans la science*, Vrin, Paris, 1968.

Collectif, «The Living McLuhan», dossier paru dans *Journal of Communication*, vol. 31, n° 3, été 1981, p. 116-199.

Commissariat général du Plan et CNRS, *Prospectives 2005: explorations de l'avenir*, Economica, Paris, 1987: en particulier, les textes de François Gros, Henri Guillaume, Simon Nora, ainsi que le chap. 3: «Technologies d'information et société de communication.»

COMSTOCK G., *Television in America*, Sage Publications, Beverly Hills, 1980.

COMSTOCK G., CHAFFEE S., KATZMAN N., MCCOMBS M., ROBERTS D., *Television and Human Behavior*, Columbia University Press, New York, 1978.

CORTEN A., TAHON M.-Bl., éds, *La Radicalité du quotidien: communauté et informatique*, VLB Éditeur, Montréal, 1988.

DAHLGREN Peter, «The Modes of Reception: For a Hermeneutics of TV News», dans DRUMMOND, P., PATERSON, R., éds, *Television in Transition: Papers from the First International Television Studies Conference*, British Film Institute, Londres, 1986, p. 235-249.

DAYAN Daniel, KATZ Elihu, «Performing Media Events», dans CURRAN J., SMITH A., WINGATE P., éds, *Impacts and Influences: Essays on Media Power in the Twentieth Century*, Methuen, Londres, 1987. p. 174-197.

DEFLEUR M.L., BALL-ROKEACH S.J., *Theories of Mass Communication*, Longman, New York, 1982.
DEGUISE Jacques, «L'entreprise de communication de masse», *Recherches sociographiques*, vol. XII, n° 1, Presses de l'université Laval Québec, 1971, p. 99-103.
DE LA HAYE Yves, *Dissonances*: critique de la communication, La Pensée sauvage, 1984.
DELLA SANTA André, *Une culture de l'imagination ou l'invention en rhétorique*, Patino, Genève, 1986.
DESCARTES, *Règles pour la direction de l'esprit*, Vrin, Paris, 1970.
DINCBUDAK Nezih, «Déréglementation de l'industrie des télécommunications: le cas américain», *Réseaux*, Paris, mars 1987, n°23.
DUBARLE Dominique, «Une nouvelle science: la cybernétique. Vers la machine à gouverner?», *Le Monde*, 28 décembre 1948.
DURANDIN Guy, *Les Mensonges en propagande et en publicité* PUF, Paris, 1982.
ELLUL Jacques, *Histoire de la propagande*, PUF, «Que sais-je?», Paris, 1967.
ELLUL Jacques, *Le Bluff technologique*, Hachette, Paris, 1988.
ENCAOUA David et KŒBEL Philippe, «Réglementation et déréglementation des télécommunications: leçons anglo-saxonnes et perspectives d'évolution en France», *Revue économique*, n° spécial, mars 1987.
ENZENSBERGER H.M., «Constituents of a Theory of the Media», *New Left Review*, vol. 64, nov.-déc. 1970, New York, p. 13-36.
ESCARPIT Robert, *Théorie générale de l'information et de la communication*, Hachette Université, Paris, 1976.
EWEN Stuart, *Consciences sous influence: publicité et genèse de la société de consommation*, Aubier, Paris, 1983.
FABRE Maurice, *Histoire de la communication*, Éditions Rencontre et Erik Nitsche International, Paris, 1963.

FLICHY Patrice, *Les Industries de l'imaginaire: pour une analyse économique des media*, Presses universitaires de Grenoble, Grenoble, 1980.
FORESTER Tom, *High-Tech Society: The Story of the Information Revolution*, MIT Press, Cambridge, 1987.
FRANK R.E., GREENBERG, M.G., *The Public's Use of Television*, Sage Publications, Beverly Hills, 1980.
GALBRAITH J.K., *Le Nouvel État industriel: essai sur le système économique américain*, Gallimard, Paris, 1968.
GHEBALI Victor-Yves, «Télécommunications et développement», *Problèmes économiques et sociaux*, n° 576, La Documentation française, Paris, 1988.
GILLES Bertrand, «L'évolution de la civilisation technique», dans *Histoire générale des techniques*, tome 2: «Les premières étapes du machinisme», Presses universitaires de France, Paris, 1965, p. 125-139.
GILLES Bertrand, *Histoire des techniques*, «La Pléiade», Gallimard, Paris, 1978.
GIRAUD Alain, «Le mouvement de dérégulation», *Réseaux*, Paris, mars 1987, n° 23.
GOURNAY DE Chantal, «Service non compris», *Réseaux*, Paris, mars 1987, n° 23.
GOURNAY DE Chantal, MERCIER Pierre-Alain, «Le coq et l'âne: du zapping comme symptôme d'une nouvelle culture télévisuelle», *Quaderni*, n° 4, Paris, 1988, p. 95-113.
GRANOU André, *Capitalisme et mode de vie*, Cerf, Paris, 1974.
GRANOU A., BARON Y., BILLAUDOT B., *Croissance et crise*, Maspero, Paris, 1979 (nouvelle édition, 1986).
GRIMAL Pierre, *La Civilisation romaine*, Arthaud, Paris, 1968.
GRIMAL Pierre, *Cicéron*, Fayard, Paris, 1986.
GUBACK T., Varis T., *Transnational Communication and Cultural Industries*, Report n° 92, Unesco, Paris, 1982.
GUSDORF Georges, *La Parole*, PUF, Paris, 1952.

HAINEAULT D.-L., ROY J.-Y., *L'inconscient qu'on affiche: essai psychanalytique sur la fascination publicitaire*, Aubier, Paris, 1984.

HALL Stuart, «Culture, the Media and the "Ideological Effect"», dans CURRAN J., GUREVITCH M., WOOLLACOTT J., éds, *Mass Communication and Society*, Sage Publications, Beverly Hills, 1979, p. 315-348.

HALL Stuart, «Encoding/Decoding», dans HALL S., HOBSON D., LOWE, A., WILLIS P., éds, *Culture, Media, Language*, Hutchison, Londres, 1980, p. 128-138.

HALLORAN James, *Les Moyens d'information dans la société: nécessité de développer la recherche*, Unesco, Paris, 1970.

HALLORAN James, *The Effects of Television*, Panther Modern Society, Londres, 1970.

HAMELINK Cees J., «Les technologies de l'information et le tiers monde», *Revue Tiers Monde*, Paris, juillet-août 1987.

HAVELOCK Eric A., *Aux origines de la civilisation écrite en Occident*, Maspero, Paris, 1981.

HEIMS Steve J., *John von Neumann and Norbert Wiener*, MIT Press, Cambridge, Mass., 1982.

HENNION Antoine, MEADE Cécile, *Dans les laboratoires du désir: le travail des agences de publicité*, Centre de sociologie de l'innovation, École des mines de Paris, CNET/ CNRS, 1987.

HOGGART Richard, *La Culture du pauvre*, Minuit, Paris, 1970.

HORKHEIMER Max, ADORNO Theodor W., *La Dialectique de la raison*, Gallimard, Paris, 1974.

HOVLAND C.I., JANIS I.L., KELLEY H.H., *Communication and Persuasion: Psychological Studies of Opinion Change*, Yale University Press, New Haven, 1953.

HUET A., ION J., LEFÈBVRE A., MIÈGE B., PERON R., *Capitalisme et industries culturelles*, Presses universitaires de Grenoble, Grenoble, 1978.

IFRAH Georges, *Les Chiffres, ou l'histoire d'une grande invention*, Robert Laffont, Paris, 1985.

JACOBS Norman (sous la dir. de), *Culture for the Millions?*, Beacon Press, Boston, 1964; voir, en particulier, les textes de LAZARSFELD, SHILS, ARENDT.

JANOWITZ M., SCHULZE R., «Tendances de la recherche dans le domaine des communications de masse», *Communications*, n° 1, Paris, 1961, p. 16-37.

JAY Martin, *L'imagination dialectique: Histoire de l'école de Francfort*, Payot, Paris, 1977: «Théorie esthétique et critique de la culture de masse», p. 205-251.

JEAN Georges, *L'Écriture, mémoire des hommes*, Découvertes/ Gallimard, «Archéologie», Paris, 1987.

JOANNIS Henri, *De l'étude de motivation à la création publicitaire, et à la promotion des ventes*, Dunod, Paris, 1981.

JOUËT Josiane, *La Communication au quotidien*, La Documentation française, Paris, 1985.

JOUËT Josiane, «Le vécu de la technique. La télématique et la micro-informatique à domicile», *Réseaux*, Paris, juin 1987, n° 25.

JOUËT Josiane, *L'Écran apprivoisé: télématique et informatique à domicile*, CNET, Paris, 1987.

KAPFERER Jean-Noël, *Les Chemins de la persuasion*, Dunod, Paris, 1984.

KATCHOURINE A., *La Psychologie sociale, clé du marketing*, Editions Sabri, Paris, 1967.

KATZ E., *Communications Research since Lazarsfeld*, Occasional Paper, Gannett Center for Media Studies, Columbia University, New York, 1987.

KATZ E., LAZARSFELD P., *Personal Influence*, Free Press, Glencoe, 1955.

KATZ E., GUREVITCH M., HAAS H., «On the Use of the Mass Media for Important Things», *American Sociological Review*, vol. 38, n° 2, New York, avril 1973, p. 164-181.

KATZ E., LIEBES T., «Mutual Aid in the Decoding of *Dallas*: Preliminary Notes from a Cross-Cultural Study», dans

DRUMMOND P., PATERSON R., éds, *Television in Transition: Papers from the First International Television Studies Conference*, British Film Institute, Londres, 1986, p. 187-198.

KEY W.B., *Subliminal Seduction*, New American Library, New York, 1974.

KLAPP Orrin E., *Overload and Boredom: Essays on the Quality of Life in the Information Society*, Greenwood Press, Westport, 1986.

KLAPPER J.T., *The Effects of Mass Communication*, Free Press, New York, 1960.

LABARRE Albert, *Histoire du livre*, Presses universitaires de France, Paris, 1970.

LAGNEAU Gérard, *La Sociologie de la publicité*, PUF, Paris, 1983.

LANDES David S., *L'Europe technicienne*, Gallimard, Paris, 1975.

LAPOUGE Gilles, *Utopie et civilisations*, Flammarion, 1978.

LASSWELL H.D., LEITES N., et autres, *Language of Politics*, G.W. Stuart Publ., South Norwalk, 1949.

LASSWELL H.D., LERNER D., SOLA POOL I. DE, *The Comparative Study of Symbols*, Stanford University Press, Stanford, 1952.

LASSWELL H.D., «The Structure and Function of Communication in Society», dans SCHRAMM W., éd., *Mass Communication*, University of Illinois Press, Urbana, 1960, p. 117-130 (article publié originellement en 1948).

LAULAN Anne-Marie (sous la dir. de), *L'Espace social de la communication*, RETZ CNRS, Paris, 1986.

LAZARSFELD P.F., «Remarks on Administrative and Critical Communications Research», *Studies in Philosophy and Science*, 9, 1941, p. 3-16.

LAZARSFELD P.F., «Communication Research and the Social Psychologist», dans DENNIS W., éd., *Current Trends in Social Psychology*, University of Pittsburgh Press, Pittsburgh, 1948.

LAZARSFELD P.F., BERELSON B., GAUDET H., *The People's Choice*, Columbia University Press, New York, 1948.

LAZARSFELD P.F., MERTON R.K., «Mass Communication, Popular Taste and Organized Social Action», dans SCHRAMM W., éd., *Mass Communications*, University of Illinois Press, Urbana, 1966, p. 492-512.

LEFEBVRE Henri, *La Vie quotidienne dans le monde moderne*, Gallimard, Paris, 1968.

LEFEBVRE Henri, *De L'État*, tome 2, 10/18, Paris, 1976.

LEFEBVRE Henri, *Critique de la vie quotidienne*, 3 tomes, L'Arche, Paris, 1958, 1961, 1981.

LEISS W., KLINE S., JHALLY S., *Social Communication in Advertising*, Methuen, Toronto, 1986.

LESOURNE Jacques, GODET Michel, *La Fin des habitudes*, Seghers, Paris, 1985.

LÉVY Pierre, *La Machine univers. Création, cognition et culture informatique*, La Découverte, Paris, 1987.

LIGONNIÈRE Robert, *Préhistoire et histoire des ordinateurs*, Robert Laffont, Paris, 1987.

LINDON Denis, *Marketing politique et social*, Dalloz, Paris, 1976.

MACBRIDE Sean, *Voix multiples, un seul monde*, rapport de la Commission internationale d'étude des problèmes de la communication, La Documentation française, Unesco, Paris, 1980.

MAFFESOLI Michel, *La Conquête du présent*, PUF, Paris, 1979.

MANDROU Robert, *Histoire de la pensée européenne. Des humanistes aux hommes de science*, Seuil, Paris, 1973.

MARCHAND Marie, SPES, *Les Paradis informationnels: du Minitel aux services de communication du futur*, Masson, Paris, 1987.

MARCUS STEIFF Joachim, *Les Études de motivation*, Hermann, Paris, 1961.

MARCUS STEIFF Joachim, «Les effets de la publicité sur les ventes. Quelques résultats de l'analyse des données naturelles»,

Revue française de sociologie, vol.10, n° 3, 1969.

MARCUSE Herbert, *L'Homme unidimensionnel*, Minuit, Paris, 1968.

MARSHALL Alfred, *Industry and Trade*, Londres, 1920 (cité par BARAN et SWEEZY, 1968).

MARTIN Henri-Jean, «L'imprimerie, origine et conséquences d'une découverte», dans *L'Écriture et la psychologie des peuples*, Librairie Armand Colin, Paris, 1963, p. 279-299.

MATTELART Armand, *Multinationales et systèmes de communication*, Anthropos, Paris, 1976.

MATTELART A., DELCOURT X., MATTELART M., *La Culture contre la démocratie ? L'audiovisuel à l'heure transnationale*, La Découverte, Paris, 1984.

MATTELART A. et M., *Penser les médias*, La Découverte, Paris, 1986.

MATTELART A. et M., *Le Carnaval des images: la fiction brésilienne*, La Documentation française, Paris, 1987.

MAYO John S., «New Developments in Computer and Communications Technologies», *Vital Speeches of the Day*, 53:16, 1er juin 1987, p. 499-503.

MCANANY E.G., «Cultural Industries in International Perspective: Convergence or Conflict?», dans DERVIN B., VOIGT M.J., éds, *Progress in Communication Sciences*, vol. VII, Ablex Publ. Corp., Norwood, 1986, p. 1-29.

MCCORMARCK Thelma, «Reflections on the Lost Vision of Communication Theory», dans BALL-ROKEACH S.J., CANTOR M.G., éds, *Media, Audience, and Social Structure*, Sage Publications, Newbury Park, 1986, p. 34-42.

MCLUHAN Marshall, *The Mechanical Bride: Folklore of Industrial Man*, Beacon Press, Boston, 1967 (édition orig. 1951).

MCLUHAN Marshall, *La Galaxie Gutenberg*, Mame, Paris, 1967.

MCLUHAN Marshall, *Pour comprendre les médias*, Mame Seuil,

Paris, 1968.
McLuhan Marshall, *D'œil à oreille,* HMH, Montréal, 1977.
McQuail Denis, *Towards a Sociology of Mass Communications*, Collier-Macmillan, Londres, 1969.
McQuail Denis, *Mass Communication Theory: An Introduction*, Sage Publications, Londres, 1983.
McQuail Denis, «Functions of Communication: A Nonfunctionalist Overview», dans Berger C.R., Chaffee S.H., éds, *Handbook of Communication Science*, Sage Publications, Newbury Park, 1987, p. 327-349.
Mercier Pierre-Alain, «La culture logicielle», *Critique régionale*, n° 16, Institut de sociologie, université de Bruxelles, Bruxelles, 1988, p. 101-107.
Mercier P.-A., Plassard, F., Scardigli, V., *La Société digitale: les nouvelles technologies au futur quotidien*, Seuil, Paris, 1984.
Merton Robert K., *Éléments de théorie et de méthode sociologique*, Plon, Paris, 1965: «Sociologie de la connaissance et psychologie sociale», p. 325-336.
Meyer T.P., Traudt P.J., Anderson J.A., «Nontraditional Mass Communication Research Methods: An Overview of Observational Case Studies of Media Use in Natural Settings», *Communication Yearbook*, 4, Transaction Books, New Brunswick, 1980, p. 261-275.
Missika Jean-Louis, Wolton Dominique, *La Folle du logis: la télévision dans les sociétés démocratiques*, Gallimard, Paris, 1983, chap. 6: «Les empiriques et les critiques», p. 186-214.
Moles Abraham A., *Sociodynamique de la culture*, Mouton, Paris, 1967.
Morin Edgar, *L'Esprit du temps*, Grasset, Paris, 1962.
Morin Edgar, «Nouveaux courants dans l'étude des communications de masse», dans *Essais sur les mass media*

et la culture, Unesco, Paris, 1971, p. 23-48.
MORIN Edgar, *Les Stars*, Seuil, Paris, 1972 (1ère édition, 1957).
MORIN, Edgar, *Pour sortir du xxe siècle*, F. Nathan, Paris, 1981.
MOUNIN Georges, *Introduction à la sémiologie*, Minuit, Paris, 1970.
MUCCHIELLI Roger, *Communication et réseaux de communication*, Éditions ESF, Paris, 1976.
MURPHY Brian M., *The International Politics of New Information Technology*, St. Martin's Press, New York, 1986.
MURRAY J.P., *Television & Youth: 25 Years of Research & Controversy*, The Boys Center for the Study of Youth Development, Stanford, 1980.
NEEDHAM Joseph, *La Science chinoise et l'Occident*, Seuil, Paris, 1969.
NIVAT Maurice, *Savoir et savoir-faire en informatique*, La Documentation française, Paris, 1983.
NORDENSTRENG K., SCHILLER H.I., éds, *National Sovereignty and International Communication*, Ablex, Norwood, 1979.
ORTEGA Y GASSET José, *La Révolte des masses*, Gallimard, Paris, 1961.
PACKARD Vance, *La Persuasion clandestine*, Calmann-Lévy, Paris, 1963.
PERELMAN Ch., OLBRECHTS-TYTECA, *Traité de l'argumentation, la nouvelle rhétorique*, Éditions de l'université de Bruxelles, 1970.
PIERCE William, JEQUIER Nicolas, «Les télécommunications au service du développement», *Rapport de synthèse du projet UIT-OCDE sur la contribution des télécommunications au développement économique et social*, UIT, Genève, 1983.
PRINGLE Peter, SPIGELMAN James, *Les Barons de l'atome*, Seuil, 1982.
PROULX Serge, «De la pratique publicitaire au Québec», *Communications*, n° 17, Seuil, Paris, 1971, p. 141-151.

PROULX Serge, *La Production sociale du discours publicitaire*, thèse de doctorat de troisième cycle, École pratique des hautes études, université de Paris, Paris, 1973.

PROULX Serge (sous la dir. de, avec P. BRISSON, G. KHOL et P. VALLIÈRES,), *Vie quotidienne et usages possibles des médias dans l'avenir*, Recherche prospective, ministère des Communications, gouvernement du Québec, Québec, 1982.

PROULX Serge (sous la dir. de), *Vivre avec l'ordinateur: les usagers de la micro-informatique*, G. Vermette, Montréal, 1988.

PROULX Serge, Tahon Marie-Blanche, «La dimension culturelle de la micro-informatique», *Loisir et Société*, Presses de l'université du Québec, Trois-Rivières, décembre 1988.

QUÉRÉ Louis, *Des miroirs équivoques. Aux origines de la communication moderne*, Aubier Montaigne, Paris, 1982.

QUÉRÉ Louis, «Sociabilité et interactions sociales», *Réseaux*, nº 29, CNET, Paris, 1988, p. 75-91.

RANDELL Brian, éd., *The Origins of Digital Computers*, Springer-Verlag, Berlin Heidelberg, New York, 1982.

RAVAULT René-Jean, «Information Flow: Which Way is the Wrong Way?», *Journal of Communication*, 31: 4, automne 1981, p. 129-134.

RAVAULT René-Jean, «Défense de l'identité culturelle par les réseaux traditionnels de "coerséduction"», *Revue internationale de science politique*, 7:3, juillet 1986, p. 251-280.

REAL M.R., *Mass-Mediated Culture*, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1977.

REBOUL Olivier, *La Rhétorique*, PUF, «Que sais-je?», Paris, 1984.

REVEL J.-F., *Contre Censures*, J.-J. Pauvert, Paris, 1966.

RICHARD E., «Historique du marketing», *L'Actualité économique*, vol. 41, nº 3, Montréal, 1965.

RICHERI Giuseppe, «Television from Service to Business: European Tendencies and the Italian Case», dans DRUMMOND P., PATERSON R., éds, *Television in Transition: Papers from the*

First International Television Studies Conference, British Film Institute, Londres, 1986, p. 21-35.
RILEY J.W., RILEY M.W., «Mass Communication and the Social System», dans MERTON R.K., BROOM L., COTTRELL L.S., éds, *Sociology Today*, Basic Books, New York, 1959, p. 537-578.
ROGERS E.M., *Diffusion of Innovations*, Free Press, New York, 1962.
ROGERS E.M., KINCAID D.L., *Communication Networks: Toward a New Paradigm for Research*, Free Press, New York, 1981.
ROQUEPLO Philippe, *Cultiver la technique*, ministère de la Recherche, Dalloz, Paris, 1983.
ROSENBERG B., WHITE D.M. (sous la dir. de), *Mass Culture: The Popular Arts in America*, Free Press, New York, 1957; voir, en particulier, les textes de MACDONALD, ANDERS, LANG, LAZARSFELD et MERTON, ADORNO.
ROSZAK Theodor, *The Cult of Information*, Pantheon Books, New York, 1986.
SANGER David E., «Wall Street's Tomorrow Machine», *The New York Times*, 19 octobre 1986.
SAUSSURE F. DE, *Cours de linguistique générale*, Payot, Paris, 1971.
SCHILLER H.I., *Mass Communications and American Empire*, Beacon Press, Boston, 1971.
SCHILLER H.I., *Communication and Cultural Domination*, M.E. Sharpe Inc., White Plains, New York, 1976.
SCHILLER H.I., «Electronic Utopias and Structural Realities», dans WHITNEY, D.C., WARTELLA, E., *Mass Communication Review Yearbook*, n° 3, Sage Publications, Beverly Hills, 1982, p. 283-287.
SCHILLER H.I., «Electronic Information Flows: New Basis for Global Domination?», dans DRUMMOND P., PATERSON R., éds, *Television in Transition: Papers from the First International Television Studies Conference*, British Film Institute, Londres, 1986, p. 11-20.

SFEZ Lucien, *Critique de la communication*, Seuil, Paris, 1988.
SIMON Denis Fred, «China's Computer Strategy», *China Business Review*, novembre-décembre 1986.
SINGER B.D., *Advertising and Society*, Addison-Wesley Publ. Ltd, Don Mills (Ontario), 1986.
SLACK J.D., ALLOR M., «The Political and Epistemological Constituents of Critical Communication Research», *Journal of Communication*, vol. 33, n° 3, 1983, p. 208-218.
SOLA POOL I. DE, éd., *Trends in Content Analysis*, University of Illinois Press, Urbana, 1959.
STEINER G.A., *The People Look at Television*, Alfred A. Knopf, New York, 1963.
STEINER George, *Dans le château de Barbe-Bleue. Notes pour une redéfinition de la culture*, Gallimard, Paris, 1973.
STERNBERG B., SULLEROT E., *Aspects sociaux de la radio et de la télévision*, Mouton, Paris, 1966, partie I.
TREMBLAY Gaëtan, «Développement des industries culturelles et transformation de la radiodiffusion canadienne», *Cahiers de recherche sociologique*, 4: 2, 1986, p. 39-62.
TUNSTALL Jeremy, *Communications Deregulation: The Unleashing of America's Communications Industry*, Basil Blackwell, New York, 1986.
TURING Alan, «Les ordinateurs et l'intelligence», *Pensée et Machine*, Coll. «Milieux», Champ Vallon, Paris, 1983.
VICTOROFF David, *La Publicité et l'image*, Denoël-Gonthier, Paris, 1978.
VITALARI N.P., VENKATESH A., «In-Home Computing and Information Service: A Twenty-Year Analysis of the Technology and Its Impacts», *Telecommunications Policy*, 11:1, mars 1987, p. 65-81.
VITALIS André, *Informatique, pouvoir et libertés*, Economica, Paris, 1981 (nouvelle édition, 1988).
VITALIS André, *Les Enjeux socio-politiques et culturels du système télématique TELEM*, LIANA, université de Nantes, 1983.
WHITE D.M., «Mass Communications Research: A View in

Perspective», dans DEXTER L., WHITE D.M., éds, *People, Society and Mass Communications*, Free Press, New York, 1964, p. 521-546.

WHITE R.A., «Mass Communication and Culture: Transition to a New Paradigm», *Journal of Communication*, vol. 33, n° 3, été 1983, p. 279-301.

WIENER Norbert, *Cybernetics or Control and Communication in the Animal and the Machine*, Hermann, Paris, 1948.

WIENER Norbert, *Cybernétique et Société*, Deux-Rives, Paris, 1952.

WIENER N., ROSENBLUETH A., BIGELOW J., «Comportement, intention et téléologie», *Les Études philosophiques*, 1961, n° 2.

WILLIAMS Raymond, *Culture and Society 1780-1950*, Penguin Books, Harmondsworth, 1961.

WILLIAMS Raymond, *Television: Technology and Cultural Form*, Fontana-Collins, Londres, 1974.

WILLIAMS Raymond, «Advertising: the Magic System», dans *Problems in Materialism and Culture*, Verso Editions, Londres, 1980, p.170-195.

WILLIAMS Raymond, *The Sociology of Culture*, Schoken Books, New York, 1981.

WINKIN Yves éd., *La Nouvelle Communication*, Seuil, Paris, 1981.

WINSTON Brian, *Misunderstanding Media*, Harvard University Press, Cambridge, 1986.

WOLTON Dominique, «Vers la société médiatique», *Le Monde*, Paris, 7 septembre 1984.

WOLTON Dominique, «La prospective de l'audiovisuel est-elle une question technique?», dans Commissariat général du Plan et CNRS, *Prospectives 2005: explorations de l'avenir*, Economica, Paris, 1987, p. 199-202.

WRIGHT C.R., «Functional Analysis and Mass Communication», dans DEXTER L., WHITE D.M., éds, *People, Society and Mass Communications*, Free Press, New York, 1964, p. 91-109

(article publié originellement en 1960).
WRIGHT C.R., «Functional Analysis and Mass Communication Revisited», dans BLUMLER J.G., KATZ E., éds, *The Uses of Mass Communications: Current Perspectives on Gratifications Research*, Sage Publications, Beverly Hills, 1974, p. 197-212.
WYMAN David S., *L'Abandon des juifs. Les Américains et la solution finale*, Flammarion, Paris, 1987.
YATES Frances, *L'Art de la mémoire*, Gallimard, Paris, 1975.

Lexique

argumentation : استدلال

calligraphie : فن الخط

cybernetique : علم التحكم والاتصال (سيبرنتيكا)

dérèglementation : دفع القيود الحكومية

dérégulation : رفع القيود الحكومية

digital : رقمى

discours épidictique : خطبة بيانية

evidence : بديهية

exorde : استهلال

informatique : معلوماتية

minotaure : وحش اسطوري فى الحضارة الكريتية

palimpseste : كتابة نص محل آخر بعد محو أو كشط النص الأول

préroraison : خاتمة

ordinateur : حاسب آلى - حاسوب

rhétorique : البلاغة ولكنها ارتبطت بالخطابة فى العصر الرومانى

satellite : قمر اصطناعى

télécommande : التوجيه عن بعد (ريموت كنترول)

المحتويـــات	الصفحة


International
انترناشيونال برس
Press
٥ شارع جمال الشاهد ـــ مدينة الصحفيين ت ٣٤٧٤٢٥٩



ماهى مجالات الإتصال الجديدة؟ وكيف نشأت أدوات الاتصال الكبرى؟ هل تتمتع وسائل الإعلام والدعاية بالقدرات التى نسبغها عليها أحيانا؟ ثم ماهي علاقة الحاسبات بالسلطة واتخاذ القرار. هذه هي بعض الأسئلة التي يحاول الكتاب الإجابة عليها، وينبع تميزه من كونه يحاول إلقاء نظرة شاملة علي جميع تقنيات الاتصال الاجتماعي الكبرى في أوروبا وأمريكا الشمالية. وبعد تحليل تاريخي لتطور هذه التقنيات ابتداء بالخطوات الأولى للكتابة وانتهاء بوسائل الإعلام الحديثة المرتبطة بالحاسبات الآلية، يطرح المؤلفان تصوراً نقدياً للثقافة الجديدة التى بدأت تظهر فى هذا السياق.

لقد ارتبطت نشأة «أيديولوجية الإتصال» باخفاق الأيديولوجيات السياسية التقليدية. ويؤكد المؤلفان أن نجاحها يرجع إلي كونها «أيدبولوجية بدون ضحايا»، فرضت نفسها كبديل للبربرية الناتجة عن الأوهام السياسية.

يتيح هذا الكتاب للمتخصصين فرصة تكوين رؤية شاملة لهذا المجال، أما حديثو العهد بالاتصال فيجعلهم أكثر إلماما بقيم العاملين فى وسائل الإعلام والاتصالات اللاسلكية والحاسبات الآلية والدعاية، ومصالحهم. ونحن علي يقين أن هذا الكتاب سيحوز إعجاب كل من يود استيعاب هذا التحدى العصري الهام.